إسعاد التقي بتصانيف البيهقي
(١)

الدر المنتقد

من

كتاب المعتقد

للإمام الحافظ الكبير أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي
(٣٨٤ - ٤٥٨هـ)

تأليف
أبي محمد بن عيسى الجزائري



دار ابن القيم
دار ابن عفان

الدُّرُّ المُنْتَقَدُ

مِنْ

كِتَابِ المُعْتَقَدِ

الطبعة الأولى

١٤٢٤ هـ ـ ٢٠٠٣ م

رقم الإيداع	٢٠٠٣/١٤٢٠٦
الترقيم الدولي	977 - 6052 - 99 - 1



دار ابن القيم للنشر والتوزيع
هاتف: ٨٢٧٤٥٤٥ - فاكس: ٨٠٥٦٥٥٤
الدمام - مدينة العمال - ص.ب: ٢٠٧٤٥
الرمز البريدي: ٣١٩٥١ بريد الخبر
المملكة العربية السعودية

دار ابن عفان
للنشر والتوزيع

القاهرة: ١١ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر
ت: ٥٠٦٦٤٢٠ - محمول: ٠١٠١٥٨٣٦٢٦
الجيزة: تليفكس: ٣٢٥٥٨٢٠ ص.ب ٨ بين السرايات
جمهورية مصر العربية
E-mail:ebnaffan@hotmail.com

إسعاد التقي بتصانيف البيهقي (١)

الدر المنتقد
من
كتاب المعتقد

للإمام الحافظ الكبير أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي
(٣٨٤ - ٤٥٨ هـ)

تصانيف البيهقي عظيمة القدر ، غزيرة الفوائد ، قل من جود تواليفه مثل الإمام أبي بكر ، فينبغي للعالم أن يعتني بهؤلاء ، سيما (سننه الكبير)
((السير (١٨ / ١٦٨)))

تأليف
أبي محمد بن عيسى الجزائري

دار ابن القيم
دار ابن عفان

مقدمة



إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره؛ ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله، فلا مضلَّ له؛ ومن يضلل، فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:

فإنَّه لما كان علم أصول الدين أشرف العلوم، إذ شرف العلم بشرف المعلوم؛ وهو الفقه الأكبر بالنسبة إلى فقه الفروع، وحاجة العباد إليه فوق كل حاجة، وضرورتهم إليه فوق كل ضرورة.

لأنه لا حياة للقلوب، ولا نعيم، ولا طمأنينة إلا بأن تعرف ربها ومعبودها وفاطرها، بأسمائه وصفاته وأفعاله؛ ويكون ـ مع ذلك كله ـ أحبَّ إليها مما سواه، ويكون سعيها فيما يقربها إليه دون غيره من سائر خلقه.

ثم يتبع ذلك أصلان عظيمان:

ـ **أحدهما**: تعريف الطريق الموصل إليه؛ وهي شريعته المتضمنة لأمره ونهيه.

ـ **والثاني**: تعريف السالكين ما لهم بعد الوصول إليه من النعيم المقيم.

فأعرف الناس بالله ـ عز وجل ـ، أتبعهم للطريق الموصل إليه؛ وأعرفهم بحال السالكين عند القدوم عليه.

والله ـ تعالى ـ أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، فلا هدى إلا فيما جاء به؛ وقد بلَّغ الرسول ﷺ البلاغ المبين، وأوضح الحجَّة للمستبصرين، وسلك سبيله خير القرون؛ ثم خلف من بعدهم خلف اتبعوا أهواءهم، وافترقوا، فأقام الله لهذه الأمة من يحفظ عليها أصول دينها؛ كما أخبر الصادق ﷺ بقوله: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم»(١).

ومَّمن قام بهذا الحق من علماء المسلمين: الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي؛ فأخبر ـ رحمه الله ـ عما كان عليه السلف، ونقل عن الإمام الشافعي وغيره من الأئمة المتَّبعين ما كانوا يعتقدون من أصول الدين، ويدينون به رب العالمين(٢)، محتجاً لذلك بآي القرآن الكريم وأحاديث الرسول ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ، وتكلَّم في كل باب بكلام متين، دالٍّ على ذكاء أصيل، وفقه دقيق رصين؛ مع إيجاز في العبارة، واستغناء عن التصريح بالإشارة؛ فجمع في كتابه هذا ما فرَّقه في تواليفه الأخرى المبسوطة ـ على ماذ كره في خطبته ـ.

وقد استعنت بالله ـ عز وجل ـ في القيام بخدمة هذا الكتاب؛ فحذفت أسانيد الأخبار المرفوعة والموقوفة، وما كان من الزيادات والمغايرات، فقد جريت فيه على نحو مما فعلت في كتابي: «التقرب المدني لألفاظ روايات سنن الدارقطني»(٣)، متبعاً في ذلك لسنة محدث العصر: شيخنا العلامة أبي

---

(١) وهو خبر صحيح، بل متواتر؛ رواه عن النبي ﷺ جمع من الصحابة، منهم: عمر، ومعاوية، والمغيرة بن شعبة، وأبو هريرة، ومرة البهزي، وجابر، وسلمة بن نوفل، وقرة بن إياس، وثوبان، وعمران بن حصين، وأبو أمامة الباهلي، وزيد بن أرقم، ومعاذ بن جبل ـ رضي الله عنهم ـ.
وقد صرَّح بتواتره شيخ الإسلام ابن تيمية في «الاقتضاء» (ص٦)، والعلامة الكتاني في «نظم المتناثر» (ص٩٣)؛ وللشيخ سليم الهلالي ـ حفظه الله ـ كتاب جمع فيه طرقه ورواياته، سماه: «اللآلىء المنثورة بأوصاف الطائفة المنصورة»؛ فمن شاء مزيد تفصيل، فليرجع إليه.

(٢) من مقدمة «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٦٩ ـ ٧٣) ـ باختصار، وتصرُّف.

(٣) وقد جمعت فيه كل أحاديث «سنن الدارقطني» المرفوعة وآثاره الموقوفة، مع حذف =

عبدالرحمٰن محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله ـ تعالىٰ ـ.

وشرطي فيه، وفيما يتلوه من أجزاء هذه السلسلة ـ بإذن الله تعالى ـ قريبٌ من شرط الحافظ أبي داود في «سننه»؛ إذ التزمت بأن أنبّه على ما كان فيه وهن، وما سكت عنه فهو صالح للاحتجاج، وبعضها أصح من بعض.

وإنما اشترطت على نفسي هذا الشرط طلباً للاختصار ـ الّذي توخّاه صاحب الكتاب ـ، ورغبة في عدم إثقال كواهلِ الحواشي بما قد يحرم القارىء من ثمرة الكتاب؛ ولغرض آخر هو: تخصيص مساحة كافية لبيان بعض الأخطاء العلمية التي ضمَّها الكتاب بين دفَّتيه، وإفادة القارىء بجملٍ من النكت العقديَّة ـ زيادة في خدمة الديوان ـ.

وسمَّيت هذا المختصر النافع ـ إن شاء الله تعالى ـ: «الدُّرُّ المُنتقد من كتاب المُعتقد»؛ وهذا العنوان مقتبسٌ من تسمية الإمام زين الدين عمر بن أحمد الشَّمَّاع الحلبي لكتابه، الذي اختصر فيه شرح العلاَّمة أبي الحسن بن عبدالهادي السندي على «المسند»، حيث سمَّاه: «الدُّرُّ المُنتقد من مسند أحمد»[1].

وأنا راجٍ من الكريم المنّان أن يوفِّقني إلى تقريب تصانيف هذا الإمام من مريديها، وإسعاف طالبيها بها؛ وأن يجعل عملي لوجهه الكريم خالصاً، وأن لا يجعل لأحدٍ فيه شيئاً؛ إنه ـ سبحانه ـ ولي ذلك والقادر عليه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وكتبه:

أبو محمد بن عيسى الجزائري

في: ٤/صفر/١٤١٩هـ

= الأسانيد، والمكرر من المتون إلا الزوائد الواردة في الروايات المتكررة فقد ضمت إلى أحاديثه، ووضعت كل زيادة منها في مكانها من كل حديث. وقريباً سيكون ـ بمشيئة الله ـ بين أيدي القرّاء الكرام.

(١) انظر «الحطة في ذكر الصحاح الستة» (ص٤٠٨ ـ ٤٠٩) للعلاَّمة صديق حسن خان القِنَّوجي.

المُصَنِّف



● اسمه ونسبته:

هوالحافظ العلامة الثَّبت، الفقيه، شيخ الإسلام، أبو بكر؛ أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسرَوجِردي، الخراساني، البيهقي(١).

● مولده:

ولد في شعبان، من عام أربعٍ وثمانين وثلاث مائة (٣٨٤هـ).

● حياته العلمية:

سمع ـ وهو ابن خمس عشرة سنة ـ من أبي الحسن محمد بن الحسين العلوي ـ صاحب أبي حامد بن الشَّرقي ـ، وهو أقدم شيخٍ عنده؛ وفاته

---

(١) يقول ياقوت الحموي في «معجم البلدان» (١/٥٣٧ ـ ٥٣٨): «بيهق ـ بالفتح ـ: أصلها بالفارسية «بَيْهَه»، يعني: بهاءين، ومعناه بالفارسية: الأجود؛ ناحية كبيرة وكُورَة واسعة كثيرة البلدان والعمارة، من نواحي نيسابور؛ تشتمل على ثلاثمائة وإحدى وعشرين قرية من نيسابور وقومس وجُوَين، بين أول حدودها ونيسابور ستون فرسخاً، وكانت قصبتها أولا خُسرُوجرد، ثم صارت سابْزَوَار ـ والعامة تقول: سَبزُور ـ. وأول حدود بيهق من جهة نيسابور آخر حدود رِيونَد إلى قرب دامغان خمسة وعشرون فرسخاً طولاً، وعرضها قريبٌ منه.

... وقد أخرجت هذه الكورة من لا يُحصى من الفضلاء والعلماء والفقهاء والأدباء، ومع ذلك فالغالب على أهلها مذهب الرافضية الغلاة!!».

السَّماع من أبي نعيم الإسفراييني - صاحب أبي عوانة -، وروى عنه بالإجازة، في كتاب «البيوع» من «سننه».

وسمع من الحاكم أبي عبدالله الحافظ فأكثر جدّاً، وتخرَّج به؛ ومن أبي طاهر بن مَحمِش الفقيه، وعبدالله بن يوسف الأصبهاني، وأبي علي الرُّوذباري، وأبي عبدالرحمن السُّلمي، وأبي بكر بن فُورَك المتكلِّم، وحمزة بن عبدالعزيز المُهَلَّبي، والقاضي أبي بكر الحِيري، وخلقٍ سواهم.

وسمع من جماعة من أصحاب الحافظ مسند العصر أبي العباس الأصم - عشرون رجلاً، سمَّاهم الذهبي -، وسمع بنيسابور، وبالطابَران، وبنَوقان، وببغداد وبالكوفة كذلك.

وتفقَّه على ناصر العمري، وغيره.

● قال الحافظ عبدالغافر بن إسماعيل في «تاريخ نيسابور» له: «كتب الحديث، وحفظه من صباه، وتفقه وبرع، وأخذ فن الأصول؛ وارتحل إلى العراق، والجبال، والحجاز».

● وقال الذهبي: «وبلغنا عن إمام الحرمين أبي المعالي الجُويني قال: ما من فقيه شافعي إلا وللشافعي عليه مِنَّة إلا أبا بكر البيهقي، فإن المنَّة له على الشافعي لتصانيفه في نصرة مذهبه[1]».

قلت: أصاب أبو المعالي، هكذا هو، ولو شاء البيهقي أن يعمل

---

(١) وروى الذهبي في «السير» (١٨/١٦٧ - ١٦٨) عن الإمام البيهقي أنه قال: «حين ابتدأت بتصنيف هذا الكتاب - يعني: كتاب «المعرفة في السنن والآثار» -، وفرغت من تهذيب أجزاء منه، سمعت الفقيه محمد بن أحمد - وهو من صالحي أصحابي، وأكثرهم تلاوة، وأصدقهم لهجة - يقول: رأيت الشافعي - رحمه الله - في النوم، وبيده أجزاء من هذا الكتاب، وهو يقول: «قد كتبت اليوم من كتاب الفقيه أحمد سبعة أجزاء - أو قال: «قرأتها -»؛ ورآه يعتدُّ بذلك.

قال: وفي صباح ذلك اليوم رأى فقيه آخر من إخواني الشافعي قاعداً في الجامع على سرير، وهو يقول: «قد استفدت اليوم من كتاب الفقيه حديث كذا وكذا».

لنفسه مذهباً يجتهد فيه؛ لكان قادراً على ذلك، لسعة علومه، ومعرفته بالاختلاف، ولهذا تراه يُلوِّح بنصر مسائل ممَّا صحَّ فيها الحديث».

• تلاميذه:

• ومن الرواة عنه: شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصاري ـ بالإجازة ـ، وولده إسماعيل بن أحمد، وحفيده أبو الحسن عبيد الله بن محمد بن أحمد، وأبو زكريا يحيى بن منده الحافظ، وزاهر بن طاهر الشَّحَّامي، وأبو المعالي محمد بن إسماعيل الفارسي، وعبدالجبار بن محمد الخُواري، وأبو عبدالله محمد بن الفضل الفَراوي[1]، وعبدالجبار بن عبدالوهاب الدَّهَّان، وأخوه عبدالحميد بن محمد الخَواري، وأبو بكر عبدالرحمٰن بن عبدالله بن عبدالرحمٰن البَحيري النيسابوري ـ المُتوفىٰ سنة أربعين وخمس مائة ـ، وطائفة سواهم.

• تصانيفه:

• وبورك له في علمه ـ لحسن قصده، وقوة فهمه وحفظه ـ، وصنَّف التصانيف النافعة، ولم يكن عنده «سنن النسائي»، ولا «سنن ابن ماجه»، ولا «جامع أبي عيسى»، بل عنده عن الحاكم وِقْرُ بعير ـ أو نحوُ ذلك ـ، وعنده «سنن أبي داود» عالياً.

• وانقطع بقريته مقبلاً على الجمع والتأليف، فعمل «السنن الكبير»؛ وألف «المدخل إلى السنن»، و «السنن الصغير»، و«معرفة السنن والآثار»، و «الخلافيات»، و«المبسوط في فروع الشافعية»، و«القراءة خلف الإمام»، و«نصوص الشافعي»، و«الأسماء والصفات»، و«البعث»، و«دلائل النبوة»، و«شعب الإيمان»، و«الرؤية»، و«الإسراء»، و«الأربعين الكبرى»، و«الأربعين الصغرى»، و«الترغيب والترهيب»، و«الدعوات»،

---

(١) وهو راوي نسختنا من كتاب «الاعتقاد» عنه.

و«الزهد»، و«الآداب»، و«فضائل الصحابة»، و«فضائل الأوقات»، و«مناقب الشافعي»، و«مناقب أحمد»؛ وله غير ذلك ممَّ يعسر إحصاؤه، ويشقُّ على الباحث استقصاؤه.

● قال الحافظ عبدالغافر بن إسماعيل: «وتواليفه تقارب ألف جزء مما لم يسبقه إليه أحدٌ؛ جمع بين علم الحديث والفقه، وبيان علم الحديث، ووجه الجمع بين الأحاديث. طلب منه الأئمة الانتقال من بيهق إلى نيسابور لسماع الكتب، فأتى في سنة إحدى وأربعين وأربع مئة، وعقدوا له المجلس لسماع كتاب «المعرفة»، و«حضره الأئمة».

● يقول الكتاني في «الرسالة المستطرفة» (ص٣١): «وللبيهقي كتب كثيرة، قيل: إنها نحو الألف؛ وقد التزم في جميعها أنه لا يخرج فيها حديثاً يعلمه موضوعاً».

● قال الفقيه محمد بن عبدالعزيز المروزي: «رأيت في المنام كأن تابوتاً علا في السماء يعلوه نورٌ، فقلت: ما هذا؟، قال: هذه تصنيفات أحمد البيهقي».

يقول الحافظ الذهبي معلِّقاً: «هذه رؤيا حق، فتصانيف البيهقي، عظيمة القدر غزيرة الفوائد؛ قلَّ من جوَّد تواليفه مثل الإمام أبي بكر؛ فينبغي للعالم أن يعتني بهؤلاء، سيما «سننه الكبير»».

وقد قدم قبل موته بسنة أو أكثر إلى نيسابور، وتكاثر عليه الطلبة، وسمعوا منه كتبه، وجلبت إلى العراق والشام والنواحي، واعتنى بها الحافظ أبو القاسم الدمشقي، وسمعها من أصحاب البيهقي، ونقلها إلى دمشق، هو وأبو الحسن المُرادي.

● وفاته:

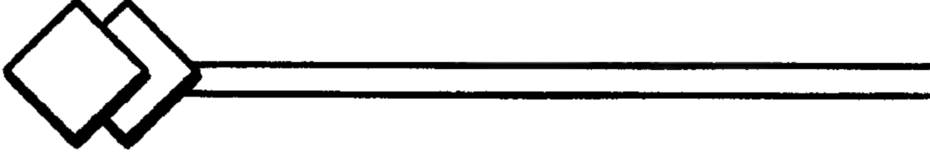
ولما سمعوا منه ما أحبوا في قِدمته الأخيرة مرض، وحضرت المنية، فتوفي في عاشر شهر جمادى الأولى، سنة ثمان وخمسين وأربع مئة، فغسل

وكفن، وعمل له تابوت، فنقل ودفن ببيهق؛ وعاش أربعاً وسبعين سنةً؛ رحمه الله، وجزاه عن الإسلام وأهله خيراً[1].



(١) ترجمته في:
١ ـ «سير أعلام النبلاء» (١٨/١٦٣ ـ ١٧٠) ـ للذَّهبي.
٢ ـ «العبر» (٢/٢٤٢) ـ للذَّهبي.
٣ ـ «دول الإسلام» (١/٢٦٩) ـ له أيضاً
٤ ـ «تذكرة الحفاظ» (٢/١١٣٢ ـ ١١٣٥) ـ له كذلك.
٥ ـ «طبقات الحفاظ» (ص٤٣٢ ـ ٤٣٣/ترجمة: ٩٧٩) ـ للسيُوطي.
٦ ـ «الأنساب» (٢/٣٨١) ـ لابن السَّمعاني.
٧ ـ «المنتظم» (٨/٢٤٢) ـ لابن الجَوزي.
٨ ـ «البداية والنهاية» (١٢/٩٤) ـ لابن كَثير.
٩ ـ «النجوم الزاهرة» (٥/٧٧ ـ ٧٨) ـ لابن تَغري بَردي.
١٠ ـ «شذرات الذهب» (٣/٣٠٤ ـ ٣٠٥) ـ لابن العِماد الحنبلي.
١١ ـ «وفيات الأعيان» (١/٧٥ ـ ٧٦) ـ لابن خِلّكان.
١٢ ـ «الوافي بالوفيات» (٦/٣٥٤) ـ للصَّفدي.
١٣ ـ «معجم البلدان» (١/٥٣٨ و٢/٣٧٠) ـ لياقوت الحَموي.
١٤ ـ «طبقات الشافعية» (٤/٨ ـ ١٦) ـ للسُّبكي.

المُصَنَّف



• تحقيق اسم الكتاب وتوثيق نسبته إلى صاحبه:

هذا الكتاب صحيح النسبة إلى الإمام البيهقي من حيث السند؛ كما أن الذين ترجموا له قد أجمعوا على ذكره ضمن تصانيفه؛ حيث نسبه إليه الذهبي في «السير» وفي «التذكرة»، والسيوطي في «طبقات الحفاظ»؛ ونسبه إليه ياقوت الحموي في «معجم البلدان»، وابن كثير في «التفسير»، وابن قاضي شُهبة في «طبقات الشافعية»، وحاجي خليفة في «كشف الظنون»، والكتاني في «الرسالة المستطرفة».

وقد أجمع مترجموا الحافظ البيهقي ـ من المتقدِّمين والمتأخِّرين ـ على تسمية كتابه هذا «الاعتقاد»، وتفرَّد الذهبي فسمَّاه «المعتقد»، وتبعه على ذلك السيوطي في «الطبقات»، لكنه حين نقل منه في «البدور السافرة» وافق الجماعة على تسميته «الاعتقاد»؛ ووقعت تسميته عند حاجي خليفة «الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد»، وفي النُّسخة الَّتي اعتمدناها[1]: «الاعتقاد على مذهب السلف أهل السنة والجماعة».

والمصنِّف ـ رحمه الله ـ لم يُشِر إلى تسمية كتابه هذا في مقدمته، ثم هو من أواخر تصانيفه، فيبعُد أن يأتي ذكره في بعض كتبه؛ والَّذي يبدو لي ـ والله أعلم ـ أن تسمية الكتاب ليست من مصنفه، وإنما استنبطت من قوله

(١) نشرتها «دار الكتب العلمية» ـ بيروت/الطبعة الثانية (١٤٠٦هـ).

في مقدمته: «غير أن جُل ما يحتاج إلى معرفته من ذلك للاعتقاد على السَّداد»، أو من كلامه في خاتمته، حيث قال: «هذا الذي أودعناه هذا الكتاب **اعتقاد أهل السنة والجماعة** وأقوالهم»؛ وقد وقع مثل هذا في غير ما ديوان من الدواوين.

● عرض الكتاب:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في «شرح العقيدة الأصفهانية» (ص٣١): «ومن شأن المصنفين في العقائد المختصرة على مذهب أهل السنة والجماعة أن يذكروا ما تتميز به أهل السنة والجماعة عن الكفار والمبتدعين، فيذكروا إثبات الصفات، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأنه تعالى يُرى في الآخرة ـ خلافاً للجهمية من المعتزلة وغيرهم ـ، ويذكرون أن الله خالق أفعال العباد، وأنه مريد لجميع الكائنات، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن ـ خلافاً للقدرية من المعتزلة وغيرهم ـ، ويذكرون مسائل الأسماء والأحكام والوعد والوعيد، وأن المؤمن لا يكفر بمجرد الذنب، ولا يخلد في النار ـ خلافاً للخوارج والمعتزلة ـ؛ ويحققون القول في الإيمان، ويثبتون الوعيد لأهل الكبائر مجملاً ـ خلافاً للمرجئة ـ، ويذكرون إمامة الخلفاء الأربعة وفضائلهم ـ خلافاً للشيعة من الرافضة وغيرهم ـ.

وأما الإيمان بما اتفق عليه المسلمون من توحيد الله تعالى، والإيمان برسله، والإيمان باليوم الآخر، فهذا لا بد منه؛ وأما دلائل هذه المسائل، ففي الكتب المبسوطة الكبار».

والمصنِّف ـ رحمه الله ـ قد نسج على هذا المنوال، فرتب عقيدته على مقتضى ما ذكره شيخ الإسلام، إلا أنه لم يصغها صياغة المتون، كما فعل الإمام أبو جعفر الطحاوي، ولكنه سار على درب مَن تقدَّمه مِن المحدِّثين في عرض العقائد على الأبواب؛ يورد في كل باب منها ما يناسبه من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والآثار السلفية، مع الكلام على وجه الدلالة فيما يسوقه من الأدلَّة، ومناقشة المخالفين في بعض الأحايين.

وقد قسَّم الحافظ البيهقي كتابه هذا على أبواب، قاربت الأربعين؛ يمكن توزيعها على محاور ثمانية رئيسة:

ـ **الأول**: المتعلق بالتوحيد؛ ويشمَل الكلام على توحيد الربوبية والأسماء والصفات.

ـ **الثاني**: المتعلق بالقرآن، والكلام على الاستواء، والرؤية.

ـ **الثالث**: المتعلق بالقدر.

ـ **الرابع**: المتعلق بالإيمان.

ـ **الخامس**: المتعلق بالولاء والبراء.

ـ **السادس**: المتعلق بحقوق الرعية على الولاة، وواجباتها تجاههم.

ـ **السابع**: المتعلق بالمعجزات والكرامات.

ـ **الثامن**: المتعلق بالصحابة، والخلفاء الراشدين.

● تقييم الكتاب:

المُتأمِّل فيما قرَّره البيهقي في «معتقده» يلمس تأثُّره بشيوخه، وقد وُجد فيهم من أخذ بآراء الإمام أبي الحسن الأشعري (٢٦٠ ـ ٣٢٤هـ) في مرحلته الانتقاليَّة من المدرسة الاعتزاليَّة إلى الجادَّة السلفيَّة؛ وفي طليعة هؤلاء الإمام أبو بكر بن فَورك القبَّاب ـ شيخ المتكلِّمين ـ، الَّذي حمل على عاتقه نشر العقيدة الأشعرية، والإمام أبو الطيب سهل بن سليمان الصُّعلوكي، الَّذي أورد المصنِّف أقواله في غيرما موطن من هذا الكتاب.

وقد بدا تأثره واضحاً بهذا المنهج فيما وقع له من التأويلات والمخالفات، والتي يمكن إجمالها في النقاط التاليات:

أ ـ في أبواب التوحيد:

١ ـ الاستدلال على حدوث الأشياء بحلول الحوادث بها.

٢ ـ الخلط بين توحيد الربوبيَّة وتوحيد الألوهيَّة.

٣ ـ الاستدلال على نفي التشبيه بمقدمات المتكلمين المجملة.

٤ ـ القول بالصفات السَّبع المعنويَّة، واعتماد طريقة السُّلوب في الإثبات.

٥ ـ القول بأن الأسماء التسعة والتسعين من وضع البشر ـ أي: أن أسماء الباري غير توقيفيَّة.

٦ ـ أخطاء أو إجمال في تعريف بعض الأسماء؛ كتعريف الإله بأنه القادر على الاختراع، وتعريف الملك بأنه القادر على الإيجاد، وتعريف القهار بأنه القادر، وتعريف الواسع بأنه العالم أو الغني، وتعريف الحكم بأنه المتكلِّم أو الحاكم بالنِّعم والنِّقم، وقصر تعريف الحكيم على المحكم والمصيب.

٧ ـ خطأ في تعريف العدل والظلم والغنى.

٨ ـ تأويل المحبة بإرادة الرحمة والمدح.

٩ ـ تأويل الجمال بالتحسين والتجميل.

١٠ ـ تأويل الإصبع بالقدرة.

١١ ـ قوله: أنَّ الوجه ليس بصورة.

١٢ ـ التسوية بين البصر والرؤية.

١٣ ـ التسوية بين الإرادة والمشيئة.

١٤ ـ التسوية بين القدرة والقوة.

١٥ ـ قوله بإحاطة القدرة والعلم دون إحاطة الذات.

١٦ ـ قوله بقرب العلم والإجابة دون قرب الذات.

١٧ ـ قوله بقدم الكلام مطلقاً؛ أعني: أنه لا يفرِّق بين قِدم جنس الكلام، وبين حدوث آحاد الكلمات.

١٨ ـ نفيه أن يكون الاستواء باستقرار، مع أنه من معانيه الثابتة عن السلف.

١٩ ـ نفيه السؤال بأين؟، مع نطق المعصوم به ـ كما في حديث الجارية الذي رواه مسلمٌ وغيره ـ.

ب ـ في أبواب القدر:

١ ـ تحويم حول نظرية الكسب.

ج ـ في أبواب الإيمان: التسوية بين الإسلام والإيمان والإحسان.

أما بقيَّة أبواب العقيدة الأخرى، فقد سار المصنِّف ـ رحمه الله ـ فيها على جادَّة الصواب، وقرَّر عقائد السَّلف تقريراً حسناً وبالجملة «فإن الحافظ أبا بكر البيهقي وأمثاله أقرب إلى السنة من كثير من أصحاب الأشعري المتأخِّرين الذين خرجوا عن كثير من قوله إلى قول المعتزلة أو الجهمية أو الفلاسفة»[(١)].

«ويوضح ذلك: ما أشرت إليه [في ترجمته] من أقوال أعلام أئمة المسلمين أولي الورع والدين، والحفَّاظ والنُّقَّاد المُتقنين الذين لا يجازفون في العبارات، بل يتأمَّلونها ويحرِّرونها، ويحافظون على صِيانتها أشدَّ المحافظات، وأقوالهم بنحو ما ذكرته غير منحصرة. وفيما أشرت إليه أبلغ كفاية للمستبصر»[(٢)].

ثم هو لم ينفرد بهذه الأخطاء، بل قد وقع مثل ذلك لغير واحد من أهل العلم والفضل، كالإمام أبي سليمان الخطَّابي، وأبي محمد ابن حزم، وأبي الفرج ابن الجوزي، وأبي الوفاء ابن عقيل، وأبي زكريَّا النووي، وأبي الوليد الباجي، وأبي الفضل ابن حجر، وغيرهم؛ وليسوا هم ممَّن يتقصَّد مخالفة السنة وأهلها، كيف هم حفاظها، الباذلون غاية الوسع في خدمتها، الحاثُّون على التَّمسُّك بها، وبما كان عليه أهل القرون الثلاثة المفضلَّة،

(١) نقلاً عن «شرح العقيدة الأصفهانية» (ص١٠٨) ـ بتصرُّف.

(٢) من مقالة الإمام النووي في الحافظ الكبير محمد بن إسماعيل البخاري «ما تمسُّ إليه حاجة القاري» (ص٣٠ ـ ٣١)، بتحقيق شيخنا أبي الحارث علي بن حسن الحلبي ـ وفقه المولى وأسبغ عليه نعمه.

ومجانبة أهل المقالات المنحرفة والبدع المضلَّة. فصدور مثل هذه المخالفات منهم لا يحطُّ من أقدارهم، ولا يُشغَّب بمثله عليهم «ومثل هذه المخالفات قد تقع في خفي الأمور ودقيقها باجتهاد من أصحابها، استفرغوا فيه وُسعهم في طلب الحق، ويكون لهم من الصواب والاتباع ما يغفر ذلك؛ كما وقع مثل ذلك من بعض الصحابة في مسائل الطلاق والفرائض ونحو ذلك[1]، ولم يكن منهم مثل [هذا الخلاف] في جليّ الأمور وجليلها، لأن بيان هذا من الرسول كان ظاهراً بينهم فلا يخالفه إلا من يخالف الرسول؛ وهم معتصمون بحبل الله، يحكِّمون الرسول فيما شجر بينهم، لا يتقدَّمون بين يدي الله ورسوله ـ فضلاً عن تعمُّد مخالفة الله ورسوله ـ.

فلما طال الزَّمان خفِي على كثيرٍ من الناس ما كان ظاهراً لهم، ودقَّ على كثير من الناس ما كان جليًا لهم؛ فكثُر من المتأخِّرين مخالفة الكتاب والسنة ما لم يكن مثل هذا في السلف. وإن كانوا مع هذا مجتهدين معذورين[2]، يغفر الله لهم خطاياهم، ويثيبهم على اجتهادهم»[3].

«... والذي أراه أن البيقهي ـ رحمه الله ـ أقرب شيء إلى عقيدة

---

(١) وليس لقائل أن يقول إن اجتهاد الصحابة كان في الفروع، واجتهاد هؤلاء في الأصول؛ فإنه «لم يفرق أحد من السلف والأئمة بين أصول وفروع، بل جعلُ الدين قسمين: أصولاً (و) فروعاً، لم يكن معروفاً في الصحابة والتابعين، ولم يقل أحد من السلف والصحابة والتابعين إن المجتهد الذي استفرغ وسعه في طلب الحق يأثم ـ لا في الأصول، ولا في الفروع ـ؛ ولكن هذا التفريق ظهر من جهة المعتزلة، وأدخله في أصول الفقه من نقل ذلك عنهم، وحكوا عن عبيد الله بن الحسن العنبري أنه قال: «كل مجتهد مصيب»، ومراده أنه لا يأثم. وهذا قول عامة الأئمة كأبي حنيفة والشافعي وغيرهما». «الفرقان بين الحق والباطل» (ص١٤٨ ـ ١٤٩) لشيخ الإسلام ابن تيميَّة ـ عليه رحمة رب البريَّة ـ.

(٢) والعذر عند كرام الناس مقبول، فكيف به عند الكريم رب العالمين الذي لا أحد أحب إليه العذر منه؟!!؛ كما في الحديث الذي رواه: البخاري (٦٤٥٤، ٦٩٨٠)، ومسلم (٢٧٦٠) ـ عن المغيرة بن شعبة: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «... ولا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث الرسل مبشِّرين ومنذرين».

(٣) بتصرُّف يسير من المصدر السابق (ص٨٧ ـ ٨٨).

مفوضة الحنابلة كأبي يعلى ونحوه؛ ممَّن ذكرهم شيخ الإسلام في «درء تعارض العقل والنقل»، ووصفهم بمحبة الآثار والتمسُّك بها، لكنهم وافقوا بعض أصول المتكلمين، وتابعوهم ظانين صحَّتها عن حسن نيَّة[(١)].

ولو قيل إن البيهقي ـ رحمه الله ـ كان متذبذباً في عقيدته، لكان ذلك أقرب إلى الصَّواب، كما يدلُّ عليه ما ضمَّه كتابه هذا بين دفَّتيه. والله أعلم»[(٢)].

ومن المفيد أن نذكر أن البيهقي قد نقل من كتاب «الإبانة» أكثر من مرة، وهو مع ذلك قد خالف الأشعري في بعض ما قرَّره فيها، ففي مسألة إثبات الإصبع لله تعالى يقول الإمام أبو الحسن (ص٤٨): «وندين بأن الله ـ تعالى ـ يقلِّب القلوب وأن القلوب بين أصبعين من أصابعه، وأن الله ـ عز وجل ـ يضع السماوات والأرضين على إصبع كما جاءت الرواية عن رسول الله ﷺ من غير تكييف»، وفي مسألة القوة يقول: «ونثبت أن لله قوة[(٣)]

---

(١) وهذا واضحٌ من بعض عباراته في هذا الكتاب؛ حيث يقول ـ رحمه الله ـ: «... وأصحاب الحديث فيما ورد من الكتاب والسنّة من أمثال هذا، ولم يتكلّم أحد من الصّحابة والتّابعين في تأويله على قسمين: منهم من قبله وآمن به ولم يؤوّله، ووكل علمه إلى الله، ونفى الكيفيّة والتّشبيه عنه. ومنهم من قبله وآمن به وحمله على وجه يصحّ استعماله في اللّغة، ولا يناقض التّوحيد». فهو يرى نفسه ـ وإن لم يصرِّح بذلك ـ بما وقع فيه من التأويل غير خارج عن طائفة أهل الحديث، بل إنَّه متّبِع للطائفة الثانية التي «تقبل النص وتؤمن به وتحمله على وجه يصحّ استعماله في اللّغة، ولا يناقض التّوحيد»!!.

(٢) من «منهج الأشاعرة في العقيدة» (ص٢٤ ـ ٢٨) للدكتور سفر بن عبدالرحمٰن الحوالي ـ باختصار، وتصرف.

قلت: والدكتور إنما تحدث عن الحافظ ابن حجر، والقول في الحافظ البيهقي كالقول في الحافظ ابن حجر سواءً بسواءٍ، لا سيّما وأنه قد كان يلقَّب بـ «البيهقي»!.

(٣) قلت: هذا الذي في أصول «الإبانة» ـ كما نبه عليه المحقق ـ، لكنه أثبت ما تفردت به نسخة ابن عساكر حيث ذكر بدل «القوة»: «القدرة»؛ وهذا عندي مرجوح لوجوه:

ـ أحدها: كون الأصول على خلافه.

ـ والثاني: أن الإمام الأشعري جعل من قول أهل الزيغ والبدع إنكار صفة القوة؛ فقال =

كـمـا قـال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ [فصلت: ١٥]»؛ أما البيهقي فنجده يتأوَّل الإصبع بالقدرة، والقوة بها كذلك ـ كما سيأتي التنبيه عليه في تضاعيف الكتاب ـ.

وممَّا لا شكَّ فيه أنه قد وقعت عينه على بعض هذه المواضع ـ على الأقل ـ، ومع ذلك فقد قرَّر خلافها، بحسب ما بدا له أنه الحق فيها؛ فهو إذن ليس أشعرياً ـ بمعنى أنَّه يقول بقول الأشعري في كل مقام ـ، وإن كان الحق في هذا المقام مع أبي الحسن الأشعري.

وعليه؛ فلا يمكن اعتبار عقيدة البيهقي أشعرية صِرفة، ولا حشره في زمرة الأشاعرة مطلقاً؛ «وكثيراً ما تجد في كتب الجرح والتعديل، ومنها «لسان الميزان» للحافظ ابن حجر قولهم عن الرجل أنه وافق المعتزلة في أشياء من مصنفاته، أو وافق الخوارج في بعض أقواله وهكذا، ومع هذا لا يعتبرونه معتزليًا أو خارجياً؛ وهذا المنهج إذا طبَّقناه على البيهقي وأمثاله لم يصحَّ اعتبارهم أشاعرة، وإنما يُقال: وافقوا الأشاعرة في أشياء، مع ضرورة بيان هذه الأشياء واستدراكها عليهم حتى يمكن الاستفادة من كتبهم بلا توجُّس في موضوعات العقيدة[1]»[2].

= في (ص٤١): «وأنكروا أن تكون لله قوة، مع قوله سبحانه: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]»؛ ولا ريب أن من تأوَّلها فقد نفاها.

ـ الثالث: كون الإمام الأشعري استدل لهذه الفقرة بما يدل على أنه أراد القوة، حيث قال في (ص١١٣): «... وذكر القوة، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧] [يقول ابن كثير (٦/٢٥٠) في المراد بالأيد: أي بقوة؛ قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والثوري، وغير واحد]».

أقول: وقد زعم المحقق في المقدمة (ص٤) أنه اختار ما رآه الأصح؛ ولا أدري ما الذي جعله يصحِّح ما أثبته، مع أن ذلك لا يصح لغة ولا عقيدة!!.

(١) وهذا الذي قمنا به؛ فقد جرَّدنا قلم البيان لتجلية ما وقع من الأخطاء في هذا الكتاب، وإبانة وجه الصواب. والله المُستعان، وعليه التُّكلان.

(٢) من «منهج الأشاعرة» (ص٢٨ ـ ٢٩) بتصرُّف اقتضاه المقام.

- **قيمته العلمية:**

هذا الكتاب من أواخر تصانيف البيهقي؛ إذ قرأه على طلبته سنة خمسين وأربعمائة ـ كما هو مُثبتٌ في سنده ـ؛ أي قبل ثمان سنين فقط من وفاته. وذلك ـ أيضاً ـ واضحٌ من مقدمته وخاتمته. ثم إن في تضاعيف سطوره إحالات كثيرة على تواليف له كبيرة ـ كـ «دلائل النبوة»، و«فضائل الصحابة»، و«الأسماء والصفات»، و«البعث والنشور»، وغيرها ـ.

فالمصنف قد وضع خلاصة جهوده السابقة في هذا الكتاب، بل أبان فيه عن عقيدته أيما إبانة؛ فهو مصدر نفيس لمن أراد دراسة عقيدة الإمام البيهقي.

وممَّا يشدُّ بصر الناظر فيه وفرة المادة الحديثية بين دفَّتيه ـ على صغر حجمه ـ، حيث قاربت الثلاث مائة والخمسين حديثاً، منها قريبٌ من خمس وثلاثين خبراً بين ضعيف ومنكر وموضوع، وهو ما يُعادل عُشر مادَّة الكتاب!!

ونظراً لجودة تبويب هذا المصنَّف، وقوَّة أدلَّته، ونظافة أخباره؛ فقد اعتنى أهل العلم به؛ فانتقاه الشيخ بدر الدين حسن بن عمر بن حبيب الحلبي (ـ ٧٧٩هـ)، وسمى كتابه «الكوكب الوقَّاد من كتاب الاعتقاد»؛ وكذلك فعل الإمام برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي (ـ ٨٨٥هـ) لما قرأ على ابن حجر، وسماه «خير الزاد من كتاب الاعتقاد»، فرغ منه في ذي القعدة سنة إحدى وستين وثمانمائة ـ على ما ذكره حاجي خليفة في «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» (٢/١٣٩٣، ١٥٢٤) ـ.



بسم الله الرحمن الرحيم



الحمد لله الذي خلق الخلق كما شاء لما شاء، واختار من الخلق لرسالته والدّعاء لمعرفته والتمسّك بطاعته من شاء، وهدى إلى إجابة دعوته واجتناب معصيته بما أقام من البيّنات وأظهر من الآيات من شاء، ووعد لأهل طاعته ما أعدّ لهم في الجنّة من الثواب كما شاء، وأوعد أهل معصيته بما أعد لهم في النّار من العقاب كيف شاء، لا معقب لحكمه.

كما قال ـ جلّ ثناؤه ـ في محكم كتابه، الّذي أنزله على نبيه محمد ﷺ وعلى آله ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]، وقال: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ـ إلى قوله: رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ١٦٣ ـ ١٦٥]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: ٢٥].

وقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم: ٣١]، وقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣١ ـ ١٣٣]، وقال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنعام: ٤٨ ـ ٤٩].

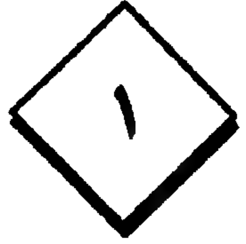
فالحمد لله على جميع نعمه، وصلى الله على كافّة رسله، وخصّ نبيّنا محمداً بأفضل الصلاة والتحية والبركة، وآتاه ما وعده من الوسيلة والفضيلة، والرفعة في الدنيا والآخرة، وبعثه يوم القيامة مقاماً محموداً يغبطه به الأوّلون والآخرون، وجمع بيننا وبينهم في جنّات النّعيم ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ بفضله ورحمته، إنّه أرحم الرّاحمين، وخير الغافرين.

أمّا بعد:

فإنّي ـ بتوفيق الله ـ سبحانه وتعالى ـ صنفتُ فيما يفتقر أهل التكليف إلى معرفته في أصول العلم وفروعه، ما قد انتشر ذكره في بعض البلاد، وانتفع به من وُفّق لسماعه وتحصيله من العباد، غير أنّ جلّ ما يحتاج إلى معرفته من ذلك للاعتقاد على السّداد، مفرقة في تلك الكتب، ولا يكاد يتفق لجماعتهم الإتيان على جمعها والإحاطة بجميعها.

فأردت ـ والمشيئة لله تعالى ـ أن أجمع كتاباً يشتمل على بيان ما يجب على المكلّف اعتقاده والاعتراف به، مع الإشارة إلى أطراف أدلّته على طريق الاختصار، وما ينبغي أن يكون شعاره على سبيل الإيجاز؛ فاستخرت الله ـ عز وجل ـ وفي جميع أموري، وابتدأت به مستعيناً بالله ـ عزّ اسمه ـ على إتمامه، وأسأله أن يجعلني والنّاظرين فيه ممّن يخصّه بجميل إنعامه وإكرامه، وجزيل إحسانه وامتنانه؛ إنه وليّه والقادر عليه، ولا حول ولا قوّة إلا بالله.





١ ـ باب:
ما يجب على العاقل البالغ معرفته والإقرار به



قال الله ـ جل ثناؤه ـ لنبيّه محمّد ﷺ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وقال له ولأمّته: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٠]، وقال: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٤]، وقال: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ الآية [البقرة: ١٣٦].

فوجب بالآيات قبلها معرفة الله ـ تعالى ـ وعلمه، ووَجب بهذه الآية الاعتراف به، والشّهادة له بما عرفه.

ودلّت السّنة على مثل ما دلّ عليه الكتاب:

فعن جابر (و) أبي هريرة قالا: قال رسول الله ﷺ: «أُمِرتُ أن أقاتل النّاس حتى يقولوا لا إله إلا الله [ويؤمنوا بي وبما جئت به]، فإذا قالوها عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلا بحقّها، وحسابهم على الله عز وجل»؛ وعن أبي هريرة ـ فذكر حديثاً طولاً؛ قال فيه: عن النبي ﷺ أنّه قال: «يا أبا هريرة ـ وأعطاني نعليه ـ اذهب بنعليّ هاتين، فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه، فبشّره بالجنّة».

وقال عثمان بن عفّان ـ رضي الله عنه ـ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله، دخل الجنّة»؛ وعن معاذ بن جبل: أنّ النبي ﷺ قال: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله، وجبت له الجنّة».

قال الشّيخ ـ رحمه الله ـ:

ـ ففي الحديث الأوّل: بيان ما يجب على المدعو أن يأتي به حتى يحقن به دمه.

ـ وفي الحديث الثاني: بيان ما يجب عليه من الجمع بين معرفة القلب، والإقرار باللّسان ـ مع الإمكان ـ، حتى يصح إيمانه.

ـ وفي الخبر الثالث (و) الرّابع: شرط الوفاة على الإيمان، حتى يستحق دخول الجنان ـ بوعد الله تعالى جدّه ـ، وبالله التوفيق.



٢

٢ ـ باب: ذكر بعض ما يستدل به على حدوث العالم وأن محدثه ومدبره إله واحد قديم لا شريك له ولا شبيه

قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٣ ـ ١٦٤].

عن أبي الضحى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ ـ قال: لما نزلت هذه الآية عجب المشركون، وقالوا: إن محمداً يقول: إن إلهكم واحد، فليأتنا بآية إن كان من الصادقين، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ ـ إلى قوله: ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

قال الشيخ ـ رحمه الله ـ: «فذكر الله ـ عز وجل ـ خلق السموات ـ بما فيها من الشمس والقمر والنجوم المسخرات ـ، وذكر خلق الأرض ـ بما فيها من البحار والأنهار والجبال والمعادن ـ، وذكر اختلاف الليل والنهار وأخذ أحدهما من الآخر، وذكر الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وذكر ما أنزل من السماء من المطر الذي فيه حياة البلاد، وبه وبما وضع الله في الليل والنهار من الحر والبرد يتم رزق العباد والبهائم والدواب، وذكر ما بث في الأرض من كل دابة مختلفة الصور والأجساد،

مختلفة الألسنة والألوان، وذكر تصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض، وما فيهما من منافع الحيوانات وما في جميع ذلك من الآيات البيّنات لقوم يعقلون.

ثم أمر في آية أخرى بالنظر فيهما، فقال لنبيه ﷺ: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [يونس: ١٠١]؛ يعني ـ والله أعلم ـ: من الآيات الواضحات، والدلالات النيرات.

وهذا لأنك إذا تأمّلت هيئة هذا العالم ببصرك، واعتبرتها بفكرك وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع ما يحتاج إليه ساكنه من آلة وعتاد، فالسماء مرفوعة كالسقف والأرض مبسوطة كالبساط، والنجوم منضودة كالمصابيح، والجواهر مخزونة كالذخائر، وضروب النبات مهيّأة للمطاعم والملابس والمآرب، وصنوف الحيوان مسخّرة للمراكب، مستعملة في المرافق، والإنسان كالمُملَّك البيت، المخوّل ما فيه، وفي هذا دلالة واضحة على أن العالم مخلوق بتدبير وتقدير ونظام، وأن له صانعاً حكيماً تام القدرة بالغ الحكمة ـ وهذا فيما قرأته من كتاب أبي سليمان الخطّابي ـ رحمه الله ـ.

قال الشيخ ـ رحمه الله ـ: ثمّ إنّ الله تعالى حضّهم على النّظر في ملكوت السموات والأرض، وغيرهما من خلقه في آية أخرى، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [الأعراف: ١٨٥] ـ يعني بـ«الملكوت»: الآيات.

يقول: أو لم ينظروا فيها نظر تفكر وتدبّر حتى يستدلوا بكونها محلاً للحوادث والتغييرات على أنّها محدثات[١]، وأنّ المُحدَث لا يستغني عن

(١) الاستدلال على حدوث الأشياء بحلول الحوادث بها، قاعدة من وضع المتكلمين، ليست هي قواعد التنزيل الذي أوحى به رب العالمين إلى محمد ﷺ الأمين، وأقام به الحجة على العرب المشركين؛ ولا هي من العلم الموروث عن السلف الأقدمين ـ من الصحابة والتابعين ـ، رضوان الله عليهم أجمعين. =

صانع يصنعه على هيئة لا يجوز عليه ما يجوز على المحدثات.

كما استدلّ إبراهيم ـ عليه السلام ـ، بمثل ذلك، فانقطع عنها كلّها إلى رب هو خالقها ومنشؤها ـ فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٩][1].

= وقد أدى استعمال هذه القاعدة إلى محاذير كبيرة، ومخالفات خطيرة؛ حيث ترتب عليها نفي كثيرة من الصفات الإلهية ـ وقد تورّط المصنف في بعض ذلك، كما سيأتي التنبيه عليه ـ.

وبناء على ما تقدّم، ظهر أن الإمام البيهقي ـ رحمه الله ـ لم يُوفَّق في تفسير هذه الآية الكريمة؛ والصواب ـ إن شاء الله ـ ما ذكره العلامة الحافظ ابن كثير عند تفسيره لها (١٦٥/٣)، حيث قال: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾؛ يقول تعالى: أو لم ينظر هؤلاء المكذبون بآياتنا في ملك الله وسلطانه في السموات والأرض وفيما خلق من شيء فيهما، فيتدبروا ذلك ويعتبروا به ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه، ومن فعل من لا ينبغي أن تكون العبادة والدين الخالص إلا له، فيؤمنوا به ويصدقوا رسوله، وينيبوا إلى طاعته، ويخلعوا الأنداد والأوثان، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت فيهلكوا على كفرهم، ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾: يقول: فبأي تخويف وتحذير وترهيب بعد تحذير محمد ﷺ وترهيبه الذي أتاهم به من عند الله في آي كتابه يصدقون، إن لم يصدقوا بهذا الحديث الذي جاءهم به محمد من عند الله عز وجل».

(١) قلت: قد قدّمنا أن الحكم على حدوث الأشياء بحلول الحوادث بها ليس هو من هدي السماء، ولا مما ينبغي أن ينسب إلى أب الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام؛ هذا على فرض أن المقام الذي كان فيه هو مقام نظر واستدلال، وليس كذلك ـ كما سيبينه العلامة أبو الفداء ـ، وإنما هذه الآيات هي حجته التي آتاه الله تعالى على قومه، ليبطل معبوداتهم؛ ويدلهم على الإله الحق.

يقول الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ (٣٤٣ ـ ٣٥): «وقد اختلف المفسرون في هذا المقام: هل هو مقام نظر أو مناظرة؟...؛ والحق أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان في هذا المقام مناظراً لقومه، مبيّناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام؛ فبين في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية، التي هي على صور الملائكة السماوية ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم، الذين هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته، ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر، وغير ذلك مما يحتاجون إليه. =

= وبين في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة - وهي: القمر، وعطارد، والزُّهَرَة، والشمس، والمريخ، والمشتري، وزُحل -، وأشدهن إضاءة وأشرفهن عندهم الشمس، ثم القمر، ثم الزُّهَرَة.

فبين أولاً - صلوات الله وسلامه عليه - أن هذه الزُّهَرَة لا تصلح للإلهية، فإنها مسخرة مقدرة بسير معين، لا تزيغ عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تملك لنفسها تصرفاً، بل هي جرم من الأجرام خلقها الله منيرةً، لما له في ذلك من الحكم العظيمة، وهي تطلع من المشرق ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال، ومثل هذه لا تصلح للإلهية؛ ثم انتقل إلى القمر فبين فيه مثل ما بين في النجم، ثم انتقل إلى الشمس كذلك.

فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أي: أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن، فإن كانت آلهة فكيدوني بها جميعاً ثم لا تنظرون ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٧٩﴾ أي: إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها، الذي بيده ملكوت كل شيء وخالق كل شيء، وربه ومليكه وإلهه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمْرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾.

وكيف يجوز أن يكون إبراهيم ناظراً في هذا المقام، وهو الذي قال الله في حقه ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢﴾ - الآيات، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنْعُمِهِۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ۝١٢١ وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٢٢ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٣﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كل مولود يولد على الفطرة»، وفي صحيح مسلم: عن عياض بن حمار: أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: إني خلقت عبادي حنفاء». وقال الله في كتابه العزيز ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ﴾، ومعناه على أحد القولين كقوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾، كما سيأتي بيانه.

فإذا كان هذا في حق سائر الخليقة، فكيف يكون إبراهيم الخليل الذي جعله الله أمة =

فعن ابن عباس: «في قوله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ يعني به: الشمس والقمر والنّجوم. ﴿رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ حتّى غاب، فلمّا غاب قال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ حتّى غاب فلمّا غاب قال: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾. ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ حتّى غابت، فلمّا غابت ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٧ ـ ٧٩] ـ الآية».

قال الشّيخ أحمد ـ رحمه الله ـ: وحثّهم على النّظر في أنفسهم والتّفكّر فيها، فقال: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذّاريات: ٢١] ـ يعني: لما فيها من الإشارة إلى آثار الصنعة الموجودة في الإنسان من يدين يبطش بهما، ورجلين يمشي عليهما، وعين يبصر بها، وأذن يسمع بها ولسان يتكلّم به، وأضراس تحدث له عند غناه عن الرّضاع، وحاجته إلى الغدد يطحن بها الطّعام، ومعدَة أعدّت لطبخ الغذاء، وكبد يسلك إليها صفوه، وعروق ومعابر تنفذ فيها إلى الأطراف، وأمعاء يرسب إليها تفِل الغذاء، ويبرز عن أسفل البدن، فيستدلّ بها على أنّ لها صانعاً حكيماً عالماً قديراً.

عن عبدالله بن الزّبير: «﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢١]؛ قال: سبيل الخلاء والبول»؛ وقال الأصمعيّ: «سمعت ابن السماك يقول لرجل: تبارك من خلقك فجعلك تبصر بشحم، وتسمع بعظم، وتتكلّم بلحم».

ـ قلنا: ثمّ إنّا رأينا أشياء متضادّة من شأنها التّنافر والتّباين والتّفاسد مجموعة في بدن الإنسان، وأبدان سائر الحيوان، وهي: الحرارة والبرودة والرّطوبة واليبوسة؛ فقلنا: إنّ جامعاً جمعها وقهرها على الاجتماع وأقامها بلطفه، ولولا ذلك لتنافرت ولتفاسدت، ولو جاز أن تجتمع المتضّادات المتنافرات، وتتقاوم من غير جامع يجمعها لجاز أن يجتمع الماء والنّار،

= قانتاً لله حنيفاً، ولم يك من المشركين، ناظراً في هذا المقام، بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة والسجية المستقيمة بعد رسول الله ﷺ ـ بلا شك ولا ريب ـ».

ويتقاوما من ذاتهما من غير جامع يجمعهما، ومقيم يقيمهما، وهذا محال لا يتوهّم، فثبت أنّ اجتماعها إنّما كان بجامع قهرها على الاجتماع والالتئام وهو الله الواحد القهّار.

وقد حكي عن الشّافعي - رحمه الله - أنه احتجّ بقريب من هذا المعنى حين سأله المرّيسي عن دلائل التّوحيد في مجلس الرّشيد، واحتجّ أيضاً بالآية الّتي ذكرناها في أوّل الباب، وباختلاف الأصوات.

- قلنا: وقد بيّن الله - تعالى - في كتابه العزيز تحوّل أنفسنا من حالة إلى حالة وتغيّرها، ليستدلّ بذلك على خالقها ومحوّلها؛ فقال: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [نوح: ١٣ - ١٤]، وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٥].

فالإنسان إذا فكّر في نفسه رآها مدّبرة، وعلى أحوال شتّى مصرّفة؛ كان نطفة، ثمّ علقة، ثمّ مضغة، ثمّ لحماً وعظماً، فيعلم أنّه لم ينقل نفسه من حال النّقص إلى حال الكمال، لأنّه لا يقدر أن يحدث لنفسه في الحال الأفضل الّتي هي حال كمال عقله وبلوغ أشدّه عضواً من الأعضاء، ولا يمكنه أن يزيد في جوارحه جارحة، فيدلّه ذلك على أنّه في حال نقصه وأوان ضعفه عن فعل ذلك أعجز.

وقد يرى نفسه شابّاً، ثمّ كهلاً، ثمّ شيخاً، وهو لم ينقل نفسه من حال الشّباب والقوّة إلى حال الشّيخوخة والهرم، ولا اختاره لنفسه، ولا في وسعه أن يزايل حال المشيب ويراجع قوّة الشّباب، فيعلم بذلك أنّه ليس هو الّذي فعل هذه الأفعال بنفسه، وأنّ له صانعاً صنعه وناقلاً نقله من حالٍ إلى حال، ولولا ذلك لم تتبدّل أحواله بلا ناقل ولا مدبّر.

ثمّ يعلم أنه لا يتأتّى الفعل المحكم المتقن، ولا يوجد الأمر والنّهي ممّن لا حياة له، ولا علم، ولا قدرة، ولا إرادة، ولا سمع، ولا بصر،

ولا كلام؛ فيستدلّ بذلك على: أنّ صانعه حيٌّ، عالمٌ، قادرٌ، مريد، سميع، بصير، متكلّم[1].

---

(١) وافق المصنف في هذا المقام الأشاعرة الذين يقولون: «إن لله سبع صفات عقلية يسمونها «معاني» هي: الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام؛ ولم يكتفوا بهذا التَّحكُّم المحض، بل قالوا إن له سبع صفات أخرى يسمونها «معنوية»؛ وهي كونه حياً، وكونه عالماً، وكونه قادراً، وكونه مريداً، وكونه سميعاً، وكونه بصيراً، وكونه متكلماً. ثم لم يأتوا في التفريق بين «المعاني» و «المعنوية» بما يستيسغه عقل، بل غاية ما قالوه: إن هذه الأخيرة أحوال، فإذا سألتهم ما الحال؟، قالوا: صفة لا معدومة، ولا موجودة» اهـ. من «منهج الأشاعرة في العقيدة» (ص٦٠) للدكتور سَفَر الحوالي.

قلت: وسلفهم في هذا الأصل الباطل ـ الذي أبطلوا به عديداً من الصفات ـ المعتزلة، إلا أنهم فارقوهم بزيادة الصفات «المعنوية»؛ ومستندهم في ذلك كون: تلك الصفات أثبتت بالعقل؛ لأن الفعل الحادث دل على القدرة، والتخصيص دل على الإرادة، والإحكام دل على العلم؛ وهذه الصفات مستلزمة للحياة، والحي لا يخلو عن السمع والبصر والكلام، أو ضد ذلك.

يقول شيخ الإسلام في «شرح الأصفهانية» (ص٢٤ ـ ٢٥): «ولا ريب أن ما أثبته هؤلاء الصفاتية من صفات الله تعالى ثابت بالشرع مع العقل، وهو متفق عليه بين سلف الأمة وأئمتها؛ وإنما خصوا هذه الصفات بالذكر دون غيرها، لأنها هي التي دل العقل عليها عندهم ـ كما نبه عليه المصنف ـ، ولكن لا يلزم من عدم الدليل المعيَّن عدم المدلول؛ فلا يلزم نفي ما سوى هذه من الصفات، والسمع قد أثبت صفات أخرى، وأيضاً فإن الرازي ونحوه ممَّن لم يثبت السمع طريقاً إلى إثبات الصفات ـ ولا نزاع بينهم أنه طريق صحيح ـ، لكن يفرقون بين ما أثبتوه وما توقفوا في ثبوته، بأن العقل دل على ما أثبتناه، ولم يدل على ما توقفنا فيه؛ ولهم فيما لم يثبتوه طريقان، منهم من نفاه ومنهم من توقف فيه، فلم يحكم فيه بإثبات ولا نفي، وهذه طريقة محققيهم كالرازي والآمدي وغيرهما، بل ومن الناس من يثبت صفات أخرى بالعقل.

فالذي اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها أن يوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل؛ فإنه قد علم بالشرع مع العقل أن الله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾، وقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾».

أقول: هذا على التسليم بأصل الحصر المذكور، وإلا فإن نفس اسم المريد والمتكلم =

ثمّ يعلم استغناء المصنوع بصانع واحد، وعلوّ بعضهم على بعض أن لو كان معه آلهة، وما يدخل من الفساد في الخلق أن لو كان معه آلهة، فيستدلّ بذلك على أنّه إله واحد لا شريك له؛ كما قال ـ عزّ من قائل ـ ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٩٢﴾ [المؤمنون: ٩١ ـ ٩٢]؛ وقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٢٢﴾ [الأنبياء: ٢٢].

ثمّ يعلم أنّ صانع العالم لا يشبه شيئاً من العالم؛ لأنّه لو أشبه شيئاً من المحدثات بجهةٍ من الجهات، لأشبهه في الحدوث من تلك الجهة، ومحال أن يكون القديم محدثاً، أو يكون قديماً من جهةٍ حديثاً من جهةٍ. ولأنّه يستحيل أن يكون الفاعل يفعل مثله؛ كالشّاتم لا يكون شتماً وقد فعل الشّتم، والكاذب لا يكون كذباً وقد فعل الكذب.

ولأنّه يستحيل أن يكون شيئان مثلين يفعل أحدهما صاحبه، لأنّه ليس أحد المثلين بأن يفعل صاحبه أولى من الآخر، وإذا كان كذلك، لم يكن لأحدهما على الآخر مزيّة يستحقّ لأجلها أن يكون محدثاً له، لأنّ هذا حكم المثلين فيما تماثلا فيه، وإذا كان كذلك استحال أن يكون الباري ـ سبحانه ـ مشبهاً للأشياء؛ فهو كما وصف نفسه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١][(١)].

= يحتاجان منا إلى وقفة؛ يقول شيخ الإسلام في «شرح الأصفهانية» (ص١٩): «وأما تسميته سبحانه بأنه مريد وأنه متكلم؛ فإن هذين الاسمين لم يردا في القرآن ولا في الأسماء الحسنى المعروفة، ومعناهما حق؛ ولكن الأسماء الحسنى المعروفة هي التي يدعى الله بها، وهي التي جاءت في الكتاب والسنة، وهي التي تقتضي المدح والثناء بنفسها».

(١) قلت: لقد أطال المصنف الكلام في هذا المقام، وأقام الدلائل العقلية المعروفة عند المتكلمين لنفي المثلية عن الله تعالى وبيان أنه ﷻ لا ند له ولا شبيه؛ لكن هذه الدلائل لا تخلو من غموض وإجمال، ثم إنه قد جاء في الكتاب والسنة، وما قرره سلف هذه الأمة ما يُغني عنها، مع وضوح وبيان لا مزيد عليه. =

وقـــال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١ - ٤]؛ فعن أبيّ بن كعب: «أنّ المشركين قالوا: يا محمّد، أنسب لنا ربّك!، فأنزل الله - تبارك وتعالى - ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾؛ لأنه ليس شيء يولد إلاّ سيموت، وليس شيء يموت إلاّ سيورث، وإنّ الله - تبارك وتعالى - لا يموت ولا يورث؛ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾، لـم يـكـن لـه شـبـيـه ولا عـدل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾»[١].

وعن ابن عبّاس: «- في قوله - عز وجل -: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]؛ قال: يقول: ليس كمثله شيء، وفي قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]؛ يقول: هل تعلم للرّب مثلاً أو شبيهاً»[٢].

= وحسبك أن الآية التي ذكرها أخيراً قد جمعت فأوعت، وضمت أصول الاعتقاد السديد في ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله؛ والاستدلال بها فرعٌ عن التسليم بصدق المخبر بها، وهو الله تعالى؛ فمن صدّق بالقرآن، ألزم بما دلّ عليه؛ ومما دلّ عليه نفي المثل والشبيه عن الله تعالى؛ فـ «قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ رد على المشبهة، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ رد على المعطلة؛ فهو سبحانه وتعالى موصوفٌ بصفات الكمال، وليس له فيها شبيه.

فالمخلوق وإن كان يوصف بأنه سميع بصير؛ فليس سمعه وبصره كسمع الرب وبصره، ولا يلزم من إثبات الصفة تشبيه إذ صفات المخلوق كما يليق به، وصفات الخالق كما يليق به» اهـ. «شرح الطحاوية» (ص١٣٧).

(١) أقول: إسناد هذا الخبر ضعيف، لكن قد وجدنا ما يشهد له ويقويه، عن جمع من الصحابة؛ منهم: جابر، وابن عباس، وابن مسعود، وعبدالله بن سلام، وأبي هريرة، وأنس؛ وروي عن قتادة، وسعيد بن جبير مثل ذلك. فالحديث بشواهده هذه حسن - على الأقل -؛ وقد قواه الحافظ بسكوته عليه في «الفتح» (٧٣٩/٨). لكن تبقى الجملة التفسيرية على ضعفها، لافتقاد الشاهد لها؛ ولذلك استثناها شيخنا الألباني - حفظه الله -، فقال عن خبر أُبيّ هذا: حسن دون قوله: «والصمد الذي...».

وترى تخريج هذا الخبر موسّعاً - بإذن الله - في كتابي «الاستخلاص لما ورد بشأن سورة الإخلاص».

(٢) قلت: ومن تدبّر الكتاب والسنة حق التدبّر لفت انتباهه كثرة ما ورد فيها من تنزيه الرب جل جلاله عن مشابهة المخلوقات ومماثلة المحدثات؛ وسر ذلك: أنّ: «حقيقة =

....

= الشرك: هو التشبه بالخالق والتشبيه للمخلوق به، هذا هو التشبيه في الحقيقة، لا إثبات صفات الكمال التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسوله، فعكس الأمر من نكس الله قلبه، وعمي عين بصيرته، وأركسه بكسبه، وجعل التوحيد تشبيهاً، والتشبيه تعظيماً وطاعة.

فالمشرك مشبه للمخلوق بالخالق في خصائص الإلهية؛ فإن من خصائص الإلهية التفرد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع، وذلك يوجب تعليق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل به وحده، فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق، وجعل ما لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشورا ـ فضلاً عن غيره ـ شبيهاً لمن له الأمر كله، فأزمَّة الأمور كلها بيديه، ومرجعها إليه؛ فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، بل إذا فتح لعبده باب رحمته لم يمسكها أحد، وإن أمسكها عنه لم يرسلها عليه أحد. فمن أقبح التشبيه: تشبيه هذا العاجز الفقير بالذات، بالقادر الغني بالذات.

ومن خصائص الإلهية: الكمال المطلق من جميع الوجوه، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه؛ وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده، والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوبة والتوكل والاستعانة، وغاية الذل مع غاية الحب، كل ذلك عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون له وحده؛ ويمنع عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون لغيره. فمن جعل شيئاً من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا مثيل له ولا ندَّ له، وذلك أقبح التشبيه وأبطله، ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم أخبر سبحانه عباده أنه لا يغفره، مع أنه كتب على نفسه الرحمة.

ومن خصائص الإلهية: العبودية التي قامت على ساقين لا قِوام لها بدونهما غاية الحب، مع غاية الذل، هذا تمام العبودية، وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الأصلين، فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله فقد شبهه في خالص حقه.

وهذا من المحال أن تجيء به شريعة من الشرائع وقبحه مستقر في كل فطرة وعقل، ولكن غيرت الشياطين فطر أكثر الخلق وعقولهم، وأفسدتها عليهم واجتالتهم عنها، ومضى على الفطرة الأولى من سبقت له من الله الحسنى، فأرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه بما يوافق فطرهم وعقولهم فازدادوا بذلك نوراً على نور: ﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥].

إذا عرف هذا فمن خصائص الإلهية السجود، فمن سجد لغيره فقد شبه المخلوق به. ومنها: التوكل، فمن توكل على غيره فقد شبهه به، ومنها: التوبة، فمن تاب لغيره فقد شبهه به. ومنها: الحِلف باسمه تعظيماً وإجلالاً له، فمن حلف بغيره فقد شبهه به، هذا في جانب التشبيه. =

قلنا: وقد سلك بعض مشايخنا ـ رحمنا الله وإيّاهم ـ في إثبات الصّانع وحدوث العالم طريق الاستدلال بمقدّمات النّبوّة ومعجزات الرّسالة، لأنّ دلائلها مأخوذة من طريق الحسّ لمن شاهدها، ومن طريق استفاضة الخبر لمن غاب عنها؛ فلمّا ثبتت النّبوّة صارت أصلاً في وجوب قبول ما دعا إليه النّبيّ ﷺ. وعلى هذا الوجه كان إيمان أكثر المستجيبين للرّسل صلوات الله عليهم أجمعين(١).

= ـ وأما في جانب التشبه به: فمن تعاظم وتكبر ودعا الناس إلى إطرائه في المدح والتعظيم والخضوع والرجاء، وتعليق القلب به خوفاً ورجاء والتجاء واستعانة فقد تشبه بالله ونازعه في ربوبيته وإلهيته، وهو حقيق بأن يهينه الله غاية الهوان ويذله غاية الذل، ويجعله تحت أقدام خلقه؛ وفي الصحيح عنه ﷺ قال: «يقول الله عز وجل: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منهما عذبته».

وإذا كان المصور الذي يصنع الصورة بيده من أشد الناس عذاباً يوم القيامة لتشبهه بالله في مجرد الصنعة، فمن الظن بالتشبه بالله في الربوبية والإلهية؟، كما قال النبي ﷺ: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون، يقال لهم: أحيوا ما خلقتم». وفي الصحيحين: عنه ﷺ أنه قال: «قال الله عز وجل: ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقاً كخلقي؛ فليخلقوا ذرة، فليخلقوا شعيرة»؛ فنبه بالذرة والشعيرة على ما هو أعظم منها وأكبر.

والمقصود: أن هذا حال من تشبه به في صنعة صورة، فكيف حال من تشبه به في خواص ربوبيته وإلهيته؟، وكذلك من تشبه في الاسم الذي لا ينبغي إلا لله وحده، كملك الأملاك، وحاكم الحكام، ونحوه. وقد ثبت في الصحيح: عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أخضع الأسماء عند الله رجل يسمى: بشاهان شاه ـ أي: ملك الملوك ـ، لا ملك إلا الله»، وفي لفظ: «أغيظ رجل على الله رجل يسمى بملك الأملاك». فهذا مقت الله وغضبه على من تشبه به في الاسم الذي لا ينبغي إلا له، فهو ـ سبحانه ـ ملك الملوك وحده، وهو حاكم الحاكم وحده، فهو الذي يحكم على الحكام كلهم، ويقضي عليهم كلهم، لا غيره». اهـ. من «الجواب الكافي» (ص١٥٩ ـ ١٦٢) لابن قيّم الجوزية.

(١) قلت: ولا شك أن هذا المسلك خطأ؛ لأن لازمه أن يكون أكثر الخلق جاحدين لوجود الباري ـ جل وعلا ـ، وليس الأمر كذلك، إذ الغاية من بعثة الرسل لم تكن لمجرّد إثبات وجود الله وإقامة الدلائل على ربوبيته، وإنما كانت لإفراد الله بالعبادة، لأن المشركين الجاحدين لوجود الله تعالى في الأمم قليلون، ولكن الجنس الآخر من الشرك ـ وهو الشرك في الألوهية ـ هو الذي لم ينج منه إلا القليل. =

فعن أمّ سلمة ـ زوج النّبيّ ﷺ ـ أنها قالت: «إنّ النّبيّ ﷺ لمّا فتن أصحابه بمكّة، أشار عليهم أن يلحقوا بأرض الحبشة؛ فذكر الحديث بطوله، إلى أن قال: «فكلّمه جعفر رضي الله عنه ـ يعني: النّجاشيّ ـ؛ فقال: كنّا على دينهم ـ يعني: على دين أهل مكّة ـ، حتّى بعث الله ـ عز وجل ـ فينا

= يقول الإمام أحمد بن علي المقريزي في رسالته البديعة «تجريد التوحيد المفيد» (ص٢٠): «ولا ريب أن توحيد الربوبية لم ينكره المشركون، بل أقرُّوا بأنه ـ سبحانه ـ وحده خالقهم وخالق السموات والأرض، والقائم بمصالح العالم كلِّه، وإنما أنكروا توحيد الإلهية والمحبة، كما قد حكى الله تعالى عنهم في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فلمّا سوُّوا غيرَه به في هذا التوحيد كانوا مشركين كما قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ①﴾ [الأنعام: ١]، وقد علَّم الله سبحانه وتعالى عباده كيفيّة مباينة الشرك في توحيد الإلهية وأنه تعالى حقيق بإفراده وليًّا وحكماً وربًّا فقال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ [الأنعام: ١٤] وقال: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ [الأنعام: ١١٤]، وقال: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾ [الأنعام: ١٦٤]. فلا وليّ ولا حكم ولا رب إلا الله الذي من عدل به غيره فقد أشرك في ألوهيته ولو وحّد ربوبيّته. فتوحيد الربوبيّة هو الذي اجتمعت فيه الخلائق ـ مؤمنها وكافرها ـ، وتوحيد الإلهية مَفرَق الطرق بين المؤمنين والمشركين، ولهذا كانت كلمة الإسلام: لا إله إلا الله، ولو قال: لا ربَّ إلا الله لما أجزأه عند المحقّقين. فتوحيد الألوهية هو المطلوب من العباد، ولهذا كان أصل (الله) الإله كما هو قول سيبويهِ، وهو الصحيح، وهو قول جمهور أصحابه إلا من شذ منهم.

وبهذا الاعتبار الذي قررنا به الإله، وأنه المحبوب لاجتماع صفات الكمال فيه، كان الله هو الاسم الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى والصفات العليا، وهو الذي ينكره المشركون، ويحتج الرب سبحانه وتعالى عليهم بتوحيدهم ربوبيته على توحيد ألوهيته، كما قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النمل: ٥٩ ـ ٦٠]. وكلما ذكر تعالى من آياته جملة من الجمل قال عقبها ﴿أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، فأبان سبحانه وتعالى بذلك أن المشركين إنما كانوا يتوقّفون في إثبات توحيد الإلهية لا الربوبيّة، على أن منهم من أشرك في الربوبية ـ كما يأتي بعد ذلك إن شاء الله تعالى ـ.

وبالجملة: فهو تعالى يحتج على منكري الإلهية بإثباتهم الربوبية».

رسولاً، نعرف نسبه وصدقه وعفافه؛ فدعا إلى أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، ونخلع ما يعبد قومنا وغيرهم من دونه، وأمرنا بالمعروف ونهانا عن المنكر، وأمر بالصّلاة والصيّام والصّدقة وصلة الرّحم، وكلّ ما يعرف من الأخلاق الحسنة، فتلا علينا تنزيلاً جاءه من الله عز وجل، لا يشبه شيء غيره؛ فصدّقناه وآمنّا به، وعرفنا أنّ ما جاء به هو الحقّ من عند الله عز وجل، ففارقنا عند ذلك قومنا وآذونا؛ فقال النّجاشيّ: هل معكم ممّا نزل عليه شيء تقرأونه عليّ؟، قال جعفر: نعم، فقرأ ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ [مريم: ١]، فلمّا قرأها، بكى النّجاشيُّ حتّى اخضلّت لحيته، وبكت أساقفته حتّى اخضلّت مصاحفهم؛ وقال النّجاشيّ: إنّ هذا الكلام والكلام الّذي جاء به موسى عليه السلام ليخرجان من مشكاة واحدة».

قلنا: فهؤلاء مع النّجاشيّ وأصحابه استدلّوا بإعجاز القرآن على صدق النّبي ﷺ فيما ادّعاه من الرّسالة، فاكتفوا به وآمنوا به وبما جاء به من عند الله، فكان فيما جاء به إثبات الصّانع وحدوث العالم.

وعن أنس أنه قال: «كنّا نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء، فكان يعجبنا أن يأتيه الرّجل من أهل البادية، فيسأله ونحن نسمع؛ فأتاهم رجل منهم فقال: يا محمّد، أتانا رسولك، فزعم أنّك تزعم أنّ الله أرسلك؟، قال: صدق، قال: فمن خلق السّماء؟، قال: الله، قال: فمن خلق الأرض؟، قال: الله، قال: فمن نصب هذه الجبال؟، قال: الله، قال: فمن جعل فيها هذه المنافع؟، قال: الله، قال: فبالّذي خلق السّماء والأرض ونصب الجبال وجعل فيها هذه المنافع؛ الله أرسلك؟، قال: نعم، قال: وزعم رسولك أنّ علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا، قال: صدق، قال: فبالّذي أرسلك؛ آللّه أمرك بهذا؟، قال: نعم، قال: وزعم رسولك أنّ علينا صوم شهر في سنتنا، قال: صدق، قال: فبالّذي أرسلك؛ آللّه أمرك بهذا؟، قال: نعم، قال: وزعم رسولك أنّ علينا حجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً، قال: صدق، قال: فبالّذي أرسلك؛ آللّه أمرك بهذا؟، قال: نعم، قال: والّذي بعثك بالحقّ لا أزيد عليهنّ ولا أنقص منهنّ؛ فلمّا مضى قال: لئن صدق ليدخلنّ الجنّة».

قال الشّيخ ـ رحمه الله ـ: فهذا السّائل كان قد سمع بمعجزات رسول الله ﷺ، فكانت مستفيضة في زمانه، ولعلّه سمع أيضاً ما كان يتلوه من القرآن، فاقتصر في إثبات الخالق ومعرفة خلقه على سؤاله وجوابه عنه[1].

وقد طالبه بعض من لم يقف على معجزاته بأن يريه من آياته ما يدلّه على صدقه، فلمّا أراه إيّاه ووقف عليه آمن به، وصدّقه فيما جاء به من عند الله عز وجل؛ فعن ابن عبّاس أنه قال: «جاء أعرابيّ إلى النّبيّ ﷺ فقال: بما أعرف أنّك رسول الله؟؛ قال: أرأيت لو دعوت هذا العِذق من هذه النّخلة، أتشهد أنّي رسول الله؟، قال: نعم، قال: فدعا العذق، فجعل العذق ينزل من النّخلة حتّى سقط في الأرض، فجعل يَنقُز حتّى أتى النّبيّ ﷺ قال: ثمّ قال له: ارجع، فرجع، حتّى عاد إلى مكانه؛ فقال: أشهد أنّك رسول الله، وآمن». ورواه ابن عمر عن النبي ﷺ بمعناه.

---

(١) قلت: استدل المصنف ـ رحمه الله ـ على صحة المسلك الذي سار عليه بعض شيوخه بحديث أم سلمة في قصة جعفر مع النجاشي، وبحديث ضمام بن ثعلبة؛ وليس في واحد من الحديثين دليل على ما سيق لأجله، بل فيهما الدليل على بطلان هذا المسلك وفساده.

ـ أما الحديث الأول؛ فقد قال المؤلف عقبه: «فهؤلاء مع النّجاشيّ وأصحابه استدلّوا بإعجاز القرآن على صدق النّبي ﷺ فيما ادّعاه من الرّسالة، فاكتفوا به وآمنوا به وبما جاء به من عند الله، فكان فيما جاء به إثبات الصّانع وحدوث العالم».

قلت: لا شك في ذلك، ولكن هل يلزم منه أن النجاشي ـ رحمه الله ـ وقساوسته كانوا منكرين لوجود الله تعالى؟، كيف وهم أهل كتاب؟!

ـ وأما قصة ضمام بن ثعلبة؛ فقد علّق عليها بقوله: «ولعلّه سمع أيضاً ما كان يتلوه من القرآن، فاقتصر في إثبات الخالق ومعرفة خلقه على سؤاله وجوابه عنه».

قلت: وهل كان مجيء ضمام بن ثعلبة للسؤال عن إثبات الخالق أو عن إثبات صدق نبوة محمد ﷺ؟، وما ذكره ضمام إنما هو مقدمات توسل بها إلى الاستيثاق من صدق النبوة، بدليل أنه سأل النبي ﷺ بحق الملك الخلاق عن صدقه في دعواه.

ولم يكن في العرب منّ ينكر وجود الله تعالى ـ كيف وهم كانوا يرون أنفسهم على دين إبراهيم ﷺ ـ، والعرب إنما كانوا شاكين بي نبوة محمد ﷺ، لا شاكين في وجود الله عز وجل، فكانت معجزة القرآن دليلاً على صدق دعواه، وأنه مرسل من عند الله الخالق العظيم، الذي عرفوه وأدركوا عظمته بفطرتهم وبدلائله في مخلوقاته الأرضية والسماوية.

٣

٣ ـ باب: ذكر أسماء الله وصفاته
ـ عزت أسماؤه، وجل ثناؤه ـ

قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٨٠﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وقال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الحشر: ٢٣ ـ ٢٤].

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلاّ واحداً، من أحصَاها دخل الجنّة؛ إنّه وترٌ يحبُّ الوترَ. هو الله لا إله إلاّ هو الرّحمن الرّحيم، الملك، القدّوس، السّلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبّار، المتكبّر، الخالق، البارىء، المصوّر، الغفّار، القهّار، الوهّاب، الرزّاق، الفتّاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرّافع المعزّ، المذلّ، السّميع، البصير، الحكم، العدل، اللّطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشّكور، العليّ، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرّقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشّهيد، الحقّ، الوكيل، القويّ، المتين، الولّي، الحميد، المحصي، المبدىء، المعيد، المحيي المميت، الحيّ، القيّوم، الواجد، الماجد، الواحد، الصّمد، القادر، المقتدر، المقدّم، المؤخّر، الأوّل، الآخر، الظّاهر، الباطن، الوالي، المتعال، البر، التّواب، المنتقم، العفوّ، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغنيّ،

المانع، الضّار، النّافع، النّور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرّشيد، الصّبور».

وفي رواية: «إنّ لله تسعةً وتسعين اسماً، من أحصاها كلّها دخل الجنّة؛ الله، الرّحمن، الرّحيم، الإله، الرّب، الملك، القدّوس، السّلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبّار، المتكبّر، الخالق، البارىء، المصوّر، الحليم، العليم، السّميع، البصير، الحيّ، القيّوم، الواسع، اللّطيف، الخبير، الحنان، المنّان، البديع، الودود، الغفور، الشّكور، المجيد، المبدي، المعيد، النور، البادي، الأوّل، الآخر، الظّاهر، الباطن، العفوّ، الغفّار، الوهّاب، القادر، الأحد، الصّمد، الوكيل، الكافي، الباقي، الحميد، المغيث، الدّائم، المتعالي، ذو الجلال والإكرام، الولي، النّصير، الحقّ، المبين، الباعث، المجيب، المحيي، المميت، الجليل، الصّادق، الحافظ، المحيط، الكبير، القريب، الرّقيب، الفتّاح، التّواب، القديم، الوتر، الفاطر، الرّزاق، العلاّم، العليّ، العظيم، الغنيّ، المليك، المقتدر، الأكرم، الرّؤوف، المدبّر، القدير، المالك، القاهر، الهادي، الشّاكر، الكريم، الرّفيع، الشّهيد، الواحد، ذو الطّول، ذو المعارج، ذو الفضل، الخلاّق، الكفيل، الجميل».

قال الشّيخ - رحمه الله -: تفرّد بالرّواية الأولى مع ذكر الأسامي: الوليد بن مسلم عن شعيب بن أبي حمزة. وتفرّد بهذه الرّواية: عبدالعزيز بن الحصين بن الترجمان عن أيّوب السّختياني (و) هشام بن حسّان.

وزعم بعض أهل العلم بالحديث: أنّ ذكر الأسامي في هذا الحديث من جهة بعض الرّواة؛ وأنّ الحديث عن النّبيّ ﷺ في ذكر عددها دون تفسير العدد[1]، وهذه الأسامي مذكورة في كتاب الله عز وجل، وفي سائر

(1) قال الحافظ في «الفتح» (١١/٢٢٨): «واختلف العلماء في سرد الأسماء؛ هل هو مرفوع، أو مدرج في الخبر من بعض الرواة؟؛ فمشى كثير منهم على الأول، وذهب آخرون إلى أن التعيين مدرج لخلو أكثر الروايات عنه، ونقله عبدالعزيز النخشبي عن كثير من العلماء». =

الأحاديث عن نبيّنا محمّد ﷺ مفردةً نصًا أو دلالةً، فذكرناها في كتاب «الأسماء والصّفات».

وقوله ﷺ: «إنّ لله تسعة وتسعين اسماً» لا ينفي غيرها، وإنّما أراد ـ والله أعلم ـ، أنّ من أحصى من أسماء الله ـ عز وجل ـ تسعة وتسعين اسماً دخل الجنّة، سواءٌ أحصاها ممّا نقلنا في الحديث الأوّل، أو ممّا ذكرنا في الحديث الثّاني، أو من سائر ما دلّ عليه الكتاب أو السّنّة أو الإجماع ـ وبالله التّوفيق(١).



= قلت: وهذا القول هو الصواب، وبه جزم غير واحد من المحققين ـ من المتقدمين والمتأخرين ـ؛ منهم: المصنف، والترمذي، والعقيلي، والداودي، وابن حزم، وابن العربي، وابن عطية، وأبو الحسن القابسي، وابن تيمية، وابن كثير، وابن حجر، والألباني، وابن باز، وابن عثيمين، وغيرهم.
وترى الكلام على حديث الأسماء الحسنى مبيناً في «الاستخلاص» ـ بقلمي.

(١) وقد اختلف في هذا العدد هل المراد به حصر الأسماء الحسنى في هذه العدة أو أنها أكثر من ذلك ولكن اختصت هذه بأن من أحصاها دخل الجنة؛ فذهب الجمهور إلى الثاني، بل نقل النووي اتفاق العلماء عليه. قال السيوطي في «شرحه على ابن ماجه» (ص٢٧٥): «واتفق العلماء على أن هذا الحديث ليس فيه حصر لأسمائه سبحانه وتعالى فليس معناه أنه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين، وإنما مقصود الحديث أن لهذه التسعة والتسعين من أحصاها دخل الجنة فالمراد: الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها، لا الإخبار بحصر الأسماء». وقال صاحب «النهاية في غريب الحديث» (٣٩٧/١) ـ بعدما ذكر خمسة أقوال في بيان المراد في الإحصاء ـ: «وبالجُملة: ففي كلِّ اسم يُجرِيه على لسانه يخطر بباله الوصف الدّالّ عليه.

٤

٤ ـ باب:
ذكر معاني الأسماء الّتي روّيناها عن طريق الإيجاز



ـ **الله** ـ معناه: من له الإلهيّة؛ وهي القدرة على اختراع الأعيان(١)، وهذه صفة يستحقّها بذاته.

ـ **الرّحمن**: من له الرّحمة.

ـ **الرّحيم**: الرّاحم، فعيل ـ بمعنى: فاعل ـ على المبالغة.

وقيل: الرّحمٰن: المريد لرزق كلّ حيّ في الدّنيا، الرّحيم: المريد لإكرام المؤمنين بالجنّة في العقبى؛ فيرجع معناهما إلى صفة الإرادة، الّتي هي صفة قائمة بذاته(٢).

---

(١) قلت: هذا التعريف غير صواب، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في «التدمرية» (ص٨٣): «وليس المراد بـ(الإله) هو القادر على الاختراع، كما ظنه من أئمة المتكلمين، حيث ظن أن الإلهية هي القدرة على الاختراع دون غيره، وأن من أقر بأن الله هو القادر على الاختراع دون غيره فقد شهد أن لا إله إلا الله. فإن المشركين كانوا يقرون بهذا وهم مشركون ـ كما تقدّم بيانه ـ بل الإله الحق هو الذي يستحق أن يعبد؛ فهو إله بمعنى مألوه، لا إله بمعنى آلِه؛ والتوحيد أن يعبدالله وحده لا شريك له، والإشراك أن يجعل مع الله إلهاً آخر».

(٢) يقول ابن كثير (١/٢٢ ـ ٢٣): «﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، ورحمٰن أشد مبالغة من رحيم، وفي كلام ابن جرير ما يُفهم منه حكاية الاتفاق على هذا، وفي تفسير بعض السلف ما يدل على ذلك».
=

ـ **الملك**: هو التّام الملك، والمالك: هو الخاص الملك؛ وحقيقتهما في صفة الله ـ عز وجل ـ أن يكون قادراً على الإيجاد، وهذه صفة يستحقّها بذاته[1].

ـ **القدّوس**: هو الطّاهر من العيوب، المنزه عن الأولاد والأنداد؛ وهذه صفة يستحقها بذاته.

ـ **السّلام**: هو الّذي سلم من كلّ عيب، وبرىء من كلّ آفةٍ، وهذه صفة يستحقّها بذاته؛ وقيل: هو الّذي سلم المؤمنون من عقوبته.

ـ **المؤمن**: هو الذي صدق نفسه، وصدق عباده المؤمنين، فتصديقه لنفسه علمه بأنّه صادق، وتصديقه لعباده علمه بأنّهم صادقون؛ وقيل: المؤمن الّذي يؤمّن عباده المؤمنين يوم القيامة من عقوبته.

ـ **المهيمن**: هو الشّهيد على خلقه بما يكون فيهم من قولٍ أو عملٍ، وهو من صفات ذاته، وقيل: هو الأمين، وقيل: هو الرّقيب على الشّيء والحافظ له.

ـ **العزيز**: هو الغالب الّذي لا يغلب، والمنيع الّذي لا يوصل إليه؛ وقيل: هو القادر القويّ، وقيل: هو الّذي لا مثل له؛ وهو من صفات الذّات.

ـ **الجبّار**: هو الّذي لا تناله الأيدي، ولا يجري في ملكه غير ما أراد، وهو من الصّفات الّتي يستحقّها بذاته؛ وقيل: هو الّذي جبر الخلق على ما

= قلت: وأما ما تأوله بعضهم من أن الرحمٰن الرحيم هو المريد ـ مع تفريق في المُراد ـ، فمبني على تأويل الرحمة بالإرادة؛ وهذا قول باطل، وقد أحسن المصنف إذ ساقه بصيغة التمريض؛ ولا شك أنه قول مريض.

(١) قلت: هذا التعريف غير مستقيم؛ يقول المقريزي (ص٢٢): «والملك هو الآمر الناهي الذي لا يخلق خلقاً بمقتضى ربوبيته، ويتركهم سدى معطّلين لا يؤمرون ولا ينهون، ولا يثابون ولا يعاقبون؛ لأن الملك هو الآمر الناهي، المعطي المانع، الضار النافع، المثيب المعاقب». وقال ابن كثير (٦/٣٦٢): «الملك: أي المالك لجميع الأشياء، المتصرّف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة».

أراد، وقيل: هو الّذي جبر مفاقر الخلق، وهو على هذا المعنى من صفات فعله.

- **المتكبّر**: هوالمتعالي عن صفات الخلق، وهذه صفة يستحقّها بذاته؛ وقيل: هو الّذي يتكبّر على عُتاة خلقه إذا نازعوه العظمة، فيقصمهم(١).

- **الخالق**: هو المبدع المخترع للخلق على غير مثال سبق.

- **البارىء**: هو الخالق، وله اختصاص بقلب الأعيان.

- **المصوّر**: هو الّذي أنشأ خلقه على صورٍ مختلفةٍ.

- **الغفّار**: هو السّتّار(٢) لذنوب عباده مرّةً بعد أخرى.

- **القهّار**: هو القاهر - على المبالغة -، وهو القادر؛ فيرجع معناه إلى صفة القدرة الّتي هي صفة قائمة بذاته. وقيل: هو الّذي قهر الخلق على ما أراد(٣).

- **الوهّاب**: هو الّذي يجود بالعطاء الكثير من غير استثابةٍ.

- **الرزّاق**: هو القائم على كلّ نفس بما يقيمها من قوتها، وما مكّنها

---

(١) يقول الحافظ ابن كثير (٣٦٣/٦): «﴿ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ أي: الذي لا تليق الجبرية إلا له، ولا التكبر إلا لعظمته، كما تقدّم في الصحيح: «العظمة إزاري والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منهما عذّبته»؛ . . . وقال قتادة: المتكبر - يعني: عن كلّ سوءٍ».

(٢) أقول: الصواب أن الله من أسمائه السِّتِّير لا السّتّار، كما في صريح الخبر الثابت الذي رواه: أبو داود (٤٠١٢)، والنسائي (٤٠٦، ٤٠٧)، وأحمد (١٧٥٠٩) عن يعلى: «أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يغتسل بالبراز بلا إزار؛ فصعد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه؛ ثم قال ﷺ: «إن الله عز وجل حيي سِتِّير يحب الحياء والسِّتر، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر».
والسِّتِّير: فعِّيل بمعنى فاعل؛ أي: من شأنه وإرادته حب السّتر.

(٣) يقول ابن كثير (٧/٣): «القاهر: أي هو الذي خضعت له الرقاب وذلت له الجبابرة، وعنت له الوجوه، وقهر كل شيء، ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه وعظمته وعلوه وقدرته على الأشياء، واستكانت وتضاءلت بين يديه، وتحت قهره وحكمه».

من الإنتفاع به من مباح وغير مباح رزق لها.

ـ **الفتّاح**: هو الحاكم بين عباده، ويكون الفتّاح الّذي يفتح المنغلق على عباده من أمورهم ديناً ودنيا، ويكون بمعنى النّاصر.

ـ **العليم**: هو العالم ـ على المبالغة ـ، فالعلم له صفة قائمة بذاته.

ـ **القابض الباسط**: هو الّذي يوسع الرّزق ويقتره؛ يبسطه بجوده ورحمته، ويقبضه بحكمته. وقيل: القابض: الّذي يقبض الأرواح بالموت الّذي كتبه على العباد، والباسط: الّذي يبسط الأرواح في الأجساد.

ـ **الخافض الرّافع**: فالخافض هو الّذي يخفض من يشاء بانتقامه، والرّافع هو الّذي يرفع من يشاء بإنعامه.

ـ **المعزّ المذلّ**: يعزّ من يشاء، ويذلّ من يشاء؛ لا مذلّ لمن أعزه، ولا معزّ لمن أذلّه.

ـ **السّميع**: من له سمع يدرك به المسموعات، والسّمع له صفة قائمة بذاته.

ـ **البصير**: من له بصر يرى به المرئيّات، والبصر له صفة قائمة بذاته.

ـ **الحكم**: هو الحاكم وحكمه خبره، وخبره قوله، فيرجع معناه إلى صفة الكلام[١]، وقد يكون بمعنى حكمه لواحد بالنّعمة، ولآخر بالمحنة، فيكون من صفات فعله.

ـ **العدل**: هو الّذي له أن يفعل ما يفعل[٢]، وهذه صفة يستحقّها بذاته.

---

(١) قلت: الحكم حكمان؛ شرعي؛ وكوني؛ فالشرعي أمره ونهيه ـ وهو خبره ـ وهو الذي قرّره المصنف، أما الكوني، فهو الذي يرجع إلى تصرفه في خلقه بما تقتضيه حكمته. واسمه «الحكم» يدل على هذا وهذا؛ فهو القاضي الذي يفصل بين خلقه بالعدل في دينهم ودنياهم، وهو الذي يفتح بين المؤمنين والكافرين، ويقتص للمظلومين من الظالمين؛ وهو في أحكامه الشرعية والكونية لا يجور ولا يظلم أحداً.

(٢) هذا تعريف مجمل، وفيه نظر؛ والصواب أن يقال: العدل: هو الذي لا يميل به الهوى فيجور في الحكم، وهو في الأصل مصدر سمي به فوضع موضع العادل، وهو =

- **اللّطيف**: هو البرّ بعباده، وهو من صفات فعله، وقد يكون بمعنى العالم بخفايا الأمور، فيكون من صفات ذاته[1].

- **الخبير**: هو العالم بكُنه الشّيء المطّلع على حقيقته؛ وقيل: الخبير، المخبر، وهو من صفات ذاته.

- **الحليم**: وهو الذّي يؤخّر العقوبة على مستحقّيها، ثمّ قد يعفو عنهم.

- **العظيم**: هو المستحقّ لأوصاف العلوّ والرّفعة، والجلال والعظمة، والتّقديس من كلّ آفة، وهو من الصّفات الّتي يستحقّها بذاته.

- **الغفور**: هو الّذي يكثر من المغفرة.

- **الشّكور**: هو الّذي يشكر اليسير من الطّاعة، ويعطي عليه الكثير من المثوبة، وشكره قد يكون بمعنى ثنائه على عبده، فيرجع معناه إلى صفة الكلام الّتي هي صفة قائمة بذاته.

- **العليّ**: هو العالي القاهر[2]؛ وقيل: هو الّذي علا وجلّ من أن يلحقه صفات الخلق، وهذه يستحقّها بذاته.

- **الكبير**: هو الموصوف بالجلال وكبر الشأن، فصغر دون جلاله كلّ كبير؛ وقيل: هو الّذي كبُر عن شُبه المخلوقين، وهذه صفة يستحقّها بذاته.

= أبلغ منه لأنه جعل المسمى نفسه عدلاً؛ والعدل الحاكم بالحق المقيم له، المرضي جائز الشهادة ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، المسوي للأشياء المقوّم لها، الموازن بينها.

(١) اللطيف: وهو الذي اجتمع له الرفق في الفعل والعلم بدقائق المصالح وإيصالها إلى من قدره له من خلقه؛ واللطف من الله تعالى التوفيق والعصمة، والبر والتكرمة والتحفي.

(٢) العلي: الرفيع، ذو العظمة والجبروت؛ قال الأزهري: فالعلي الشريف فعيل من علا يعلو، وهو بمعنى العالي؛ وهو الذي ليس فوقه شيءٌ.

ـ **الحفيظ**: هو الحافظ لكلّ ما أراد حفظه ومن أراد؛ وقيل: هو الّذي ينسى ما علم فيرجع معناه إلى صفة العلم.

ـ **المُقيت**: هو المقتدر، فيرجع معناه إلى صفة القدرة؛ وقيل: المقيت الحفيظ، وقيل: هو معطي القوت، فيكون من صفات الفعل.

ـ **الحسيب**: هو الكافي؛ وقيل: بمعنى المحاسب.

ـ **الجليل**: هو من الجلال والعظمة، ومعناه ينصرف إلى جلال القدرة وعِظَم الشّأن، فهو الجليل الّذي يصغر دونه كلّ جليل، ويتضع معه كلّ رفيع، وهذه صفة يستحقّها بذاته.

ـ **الكريم**: هو المنزّه عن الدناءة، وهذه صفة يستحقّها بذاته؛ وقيل: الكريم الكثير الخير، وقيل: المحسن بما لا يجب عليه، والصّفوح عن حقّ وجب له، وهو على هذا المعنى من صفات فعله.

ـ **الرّقيب**: هو الحافظ الّذي لا يغيب عنه شيء، فيرجع معناه إلى صفة العلم.

ـ **المجيب**: هو الّذي يجيب المضطرّ إذا دعاه، ويغيث الملهوف إذا ناداه.

ـ **الواسع**: هو العالم[(١)]، فيرجع معناه إلى صفة العلم؛ وقيل: هو الغنيّ الّذي وسع غناه مفاقر الخلق.

ـ **الحكيم**: هو المحكم لخلق الأشياء، وقد يكون بمعنى المصيب في أفعاله[(٢)].

ـ **الودود**: هو الّذي يوَد عباده المؤمنين، ويوده عباده المؤمنون،

---

(١) الواسع: هو الذي وسع رزقه جميع خلقه، ووسعت رحمته كل شيء، وغناه كل فقر؛ وهو الكثير العطاء الذي يسَع لما يُسأل؛ المحيط بكل شيء.

(٢) الحكيم: هو العليم، المتقن للأمور؛ الذي لا يضع الشيء إلا في موضعه، ولا يقضي إلا بما هو الحق والعدل.

ومحبّة الله عباده إرادته رحمتهم، ومدحهم[1]، فيرجع معناه إلى صفة الإرادة والكلام، وقد يكون بمعنى إنعامه عليهم، ومن إنعامه عليهم أن يوددهم إلى خلقه، وهو على هذا المعنى من صفات فعله.

ـ **المجيد**: هو الجليل الرّفيع القدر، المحسن الجزيل البرّ. فالمجد في اللّغة قد يكون بمعنى الشرّف، وقد يكون بمعنى السّعة؛ وهو على المعنى الأوّل صفة يستحقّها بذاته.

ـ **الباعث**: هو الّذي يبعث عباده بعد الموت للجزاء، وقد يبعث من شاء منهم عند السّقطة، وينعشه عند الصّرعة.

---

(١) يقول العماد ابن كثير (١٤٦/٧): «والودود: قال ابن عباس وغيره: هو الحبيب».
ويقول ابن أبي العز (ص١٦٥) ـ وهو يعدد مراتب المحبة ـ: «والمودة والود: وهي صفو المحبة وخالصها ولبُّها».

قلت: فالله تعالى حبيب إلى عباده المؤمنين تحبب إليهم بنعمه ورحمته وفضله، وهم يحبونه فيفردونه بالعبادة، ويتقربون إليه بالطاعات. وقد تأول المصنف محبة الله تعالى لعباده المؤمنين، فعرفها على أنها إرادته رحمتهم ومدحهم؛ وليس يخفى بعد هذا عقلاً ونقلاً ولغة؛ إذ «أصل العبادة محبة الله، بل إفراده تعالى بالمحبة؛ فلا يجب معه سواه، وإنما يحب ما يحبه لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته، لأن محبتهم من تمام محبته، وليست كمحبة من اتخذ من دونه أنداداً يحبهم كحبه. وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها، فهي إنما تتحقق باتباع أمره واجتناب نهيه، فعند اتباع الأمر والنهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة» كذا قال المقريزي في «التجريد» (ص٨٠).

ويقول ابن أبي العز «شرح الطحاوية» (ص١٦٥: «وأنكرت الجهمية حقيقة المحبة من الجانبين، زعماً منهم أن المحبة لا تكون إلا لمناسبة بين المحب والمحبوب، وأنه لا مناسبة بين القديم والمحدَث توجب المحبة ـ وأصل هذا مأخوذ عن المشركين الصابئة ـ، وهم ينكرون أن يكون إبراهيم خليلاً، وموسى كليماً؛ ولكن محبته وخلته كما يليق به تعالى، كسائر صفاته». اهـ. بتصرف.

قلت: فعقيدة السلف وسطٌ بين من نفى المحبة من الفلاسفة والمتكلمين، فصارت العبادة عندهم جسداً بلا روح تحركه؛ وبين من بالغ في إثباتها من زنادقة المتصوفين، الذين يتعشقون الذات الإلهية، وينظمون في ذلك القصائد الغزلية؛ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

- **الشّهيد**: هو الّذي لا يغيب عنه شيء؛ وقيل: هو العالم الرّائي[1]، فيرجع معناه إلى صفة العلم، وصفة الرّؤية.

- **الحقّ**: هو الموجود حقًّا[2]، وهذه صفة يستحقّها بذاته.

- **الوكيل**: هذا الكافي، وهو الّذي يستقلّ بالأمر الموكول إليه؛ وقيل: هو الكفيل بالرّزق والقيام على الخلق بما يُصلحهم.

- **القويّ**: هو القادر، وهو أن يكون تامّ القدرة، لا يستولي عليه عجز في حالة من الأحوال، ويرجع معناه إلى صفة القدرة[3].

- **المتين**: هو الشّديد القوة الّذي لا تنقطع قوّته، ولا يمسّه في أفعاله لغوب، ويرجع معناه أيضاً إلى صفة القدرة.

- **الولّي**: هو النّاصر؛ وقيل: المتولّي للأمر والقائم به.

- **الحميد**: هو المحمود الّذي يستحقّ الحمد؛ وقيل: من له صفات المدح والكمال، وهذه صفة يستحقّها بذاته.

- **المحصي**: هو الّذي أحصى كلّ شيء بعلمه، فيرجع معناه إلى صفة العلم.

- **المبدي**: هو الّذي أبدأ الإنسان، أي ابتدأه مخترعاً.

---

(١) الشهيد: الأمين في شهادته، الحاضر الذي لا يغيب عن علمه شيء، وهو العليم الذي يبين ما علمه ويظهره؛ فهو سبحانه قد دل خلقه على توحيده بجميع ما خلق، فبين أنه لا يقدر أحد أن ينشأ شيئاً واحداً مما أنشأ؛ وهو الشهيد على الخلق يوم القيامة بما عملوا وقدّموا.

(٢) المتحقق وجوده وإلهيته؛ والحق نقيض الباطل، فهو سبحانه لا يقول إلا الحق، ولا يقضي إلا بالحق، ولا يأمر إلا بالحق، وهو المعبود الحق ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [لقمان: ٦٢].

(٣) القدرة ضد العجز، والقوة ضد الضعف؛ فقد يكون الشخص قادراً لكنه غير قوي، كالملك قد يكون ضعيفاً لا قوة له، وهو مع ذلك قادر بما له من السلطان والأعوان؛ كما أنه قد يكون الشخص قوياً في نفسه، لكنه غير قادر؛ فالتسوية بين القدرة والقوة على هذا لا يستقيم، فتنبَّه.

- **المعيد**: هو الّذي يعيد الخلق بعد الحياة.

- **المحيي**: هو الّذي يحيي النّطفة المَيتة فيخرج منها النّسمة الحيّة، ويحيي الأجسام البالية بإعادة الأرواح إليها عند البعث، ويحيي القلوب بنور المعرفة، ويحيي الأرض بعد موتها بإنزال الغيث وإنزال الرّزق.

- **المميت**: هو الّذي يميت الأحياء، يوهي بالموت قوّة الأقوياء.

- **الحيّ**: - في صفة الله - عز وجل -: هو الّذي لم يزل موجوداً، وبالحياة موصوفاً؛ فالحياة له صفة قائمة بذاته.

- **القيّوم**: هو القائم الدّائم بلا زوال، فيرجع معناه إلى صفة البقاء، والبقاء من صفة الذّات؛ وقيل: هو المدبّر والمتولّي لجميع ما يجري في العالم، وهو على هذا المعنى من صفات الفعل(١).

---

(١) يقول شارح «الطحاوية» (١٢١ - ١٢٢): «واعلم أن هذين الاسمين - أعني: الحي القيوم - مذكوران في القرآن معاً في ثلاث سور - كما تقدم -، وهما من أعظم أسماء الله الحسنى، حتى قيل: إنهما الاسم الأعظم؛ فإنهما يتضمنان إثبات صفات الكمال أكمل تضمن وأصدقه: ويدل القيوم على معنى الأزلية والأبدية ما لا يدل عليه لفظ القديم، ويدل أيضاً على كونه موجوداً بنفسه - وهو معنى كونه واجب الوجود -. والقيوم أبلغ من القيَّام، لأن الواو أقوى من الألف؛ ويفيد قيامه بنفسه - باتفاق المفسرين وأهل اللغة، وهو معلومٌ بالضرورة -. وهل تفيد إقامته لغيره وقيامه عليه؟، فيه قولان؛ أصحهما: أنه يفيد ذلك؛ وهو يفيد دوام قيامه وكمال قيامه، لما فيه من المبالغة؛ فهو سبحانه لا يزول ولا يأفل، فإن الأفول قد زال قطعاً، أي: لا يغيب ولا ينقص، ولا يفنى ولا يعدم، بل هو الدائم الباقي الذي لم يزل ولا يزال موصوفاً بصفات الكمال. واقترانه بالحي يستلزم سائر صفات الكمال، ويدل على دوامها وبقائها، وانتفاء النقص والعدم عنها أزلاً وأبداً، ولهذا كان قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥] أعظم آية في القرآن، كما ثبت ذلك في الصحيح عن النبي ﷺ.

فعلى هذين الاسمين مدار الأسماء الحسنى كلها، وإليها ترجع معانيها؛ فإن الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال، فلا يتخلَّف عنها صفة منها إلا لضعف الحياة. فإذا كانت حياته تعالى أكمل حياة وأتمها، استلزم إثباتها إثبات كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة. وأما القيوم، فهو متضمن كمال غناه وكمال قدرته، فإنه القائم بنفسه، فلا يحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه؛ المقيم لغيره، فلا قيام لغيره إلا بإقامته. فانتظم هذان الاسمان صفات الكمال أتم انتظام».

ـ **الواجد**: هو الغنيّ الّذي لا يفتقر، والوجد الغنى، وقد يكون من الوجود، وهو الّذي لا يؤوده طلب، ولا يحول بينه وبين المطلوب هرب، وقد يكون بمعنى العالم.

ـ **الماجد**: هو المجيد، وقد مضى ذكر معناه.

ـ **الواحد**: هو الفرد الذي لم يزل وحده بلا شريك؛ وقيل: هو الذي لا قسيم لذاته، ولا شبيه له ولا شريك؛ وهذه صفة يستحقها بذاته.

ـ **الصمد**: هو السيد الذي يُصمد إليه في الأمور، ويُقصد في الحوائج؛ وقيل: هو الباقي الذي لا يزول؛ وهو من صفات الذات.

ـ **القادر**: هو الذي له القدرة الشاملة، والقدرة له صفة قائمة بذاته.

ـ **المقتدر**: هو التام القدرة، الذي لا يمتنع عليه شيء.

ـ **المقدم المؤخر**: هو المنزل الأشياءَ منازلها؛ يقدم ما يشاء، ومن شاء؛ ويؤخر من شاء، وما شاء.

ـ **الأول الآخر**: هو الذي لا ابتداء لوجوده، ولا انتهاء؛ وهما صفتان يستحقهما بذاته.

ـ **الظاهر الباطن**: هو الظاهر بحججه الباهرة، وبراهينه النيِّرة، وشواهد أعلامه الدَّالة على ثبوت ربوبيته، وصحة وحدانيته؛ وقد يكون الظهور بمعنى العلو والرفعة، وقد يكون بمعنى الغلبة. والباطن: هو الذي لا يستولي عليه توهم الكيفية؛ وقد يكون الظاهر بمعنى العالم بما ظهر من الأمور، والباطن بمعنى المطلع على ما بطن من الغيوب؛ وهما من صفات الذات[1].

ـ **الوالي**: هو المالك للأشياء والمتولي لها، وقد يكون بمعنى المنعم عوداً على بدء.

ـ **المتعالي**: هو المنزه عن صفات الخلق، وهذه صفة يستحقها بذاته؛

---

(١) ويمكن أن يقال في معنى اسميه تعالى «الظاهر الباطن»: الظاهر على كل شيء علماً، الذي ليس فوقه شيء؛ والباطن على كل شيء علماً، الذي ليس دونه شيء..

وقد يكون بمعنى العالي فوق خلقه بالقهر.

ـ **البَرّ**: هو المحسن إلى خلقه؛ عمَّهم برزقه، وخصَّ من شاء منهم بولايته، ومضاعفة الثَّواب له على طاعته، والتَّجاوز عن معصيته.

ـ **التَّواب**: هو الذي يتوب على من يشاء من عبيده، ويقبل توبته.

ـ **المنتقم**: هو الذي ينتصر من أعدائه، ويجازيهم بالعذاب على معاصيه؛ وقد يكون بمعنى المهلك لهم[1].

ـ **العفُوّ**: من العفو ـ على المبالغة ـ؛ ثم قد يكون بمعنى المحو، فيرجع معناه إلى الصَّفح عن الذنب؛ وقد يكون بمعنى المتفضِّل، فيعطي الجزيل من الفضل.

ـ **الرؤوف**: هو الرحيم، والرأفة شدة الرحمة؛ ورحمة الله إرادته إنعام من شاء من عباده، فيرجع معناه إلى صفة الإرادة، ثم قد تسمى تلك النعمة رحمة[2].

---

(١) قلت: ليس «المنتقم» من أسماء الله تعالى، ولم يرِد هذا الاسم في القرآن الكريم، وإنما ورد ذكر الانتقام فيه في موضعين؛ في قوله سبحانه: ﴿عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾، وقوله: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾، وفي الموضعين كليهما ورد مقيَّداً بما قبله.
يقول العلامة ابن عثيمين ـ حفظه الله ـ في «القواعد المثلى» (ص٢١): «**القاعدة الثالثة: باب الصفات أوسع من باب الأسماء**»؛ وذلك لأن كل اسم متضمنٌ لصفة ـ كما سبق في القاعدة الثالثة من قواعد الأسماء ـ، ولأن من الصفات ما يتعلَّق بأفعال الله تعالى، وأفعاله لا منتهى لها، كما أن أقواله لا منتهى لها، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٧﴾؛ ومن أمثلة ذلك أن من صفات الله تعالى المجيء والإتيان، والأخذ والإمساك والبطش إلى غير ذلك من الصفات التي لا تحصى...
«**فنصف الله تعالى بهذه الصفات على الوجه الوارد، ولا نسميه بها؛ فلا نقول إن من أسمائه الجائي والآتي والآخذ والممسك والباطش والمريد والنازل، ونحو ذلك، وإن كنا نخبر بذلك عنه، ونصفه به**».

(٢) وقد تقدَّم الكلام على من تأوَّل الرحمة بالإرادة، ولم يُظهر المصنِّف في ذاك المقام قوله به، بل عزاه إلى غيره ممرِّضاً، إلاَّ أنَّا نراه هنا يتبنَّى القول به، وهي زلَّة منه ـ عفا الله عنَّا وعنه ـ، وجمهور أهل الحديث على أن الله تعالى له الرحمة الواسعة، كما =

ـ **مالك الملك**: ومعناه أن الملك بيده، يؤتيه من يشاء؛ وقد يكون معناه مالك الملوك، وقد يكون معناه وارث الملك يوم لا يدَّعي الملك مدَّعٍ، ولا ينازعه فيه منازعٌ. واستحقاقه لذلك صفة يستحقها بذاته.

ـ **ذو الجلال والإكرام**: أي هو مستحق أن يجَلَّ ويكرم، فلا يجحد؛ فتكون صفة يستحقها بذاته. وقد يكون الإكرام بمعنى إكرامه أهل ولايته في الدنيا بمعرفته، وفي الآخرة بجنته؛ فيكون من صفات الفعل.

ـ **المقسط**: هو العادل في حكمه.

ـ **الجامع**: هو الذي يجمع الخلائق ليومٍ لا ريب فيه، وهو من صفات الفعل؛ وقيل: هو الذي جمع أوصاف المدحِ. وهذه صفة يستحقها بذاته.

ـ **الغني**: هو الذي استغنى عن الخلق، وقيل: المتمكن من تنفيذ إرادته في مراداته[1]، وهذه صفة يستحقها بذاته.

ـ **المغني**: هو الذي جبر مفاقر الخلق، وقد يكون بمعنى الكافي ـ من الغناء، وهو: الكفاية ـ.

ـ **المانع**: هو الناصر الذي يمنع أولياءه، أي: يحوطهم وينصرهم؛ وقيل: هو الذي يمنع العطاء عن قوم، والبلاء عن آخرين.

ـ **الضار النافع**: هو موصل الضرر إلى من أراد، وموصل النفع إلى من يشاء.

ـ **النُّور**: هو الهادي؛ وقيل: هو المنوِّر. وهو من صفات الفعل؛ وقيل: هو الحق، وقيل: هو الذي لا يخفي على أوليائه بالدليل، وتصحُّ

= قال تعالى ـ حكاية عن حملة العرش ـ ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾؛ فالقول في العلم كالقول في الرحمة سواءً بسواءٍ ـ، فمن أثبت أحدهما ونفى الآخر، فقد تناقض؛ ومن نفاهما معاً فقد أعظم على الله الفِرية!!

(١) أقول: لا علاقة بين الغني وتنفيذ المرادات ـ من حيث الوضع اللغوي، ولا الاصطلاح الشرعي ـ؛ إذ الغني في أسماء الله تعالى هو: الذي لا يحتاج إلى أحد في شيء، وكل أحد محتاج إليه؛ وهذا هو الغنى المطلق، ولا يشارك الله تعالى فيه غيره.

رؤيته بالأبصار؛ وهذه صفة يستحقها الباري تعالى بذاته[(١)].

ـ **الهادي**: هو الذي بهدايته اهتدى أهل ولايته، وبهدايته اهتدى الحيوان لما يصلحه، واتَّقى ما يضرُّه.

ـ **البديع**: هو الذي فطر الخلق مبدعاً له، لا على مثال سبق؛ وهو من صفات الفعل. وقد يكون بمعنى: لا مثل له، فيكون صفة يستحقُّها بذاته.

ـ **الباقي**: هو الذي دام وجوده، والبقاء له صفة قائمة بذاته. وفي معناه الوارث.

ـ **الرشيد**: هو المرشد، وهو الهادي؛ وقد يكون بمعنى الحكيم ذي الرُّشد، لاستقامة تدبيره وإصابته في أفعاله.

ـ **الصبور**: هو الذي لا يعاجل العصاة بالعقوبة، وهو قريبٌ من معنى الحليم؛ وصفة الحليم أبلغ في السلامة من عقوبته. وأمّا الأسماء التي وردت في رواية عبدالعزيز بن الحصين ممَّا ليس في رواية الوليد بن مسلم؛ فمنها:

ـ **الرب**: ومعناه السيد، وقيل: معناه المالك، وقيل: هو المُبلِغ كل ما أبدع حدَّ كماله الذي قدَّره له؛ فهو على هذا المعنى من صفات فعله، وعلى ما قبله من صفات ذاته.

ـ **الحنان المنان**: معناه ذو الرحمة، والمنان هو الكثير العطاء.

ـ **البادىء**: معناه المبدىء.

ـ **الأحد**: الذي لا شبيه له، ولا نظير.

ـ **الواحد**: الّذي لا شريك له ولا عديل، وعُبّر عنه بعبارة أخرى؛

---

(١) قلت: وفي التنزيل ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ أي: هو الذي يدبّر الأمر فيهما نجومهما وشمسهما وقمرهما، الذي بنوره أضاءت السموات والأرض ومن فيهن، وأشرقت بنور وجهه الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة.

فقيل: الأحد، وهو المنفرد بالمعنى لا يشاركه فيه أحد الواحد المنفرد بالذّات لا يضامّه أحد، وهما من الصّفات الّتي يستحقّها بذاته.

ـ **الكافي**: الّذي يكفي عباده المهِمّ، ويدفع عنهم الملِمّ.

ـ **المغيث**: هو الّذي يدرك عباده في الشّدائد فيخلّصهم.

ـ **الدّائم**: هو الموجود لم يزل ولا يزال، ويرجع معناه إلى صفة البقاء.

ـ **المولى**: هو النّاصر المعين.

ـ **المبين**: هو البّين أمره في الوحدانيّة، وهذه صفة يستحقّها بذاته.

ـ **الصّادق**: هو الّذي يصدُق قوله، ويصدُق وعده، وهو من صفات الذّات.

ـ **المحيط**: هو الّذي أحاطت قدرته بجميع المقدورات، وأحاط علمه بجميع المعلومات[1]، والقدرة له صفة قائمة بذاته، والعلم له صفة قائمة بذاته.

ـ **القريب**: ـ معناه: أنّه قريب بعلمه من خلقه، قريب ممّن يدعوه بإجابته[2].

---

(١) المحيط: المحدق بالأشياء من جوانبها كلها، والمحدق بها من جميع جهاتها ـ علماً وقدرة وصيانة ورعاية وكلاءة وتوفراً على المصالح ـ؛ الآخذ في الأمور بالأحزم والأصلح.

(٢) يقول شيخ الإسلام في «شرح حديث النزول» (ص١٣٧): «وأما قرب الرب قرباً يقوم به بفعله القائم بنفسه، فهذا تنفيه الكُلاَّبيّة ومن يمنع قيام الأفعال الاختيارية بذاته؛ وأما السلف وأئمة الحديث والسنة فلا يمنعون ذلك، وكذلك كثير من أهل الكلام. ولهذا حدَّ النزول بأنه إلى السماء الدنيا، وكذلك تكليمه لموسى عليه السلام؛ فإنه لو أريد مجرَّد تقريب الحجّاج وقوام الليل إليه، لم يخص نزوله سماء الدنيا، كما لم يخص ذلك في إجابة الداعي وقرب العابدين له».

ـ **القديم**: هو الموجود لم يزل، وهذه صفة يستحقّها بذاته[1].

ـ **الوتر**: هو الفرد الّذي لا شريك له ولا نظير، وهذه أيضاً صفة يستحقّها بذاته.

ـ **الفاطر**: هو الّذي فطر الخلق، أي ابتدأ خلقهم.

ـ **العلاّم**: بمعنى العليم، وبناء الفعَّال بناء التّكثير؛ والعلم لله صفة قائمة بذاته.

ـ **المليك**: هو المالك ـ على المبالغة ـ، وقد يكون بمعنى الملك؛ وقد مضى معناهما.

---

(١) يقول ابن أبي العز في «شرح العقيدة الطحاوية» (ص١١٢): «وقد أدخل المتكلمون في أسماء الله تعالى القديم، وليس هو من الأسماء الحسنى؛ فإن القديم في لغة العرب التي نزل بها القرآن: هو المتقدم على غيره، فيقال: هذا «قديم» للعتيق، وهذا «حديث» للجديد. ولم يستعملوا هذا الاسم إلا في المتقدم على غيره، لا فيما لم يسبقه عدم، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩]، والعرجون القديم: الذي يبقى إلى حين وجود العرجون الثاني، فإذا وجد الجديد قيل للأول: قديم؛ وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ﴾ [الأحقاف: ١١]، أي: متقدِّم في الزمان. وقال تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ۝٧٦﴾ [الشعراء ٧٥ ـ ٧٦]، فالأقدم مبالغة في القديم، ومنه: القول القديم والجديد للشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ.

. . . وأما إدخال القديم في أسماء الله تعالى، فهو مشهورٌ عند أكثر أهل الكلام، وقد أنكر ذلك كثيرٌ من السلف والخلف منهم ابن حزم؛ ولا ريب أنه إذا كان مستعملاً في نفس التقدم، فإن ما تقدم على الحوادث كلها، فهو أحق بالتقدم من غيره، لكن أسماء الله تعالى هي الأسماء الحسنى التي تدل على خصوص ما يمدح به، والتقدم في اللغة مطلق لا يختص بالتقدم على الحوادث كلها، فلا يكون من الأسماء الحسنى، وجاء الشرع باسمه الأول وهو أحسن من القديم، لأنه يشعر بأن ما بعده آيل إليه وتابع له بخلاف القديم، والله تعالى له الأسماء الحسنى لا الحسنة».

«لكن أفاد الشيخ ابن مانع هنا فيما نقله عن ابن القيم في «البدائع» أنه يجوز وصفه سبحانه بالقِدم، بمعنى أنه يخبر عنه بذلك، وباب الإخبار أوسع من باب الصفات التوقيفية». اهـ. من تعليق شيخنا الألباني ـ حفظه الله ـ على متن «الطحاوية» (ص١٩).

ـ **الأكرم**: هو الّذي لا يوازيه كريم، ولا يعادله نظير، وقد يكون بمعنى الكريم.

ـ **المدبّر**: هو العالم بأدبار الأمور وعواقبها، ومقدّر المقادير ومجريها إلى غاياتها، يدبّر الأمور بحكمته، ويصرّفها على مشيئته.

ـ **ذو المعارج**: المعارج الدُّرَج؛ وهي المصاعد الّتي تعرج عليها الملائكة.

ـ **ذو الطَّول وذو الفضل** ـ ومعناه: أهل الطّول والفضل، و «ذو» حرف النّسبة، كقوله: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمٰن: ٢٧].

ـ **الجميل**: هو المجمِّلُ المحسِّنُ[(١)].

ـ **الرَّفيع**: قد يكون بمعنى الرّافع، يرفع درجات من يشاء، فيكون من صفات الفعل؛ وقد يكون معناه: هو الّذي لا أرفع قدراً منه، وهو المستحقّ لدرجات المدح والثّناء، وهي أصنافها، لا مستحقّ لها غيره؛ فيكون من صفات الذّات.

قال الشّيخ ـ رحمه الله ـ: وقد قيل في معاني هذه الأسماء غير ما ذكرنا، وقد ذكرنا بعضها في كتاب «الأسماء والصّفات» وبعضها في كتاب «الجامع».

---

(١) قلت: لا شكَّ أن الله عز وجل قد أحسن كلَّ شيء خلقه، وهو الذي جمَّل الأشياء بقدرته وحكمته؛ ولا يمنع هذا أن يكون هو نفسه عز وجل جميلاً، بل هو الجميل ـ الذي له الأسماء الحسنى وصفات الجمال والكمال ـ؛ وقد ثبت عن رسول الله ﷺ تقرير هذا المعنى، ففي «صحيح مسلم» (٩١)، و «جامع الترمذي» (١٩٩٩) عن ابن مسعود: عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر؛ قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة، قال: إن الله جميل يحب الجمال؛ الكبر بطر الحق، وغمط الناس».
فهذا الحديث صريحٌ في أن الجمال صفة من صفات الله عز وجل، وهي صفة من صفات الكمال، ومعلومٌ أن كل كمال جاز في حق المخلوق، فهو في حق الله تعالى أولى بالجواز.

وهذه الوجوه الّتي ذكرنا في معانيها كلّها صحيحة[1]، وربّنا جل جلاله وتقدّست أسماؤه متّصفٌ بجميع ذلك، فله الأسماء الحسنى والصفّات العلى، لا شبيه له في خلقه، ولا شريك له في ملكه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].



(١) جزمه بصحّة الوجوه الّتي ذكرها في معاني الأسماء الحسنى لا نوافقه عليه، لأنّ عدداً من تلك الوجوه لا يصحُّ إلا على مذهب أهل الكلام!!.



٥

٥ ـ باب:
بيان صفة الذّات وصفة الفعل

قال الله ـ جلّ ثناؤه ـ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤].

فأشار في هذه الآيات إلى فصل أسماء الذّات من أسماء الفعل ـ على ما نبيّنه ـ، إلى سائر ما ذكر في كتابه من أسماء الذّات وأسماء الفعل، فلله ـ عزّ اسمه ـ أسماء وصفات، وأسماؤه وصفاته[1]، وصفاته أوصافه؛ وهي إلى قسمين: أحدهما صفات ذات، والآخر صفات فعل.

١/فصفات ذاته: ما يستحقّه فيما لم يزل ولا يزال؛ وهو على قسمين: أحدهما عقلي، والآخر سمعي.

ـ **فالعقلي**: ما كان طريق إثباته أدلّة العقول مع ورود السّمع به؛ وهو على قسمين:

أحدهما: ما يدلّ خبر المُخبَر به عنه، ووصف الواصف له به على ذاته، كوصف الواصف له بأنّه شيء ذات موجود قديم؛ ملك قدّوس جليل عظيم عزيز متكبّر، والاسم والمسمّى في هذا القسم واحد.

(١) كذا بالأصل، ولم أتبيّنه.

والثّاني: ما يدلّ خبر المخبر به عنه، ووصف الواصف له به على صفاتٍ زائداتٍ على ذاته قائمات به، وهو كوصف الواصف له بأنّه حيٌّ عالم قادر مريد سميع بصير متكلّم باق؛ فدلّت هذه الأوصاف على صفات زائدة على ذاته قائمة به، كحياته وعلمه، وقدرته، وإرادته، وسمعه، وبصره، وكلامه، وبقائه، والاسم في هذا القسم صفة قائمة بالمسمّى؛ لا يقال: إنّها هي المسمّى، ولا أنّها غير المسمّى.

ـ **وأمّا السمعيّ**: فهو ما كان طريق إثباته الكتاب والسّنة فقط، كالوجه واليدين والعينين؛ وهذه أيضاً صفات قائمة بذاته؛ لا يقال فيها: أنّها هي المسمّى ولا غير المسمّى، ولا يجوز تكييفها.

فالوجه له صفة وليست بصورة، واليدان له صفتان وليستا الجارحتين، والعين له صفة وليست بحدقة؛ وطريق إثباتها له صفات ذات: ورود خبر الصّدق به.

وأمّا صفات فعله؛ فهي تسميات مشتقّة من أفعاله ورد السّمع بها، مستحقَّة له فيما لا يزال دون الأزل، لأنّ الأفعال الّتي اشتقت منها لم تكن في الأزل، وهو كوصف الواصف له، بأنّه خالق، رازق، محيي، مميت، منعم مفضل؛ فالتّسمية في هذا.

ومن أصحابنا من ذهب إلى أنّ جميع أسمائه لذاته الّذي له صفات الذّات وصفات الفعل؛ فعلى هذا الاسم والمسمّى في الجميع واحد ـ والله أعلم ـ، وعلى هذه الطّريقة يدلّ كلام المتقدّمين من أصحابنا؛ فعن الشّافعيّ أنه قال: «إذا سمعت الرّجل يقول الاسم غير المسمّى فاشهد عليه بالزّندقة».

قال الشّيخ: وقد قال الشّافعي في كتاب «الإيمان» ما دلّ على أنّه لا يقال في أسماء الله تعالى إنّها أغيار؛ وقد نقلنا كلامه فيها في مواضع؛ وبالله التّوفيق.

ومن قال بهذا احتجّ بقول الله تعالى: ﴿بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ [مريم: ٧]، فأخبر أنّ اسمه يحيى؛ ثمّ قال: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ﴾ [مريم: ١٢]، فخاطب اسمه، فعُلم أنّ المخاطب يحيى ـ وهو اسمه ـ، واسمه هو؛ ولذلك قال: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءً﴾ [يوسف: ٤٠] وأراد المسمّيات؛ وقال: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي

﴿ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرحمن: ٧٨] كما قال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [الفرقان: ١]، وكما قال: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١].

وروي عن النبيّ ﷺ، ثمّ عن عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ: «سبحانك اللهمّ وبحمدك، وتبارك اسمك»؛ كما قال النبيّ ﷺ في الدّعاء بعد السّلام: «تباركت يا ذا الجلال والإكرام»؛ وقال في دعاء القنوت: «تباركت ربّنا وتعاليت».

قال أبو منصور الأزهريّ: معنى «تبارك»؛ تعالى وتعظم. وقيل: هو تفاعل من البركة، وهي الكثرة والاتّساع.

وعن أبي هريرة: أنّ النبيّ ﷺ قال: «إذا أتى أحدكم فراشه، فلينفضه بصنفة ثوبه ثلاث مرّات [فإنّه لا يدري ما خلفه عليه]؛ وليقل: «باسمك ربّي وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فاغفر لها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصّالحين».

وروّينا في حديث أبي ذرّ (و) حذيفة: «أنّ النّبيّ ﷺ كان إذا أخذ مضجعه؛ قال: «اللهمّ باسمك أحيا وباسمك أموت»»، كما قال في رواية أبي هريرة ـ في الدّعاء عند الصّباح ـ: «اللهمّ بك أصبحنا وبك أمسينا، وبك نحيا وبك نموت»؛ وعن عبادة بن الصّامت، يذكر عن رسول الله ﷺ: «أنّ جبريل عليه السلام جاءه ـ وهو يوعك ـ؛ فقال: أرقيك من كلّ داءٍ يؤذيك، ومن كلّ حسد حاسد، ومن كلّ عين؛ واسم الله يشفيك».

قال الشّيخ ـ رحمه الله ـ: ولو كان اسمه غيره أو لا هو المسمّى، لكان القائل إذا قال: عبدت الله ـ والله اسمه ـ أن يكون عبد اسمه؛ إمّا غيره، أو ما لا يقال إنّه هو؛ وذلك محال.

وقوله: «إنّ لله تسعة وتسعين اسماً»؛ معناه: تسميات العباد لله[1]، لأنّه في نفسه واحد.

---

(١) قلت: ليس لأحد أن يسمي الله تعالى باسم من عند نفسه، بل الرب جل جلاله هو الذي يسمي نفسه؛ وقد «أجمع أهل السنة على أن أسماء الله توقيفية؛ فقالوا: لا يجوز =

قال الشّاعر:

إلــى الــحــول ثــمّ اســم الــسّــلام عــلــيــكــمــا

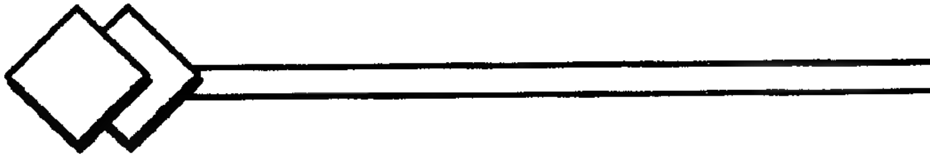
قال أبو عبيد: أراد ثمّ السّلام عليكما، لأنّ اسم السّلام هو السّلام.



= إطلاق اسم على الله تعالى من جهة ثبوت المعنى، إلا إذا ورد به الشَّرع، فما جاء إطلاقه عليه في الكتاب والسنة الصحيحة هو الذي يطلق عليه، خلافاً للمعتزلة والجهمية ومن تبعهم» اهـ. من كتاب «الإمام الدارمي ودفاعه عن عقيدة السلف» (ص١١٣) للدكتور محمد محمود أبو رحيم.

٦

٦ ـ باب: ذكر آيات وأخبار وردت في صفات يستحقّها الباري عز وجل بذاته سوى ما ذكرنا في البابين قبله



قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾[البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، وقال: ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحديد: ٢٤]، وقال: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، وقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ① ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ②﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٢]، وقال: ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥]، وقال: ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣]، وقال: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرّعد: ٩]، وقال: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [ص: ٦٥]، وقال: ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٤٠]، وقال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣]، وقال: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٥].

وقال: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩]، وقال ـ خبراً عن إبليس ـ ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]، وقال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ㉗﴾ [الرحمٰن: ٢٧]، وقال: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ㊆﴾ [الرحمٰن: ٧٨] وقال: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ٣٧].

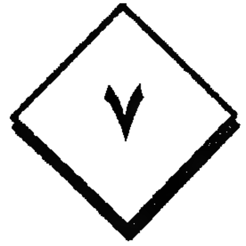
وعن معبد بن هلال العنزي قال: «انطلقنا إلى أنس ـ رضي الله عنه ـ؛

فذكر حديث الشّفاعة. ثمّ ذكر معبد: عن الحسن بن أبي الحسن: عن أنس رضي الله عنه: عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: . . . ؛ ثمّ أقوم في الرّابعة فأحمده بتلك المحامد، ثمّ أخرّ له ساجداً، فيقال لي: ارفع رأسك وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفّع، فأقول: ائذن لي فيمن قال: «لا إله إلاّ الله»؛ فيقال لي: ليس ذلك لك ـ أو: ليس ذلك إليك ـ، وعزّتي وكبريائي (وفي لفظ: وجلالي) وعظمتي لأخرجنّ منها من قال: «لا إله إلاّ الله»».

وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «ما كان النّبيّ ﷺ يجلس بعد الصّلاة إلاّ قدر ما يقول: «اللهمّ أنت السّلام، ومنك السّلام؛ تباركت يا ذا الجلال والإكرام»»؛ وعن عوف بن مالك الأشجعيّ قال: «قمت مع رسول الله ﷺ ليلةً؛ فقام فقرأ سورة البقرة، لا يمرّ بآية رحمة إلاّ وقف فسأل، ولا يمرّ بآية عذابٍ إلاّ وقف فتعوّذ؛ قال: ثمّ ركع بقدر قيامه، يقول في ركوعه: «سبحان ذي الجبروت والملكوت، والكبرياء والعظمة»؛ ثمّ سجد بقدر قيامه، ثمّ قال في سجوده مثل ذلك؛ ثمّ قام فقرأ بآل عمران، ثمّ قرأ سورةً سورةً». ورُوّينا في حديث ابن عبّاس: عن النّبيّ ﷺ ـ في الدّعا بعد الرّكوع ـ: «أهل الثّنا والمجد».

قال الشّيخ ـ رحمه الله ـ: وهذه الصّفات من كمال أوصاف الإلهيّة؛ فوجب إثبات كلّ مدحٍ لهُ، ونفي كلّ نقصٍ عنهُ.





٧ ـ باب: ذكر آيات وأخبار وردت في صفات زائدات على الذّات قائمات به



قال الله ـ جلّ ثناؤه ـ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١]، وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، فهي حيٌّ، وله حياة يباين بها صفة من ليس بحيّ؛ وقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحشر: ٦]، وقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ﴾ [الأنعام: ٦٥]، فهو قادر وله قدرةٌ يباين بها صفة من ليس بقادر.

وقال: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥]، وقال: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٥]، وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فهو عالم وله علم يباين به صفة من ليس بعالم؛ وقال: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢] أي: علمه أحاط بالمعلومات كلّها، كما قدرته عمّت المقدورات كلّها، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٦٥]، والقوّة القدرة؛ وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٤]، وقال: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ [هود: ١٠٧]، وقال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]، والمشيئة والإرادة عبارتان عن معنى واحد(١)؛ فهو مريد، وله إرادة يباين بها صفة من

(١) يقول العلامة ابن قيِّم الجوزيّة في كتابه المبارك «شفاء العليل» (ص١٢٢ ـ ١٢٣): =

يكون ساهياً أو مغلوباً أو مكرهاً؛ وقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النّساء: ١٣٤]، وقال: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة: ١]؛ فهو سميع بصير وله سمع وبصر، يدرك بأحدهما جميع المسموعات وبالآخر جميع المبصرات، وقال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النّساء: ١٦٤]، وقال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ [الشّورى: ٥١]، وقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التّوبة: ٦]، فهو متكلّم وله كلام يباين به صفة الأخرس والسّاكت؛ وقال: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، وقال: ﴿ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقيل في معنى القيّوم: أنّه الدّائم؛ وقال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمٰن: ٢٧]، فهو باق وله بقاء؛ ومعنى وصفه بذلك أنّه واجب الوجود فيما لا يزال.

وعن أبي هريرة قال: «كان رسول الله ﷺ إذا اجتهد في الدّعاء؛ قال: «يا حيّ، يا قيّوم»».

= «وهاهنا أمر يجب التنبيه عليه والتنبيه له، وبمعرفته تزول إشكالات كثيرة تعرِض لمن لم يُحِط به علماً؛ وهو: أن الله سبحانه له الخلق والأمر. وأمره سبحانه نوعان: أمر كوني قدري، وأمر ديني شرعي.

فمشيئته سبحانه متعلقة بخلقه وأمره الكوني، وكذلك تتعلق بما يجب وبما يكره ـ كله داخلٌ تحت مشيئته ـ؛ كما خلق إبليس وهو يبغضه، وخلق الشياطين والكفار والأعيان والأفعال المسخوطة له وهو يبغضها، فمشيئته سبحانه شاملةٌ لذلك كله. وأما محبته ورضاه، فمتعلقة بأمره الديني وشرعه الذي شرعه على ألسنة رسله.

فما وجد منه تعلقت به المحبة والمشيئة جميعاً، فهو محبوبٌ للرب واقعٌ بمشيئته ـ كطاعات الملائكة والأنبياء والمؤمنين ـ، وما لم يوجد منه تعلقت به محبته وأمره الديني ولم تتعلق به مشيئته؛ وما وجد من الكفر والفسوق والمعاصي تعلقت به مشيئته ولم تتعلق به محبته ولا رضاه ولا أمره الديني، وما لم يوجد منها لم تتعلق به مشيئته ولا محبته. فلفظ المشيئة كوني، ولفظ المحبة ديني شرعي. **ولفظ الإرادة ينقسم إلى إرادة كونية، فتكون هي المشيئة؛ وإرادة دينية، فتكون هي المحبة**».

أقول: بهذا التفريق الدقيق النافع في هذا المقام؛ يظهر أن المشيئة أخص من الإرادة، وأنهما ليستا عبارة عن شيء واحد كما ذكر المصنف ـ رحمه الله ـ، فتنبه.

قال الأستاذ الإمام ـ رحمه الله ـ: ورُوّينا في الحديث الثّابت، عن ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ: عن النّبيّ ﷺ: «أنّه كان يقول في دعائه»: «أعوذ بعزّتك لا إله إلاّ أنت أن تضلّني، أنت الحيّ القيّوم الّذي لا يموت والجنّ والإنس يموتون»». وقال سعد بن عبادة ـ في حديث الإفك بين يديّ رسول الله ﷺ ـ لسعد بن معاذ: «لعمر الله لا تقتله؛ وقال أسيد بن حضير: لعمر الله لنقتلنّه...»، فحلف كلّ واحد منهما بحياة الله وبقائه، والنّبيّ ﷺ يسمع.

وقال جابر: «كان رسول الله ﷺ يعلّمنا الاستخارة في الأمر كما يعلّمنا السّورة من القرآن؛ يقول لنا: إذا همّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثمّ ليقل: «اللهمّ إنّي أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم، فإنّك تعلم ولا أعلم وتقدر ولا أقدر وأنت علاّم الغيوب؛ اللهمّ إن كنت تعلم هذا لأمر ـ وتسمّيه بعينه ـ، الّذي تريد خيراً لي في ديني ومعاشي ومعادي وعاقبة أمري فأقدره لي ويسّره لي وبارك لي فيه، اللهمّ وإن كنت تعلمه شرًّا لي في ديني ومعاشي ومعادي وعاقبة أمري ـ مثل الأوّل ـ فاصرفه عنّي واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثمّ رضّني به ـ أو قال: في عاجل أمري وآجله ـ»».

قال الأستاذ الإمام ـ رحمه الله ـ: وفي هذا الحديث الصّحيح إثبات صفة العلم وصفة القدرة، واستخارة النّبيّ ﷺ بهما؛ وقد ذكرنا شواهده في كتاب «الأسماء والصّفات».

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقول أحدكم اللهمّ اغفر لي إن شئت، وارحمني إن شئت، وارزقني إن شئت؛ ليعزم مسألته إنّه يفعل ما يشاء لا مكره له».

قال الأستاذ: وفي هذا إثبات المشيئة له ـ تعالى ـ عز وجل ـ، وإنّه يفعل ما يشاء، وله شواهد كثيرة.

وعن أبي نضرة [عن جابر وأبي سعيد ـ أو: بعض أصحاب النبي ﷺ ـ] قال: «ينتهي القرآن كلّه إلى ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]». وفيه إثبات

الإرادة لله ـ عز وجل ـ، وأنّ ما أوعد عليه عباده فيما دون الشّرك إلى مشيئته؛ كما قال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النّساء: ٤٨].

وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «الحمد لله الّذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله ﷺ وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١]»؛ وفي هذا إثبات السّمع لله ـ عز وجل ـ.

وعن ابن عمر: عن عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ: عن النّبيّ ﷺ ـ في حديث الإيمان ـ:

«. . .؛ قال ـ يعني السّائل ـ: يا محمّد، ما الإحسان؟؛ قال: أن تعبد الله كأنّك تراه، فإنّك إن لا تكن تراه فإنّه يراك».

قال الأستاذ الإمام ـ رحمه الله ـ: وفي هذا إثبات الرّؤيا لله ـ عز وجل ـ؛ والرّؤيا والبصر بمعنى واحد[(١)].

ورُوّينا في حديث الحرّ والبرد: عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: «إذا كان يوم حارّ ألقى الله سمعه وبصره إلى أهل الأرض، فإذا قال العبد: لا إله إلا الله ما أشدّ حرّ هذا اليوم؛ اللهمّ أجرني من حرّ جهنّم، قال الله ـ عز وجل ـ لجهنّم: إنّ عبداً من عبادي استجار بي منك؛ وإنّي أشهدُك أنّي قد أجرته ـ وقال في اليوم الشّديد البرد معناه»[(٢)]. وعن سعد بن أبي وقّاص: عن خولة

---

(١) أقول: تسوية المؤلف بين الرؤية والبصر غير مستقيم؛ إذ البصر: أداة الرؤية، والرؤية: تكون بالعين؛ فيتحصّل من هذين: أن الرب جل جَلاله يرى بعينين ـ كما يليق بعظمته سبحانه ـ، وهذا المعنى ثابت بنصوص الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة.
والله تعالى من أسمائه البصير ـ وهو ضدُّ الضّرير ـ، وهذا الاسم لا يُطلق في اللغة إلا على من أفاده البصر الرؤية، ألا ترى أن الأعمى يملك بصراً، ومع ذلك فهو لا يرى؟؛ فالتسوية بينهما خطأ يؤدّي إلى هذا المحذور، فتنبه!!.

(٢) أخرجه: ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٣٠٧) ـ من طريق: أبي صالح ـ كاتب الليث ـ: حدثنا يحيى بن أيوب: عن عبدالله بن سليمان: حدثني دراج: حدثنا أبو الهيثم: عن أبي سعيد الخدري (أو): عن ابن حجيرة عن عبدالرحمٰن المصري الأكبر: عن أبي هريرة؛ أو أحدهما حدثه: عن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان يوم حارّ =

بنت حكيم: أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا نزل أحدكم منزلاً فليقل: أعوذ بكلمات الله التّامة [وفي لفظ: التّامّات] من شرّ ما خلق، فإنّه لا يضره شيء حتّى يرتحل منه». وفي هذا إثبات صفة الكلام لله عز وجل: وإنّما قال: «بكلمات» ـ على طريق التّعظيم ـ[1].

ورُوّينا في حديث الشّفاعة عن النّبيّ ﷺ: «... ؛ ولكن ائتوا موسى، عبداً أتاه الله التّوراة، وكلّمه تكليماً»، وفي حديث عديّ بن حاتم: عن النّبيّ ﷺ: «ما منكم من أحد إلاّ سيكلّمه ربّه، ليس بينه وبينه حاجب أو ترجمان».



= فقال الرجل: لا إله إلا الله ما أشدّ حرّ هذا اليوم، اللهمّ أجرني من حرّ جهنّم، قال الله ـ عز وجل ـ لجهنّم: إنّ عبداً من عبادي استجار بي من حرك؛ وإنّي أشهدُك أنّي قد أجرته ـ. وإن كان يوماً شديد البرد؛ فإذا قال العبد: لا إله إلا الله ما أشدّ برد هذا اليوم، اللهمّ أجرني من زمهرير جهنّم، قال الله ـ عز وجل ـ لجهنّم: إنّ عبداً من عبادي قد استجار بي من زمهريرك؛ وإنّي أشهدُك أنّي قد أجرته؛ قالوا: وما زمهرير جهنم؟، قال: بيت يلقى فيه الكافر، فيتميز من شدة بردها بعضه من بعض».

قلت: وهذا سند منكر؛ دراج أبو السمح: أحاديثه مناكير ـ كذا قال أحمد فيما رواه ابنه عنه ـ؛ وأبو صالح فيه مقالٌ.

وللخبر شاهد من حديث أبي موسى الأشعري، ولكنه واهٍ بمرّة؛ أخرجه: السهمي في «تاريخ جرجان» (٩٧٨): أخبرنا أبو عمر لاحق بن الحسين الصدري: حدثنا ضرار بن علي بن عمير القاضي: حدثنا محمد بن عبدالرحمٰن الأزدي: حدثنا حفص بن غياث النخعي: حدثنا الحسن بن عبيدالله: عن إبراهيم النخعي: عن يزيد بن أوس: عن ثابت بن قيس: عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ؛ فذكره.

وهذا سند موضوع؛ فيه لاحق الصدري المقدسي، أحد الكذابين الكبار؛ قال ابن النجار: مجمع على كذبه؛ وقال ابن ماكولا: لا يعتمد على حديثه ولا يفرح به، وقال الحاكم: حدث بالموضوعات، وكذبه النقاش وابن السمعاني.

(١) قلت: بل هو على الحقيقة، وليس من داعٍ لمثل هذا التأويل؛ ويأتي قريباً مزيد تفصيل، فصبر جميل!.

٨

٨ ـ باب: ذكر آيات وأخبار وردت في إثبات صفة الوجه واليدين والعينين



وهذه صفات طريق إثباتها السّمع، فنثبتها لورود خبر الصّادق بها، ولا نكيّفها؛ قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرّحمٰن: ٢٧]، فأضاف الوجه إلى الذّات، وأضاف النّعت إلى الوجه؛ فقال: ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ولو كان ذكر الوجه صلة، ولم يكن للذّات صفة لقال: ذي الجلال والإكرام، فلمّا قال: ذو الجلال والإكرام علمنا أنّه نعت للوجه، وهو صفة للذّات؛ وقال الله ـ عز وجل ـ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] ـ بتشديد الياء ـ من الإضافة، وذلك تحقيق في التثنية، وفي ذلك منع من حملها على النّعمة والقدرة؛ لأنّه ليس لتخصيص التثنية في نعم الله ولا في قدرته معنى يصحّ، لأنّ نعم الله أكثر من أن تحصى، ولأنّه خرج مخرج التّخصيص وتفضيل آدم عليه السلام على إبليس وحملهما على القدرة أو على النّعمة يزيل معنى التّفضيل لاشتراكهما فيها؛ ولا يجوز حملهما على الماء والطّين، لأنّه لو أراد ذلك لقال: لما خلقت من يديّ؛ كما يقال: صنعت هذا الكوز من الفضّة أو من النّحاس، فلمّا قال: بيديّ علمنا أنّ المراد بهما غير ذلك؛ وقال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]، وقال: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطّور: ٤٨].

قال جابر بن عبدالله: «لّما نزل على النّبيّ ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾، قال: أعوذ بوجهك؛ ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، قال: أعوذ بوجهك؛ ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾

[الأنعام: ٦٥]، قال: هاتان أهون وأيسر».

وعن أنس: أنّ النّبيّ ﷺ قال: «يُجمع المؤمنون يوم القيامة فيهتمّون لذلك، فيقولون لو استشفعنا على ربّنا حتّى يريحنا من مكاننا هذا؛ فيأتون آدم فيقولون: يا آدم، أنت أبو النّاس خلقك الله بيده وأسجد لك الملائكة وعلّمك أسماء كلّ شيء؛ اشفع لنا إلى ربّك حتّى يريحنا من مكاننا هذا»؛ وعنه أيضاً: عن النّبيّ ﷺ قال: «ما بعث نبيٌّ إلاّ قد أنذر الدّجّال؛ ألا وإنّه أعور، وإنّ ربّكم ليس بأعور».

قال الأستاذ ـ رحمه الله ـ: وفي هذا نفي نقص العور عن الله سبحانه، وإثبات العين له صفة؛ وعرفنا بقوله ـ عز وجل ـ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وبدلائل العقل أنّها ليست بحدقة، وأنّ اليدين ليستا بجارحتين، وأنّ الوجه ليس بصورة[1]؛ فإنّها صفات ذات أثبتناها بالكتاب والسّنّة بلا تشبيه؛ وبالله التّوفيق.



(١) ورد الكتاب والسنة بإثبات الوجه لله تعالى، وقد جاء إثبات الصورة في السنة؛ حيث روى جمعٌ من الصحابة أن رسول الله ﷺ رأى ربه ـ في منامه ـ في أحسن صورة؛ وانظر السنة (٣٨٨، ٤٦٥ ـ ٤٧٠) لابن أبي عاصم. فقول المصنف أن الوجه ليس بصورة كلامٌ مجملٌ، قد يُتذرَّع من خلاله إلى نفي الصورة بالكلّيَّة؛ والصواب أنه إن كان أراد أنه ليس كوجه المخلوقين، فهذا حق ـ بلا ريب ـ؛ أما إن كان المراد نفي الصورة مطلقاً فلا، لما تقدَّم عن النبي ﷺ من إثباتها، وليس يصف الله تعالى أحد أعلم به ـ بعد نفسه ـ من رسوله، الذي هو أمينه على وحيه، والمعرِّف لخلقه به.
قلت: ثم إن طريقة القرآن والسنة تفصيل الإثبات في الصفات، والإجمال في النفي، لا العكس ـ كما هو نهج أهل الكلام المذموم ـ؛ وانظر «شرح الطحاوية» (١٠٧ ـ ١٠٨).

٩

٩ ـ باب:
في ذكر صفة الفعل

قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، وقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: ١٤]، وقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: ١] إلى سائر ما ورد في الكتاب في معنى هذه الآيات.

عن عمران بن حصين قال: «أتيت رسول الله ﷺ، فجاءه نفر من أهل اليمن؛ فقالوا: يا رسول الله، أتيناك لنتفقّه في الدّين، ولنسألك عن أوّل هذا الأمر كيف كان؟، قال: كان الله ـ عز وجل ـ ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء؛ ثمّ كتب في الذّكر كلّ شيء، ثّم خلق السّموات والأرض».

قال الأستاذ الإمام ـ رحمه الله ـ: قوله: «كان الله ولم يكن شيء غيره» لا الماء ولا العرش ولا غيرهما، وكلّ ذلك أغيار؛ وقوله: «وكان عرشه على الماء» ـ يعني به: ثّم خلق الماء، وخلق العرش على الماء؛ وبيان ذلك في حديث أبي رزين العقيلي: عن النّبيّ ﷺ ـ حين قال: «ثمّ خلق العرش على الماء».

عن طاووس قال: «جاء رجل إلى عبدالله بن عبّاس فسأله؛ فقال: ممّ خلق الخلق؟، قال: من الماء والنّور والظّلمة والرّيح والتّراب، فقال الرّجل: فممّ خلق هؤلاء؟؛ فتلا عبدالله بن عبّاس: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي

﴿ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]»[1].

قال: فأخبرنا ابن عبّاس أنّ الماء والنّور والظّلمة والرّيح والتّراب ممّا في السّموات وما في الأرض؛ وقد أخبرنا الله ـ عز وجل ـ أنّ مصدر الجميع منه ـ أي: من خلقه؛ وإبداعه، واختراعه؛ فهو خالق كلّ شيء، خلق الماء أوّلاً، أو الماء وما شاء من خلقه؛ لا عن أصل، ولا عن مثال سبق؛ ثمّ جعله أصلاً لما خلق بعده. فهو المبدع، وهو الباري؛ لا إله غيره، ولا خالق سواه.



(١) أخرجه: الحاكم (٣٦٨٧) ـ من طريق: إسحاق ـ وهو: ابن إبراهيم الدّبري ـ: أنبأ عبدالرزاق: عن عمر بن حبيب المكي: عن حميد بن قيس الأعرج: عن طاووس قال: «جاء رجل إلى عبدالله بن عمرو بن العاص يسأله: مما خلق الخلق؟، قال: من الماء والنور والظلمة والريح والتراب؛ قال الرجل: فمم خلق هؤلاء؟، قال: لا أدري؛ ثم أتى الرجل عبدالله بن الزبير فسأله، فقال مثل قول عبدالله بن عمرو؛ قال: فأتى الرجل عبدالله بن عباس فسأله، فقال: مم خُلق الخَلق؟، قال: من الماء والنور والظلمة والريح والتراب، قال الرجل: فمم خلق هؤلاء؟ فتلا عبدالله بن عباس ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾؛ فقال الرجل: ما كان لنا بهذا إلا رجل من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم».

ـ قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وتعقّبه الذهبي فقال: الخبر منكر.

قلت: صدق ـ رحمه الله ـ؛ فإن الدّبري حدث عن عبدالرزاق بالمناكير، كما نبه على ذلك ابن عدي والذهبي وغيرهما

وقد روي هذا الخبر من وجه آخر، إلا أنه لا يثبت أيضاً؛ أخرجه: ابن أبي حاتم في «تفسيره» ـ كما في ابن كثير (١٥٧/٦) ـ من طريق: الفِريابي: عن سفيان: عن الأعمش عن المنهال بن عمرو: عن أبي أراكة قال: «سأل رجل عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: مم خلق الخلق؟، قال: من النور والنار والظلمة والثرى، قال: وائت ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فاسأله، فأتاه فقال له مثل ذلك؛ فقال: ارجع إليه فسله ممن خلق ذلك كله، فرجع إليه فسأله فتلا ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾.

قال العماد ابن كثير: هذا أثر غريب، وفيه نكارة.

قلت: وأبو أراكة هذا مجهول، والأعمش مدلّس وقد عنعن.



١٠ ـ باب: القول في القرآن

القرآن كلام الله ـ عز وجل ـ، وكلام الله صفة من صفات ذاته، ولا يجوز أن يكون شيء من صفات ذاته مخلوقاً ولا محدثاً ولا حادثاً؛ قال الله ـ جلّ شأنه ـ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النّحل: ٤٠]، فلو كان القرآن مخلوقاً، لكان الله ـ سبحانه ـ قائلاً له: «كن»؛ والقرآن قوله، ويستحيل أن يكون قوله مقولاً له، لأنّ هذا يُوجبُ قولاً ثانياً، والقول في القول الثّاني، وفي تعلّقه بقولٍ ثالثٍ كالأوّل، وهذا يفضي إلى ما لا نهاية له، وهو فاسد، وإذا فسد ذلك فسد أن يكون القرآن مخلوقاً، ووجبَ أن يكون القرآنُ أمراً أزليّاً متعلّقاً بالمكُونِ فيما لا يزال، كما أنّ الأمر متعلّق بصلاة غدٍ ـ وغد غير موجود ـ، ومتعلق بمن يخلق من المكلّفين إلى يوم القيامة؛ إلاّ أنّ تعليقهُ بهم على الشّرط الّذي يصحُّ فيمَا بعد، كذلك قوله في التّكوين.

وهذا كما أنّ علم الله ـ عز وجل ـ أزلّي متعلّق بالمعلومات عند حدوثها، وسمعه أزلّي متعلّق بإدراك المسموعات عند ظهورها، وبصرُهُ أزلّي متعلّق بإدراك المرئيّات عند وجودها من غير حدوث معنى فيه؛ تعالى عن أن يكون محلاً للحوادث، وأن يكون شيء من صفات ذاته محدثاً[1].

(١) أقول: هاهنا أمرٌ يوهم كلام المصنف خلافه؛ وهو أن الكلام قديم الجنس حديث النوع، بمعنى أن الله تعالى يتكلّم متى شاء كيف شاء، فجنس الكلمات الإلهيّة قديم، وإن كانت آحادها حادثة؛ فإن خطاب الله لملائكته بشأن آدم، وتكليمه آدم، وغيره =

ولأنّ الله ـ عز وجل ـ قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣﴾ [الرحمٰن: ١ ـ ٣]، فلمّا جمع في الذّكر بين القرآن الّذي هو كلامه وصفته، وبيّن الإنسان الّذي هو خلقه ومصنوعه خصّ القرآن بالتّعليم، والإنسان بالتّخليق؛ فلو كان القرآن مخلوقاً كالإنسان لقال: «خلق القرآن والإنسان».

وقال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ففرّق بين خلقه وأمره بالواو ـ الذّي هو حرف الفصل بين الشّيئين المتغايرين ـ، فدلّ على أنّ قوله غير خلقه؛ وقال: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الرّوم: ٤] ـ يعني: من قبل أن يخلق الخلق ومن بعد ذلك، وهذا يوجب أنّ الأمر غير مخلوق.

وقال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧١﴾ [الصّافّات: ١٧١]، وقال: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ [الأنفال: ٦٨]، والسّبق على الإطلاق يقتضي سبق كلّ شيء سواه.

وقال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النّساء: ١٦٤]، ولا يجوز أن يكون كلام المتكلّم قائماً بغيره، ثمّ يكون هو به متكلّماً دون ذلك الغير، كما لا يجوز ذلك في العلم والسّمع والبصر.

وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ١٥٠]، فلو كان كلام الله لا يوجد إلاّ مخلوقاً في شيء مخلوق لم يكن لاشتراط هذه الوجوه معنى لاستواء جميع الخلق في سماعه من غير الله، ووجودهم ذلك عند الجهميّة مخلوقاً في غير الله، وهذا يوجبُ إسقاط مرتبة النّبيّين ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ.

= من الأنبياء إنما كان بعد حدوث المكلّمين لا قبل ذلك؛ وهذا لا خلاف فيه بين أهل السنة والجماعة من الصحابة والتابعين ومن اقتفى أثرهم من الأئمة المتّبعين؛ نسأل الله تعالى أن يلحقنا بهم، غير ضالّين ولا مبدّلين. آمين.

ويجب عليهم إذا زعموا أنّ كلام الله لموسى خلقه في شجرة أن يكون من سمع كلام الله من ملك، أو من نبيّ أتاه به من عند الله أفضل مرتبة في سماع الكلام من موسى، لأنهم سمعوه من نبيّ، ولم يسمعه موسى - عليه السلام - من الله، وإنّما سمعه من شجرة، وأن يزعُموا أنّ اليهود إذا سمعت كلام الله من موسى نبيّ الله أفضل مرتبة في هذا المعنى من موسى بن عمران ﷺ، وعلى نبيّنا وسلّم سمعه مخلوقاً في شجرة، ولو كان مخلوقاً في شجرةٍ لم يكن الله - عز وجل - مكلّماً لموسى من وراء حجاب، ولأنّ كلام الله - عز وجل - لموسى - عليه السلام - لو كان مخلوقاً في شجرةٍ كمَا زعمُوا لَزِمهُم أن تكون الشّجرةُ بذلك الكلام متكلّمةً، ووجب عليهم أنّ مخلوقاً من المخلوقين كلّم موسى؛ وقال له: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾ [طه: ١٤]، وهذا ظاهر الفساد.

وقد احتجّ عليّ بن إسماعيل - رحمه الله - بهذه الفصول، واحتجّ بها غيرُهُ من سلفنَا - رحمهم الله -.

وعن الشافعي: «أنه ذكر إبراهيم بن إسماعيل بن عُليّة؛ فقال: أنا مخالف له في كلّ شيء، وفي قوله: لا إله إلاّ الله، لست أقول كما يقول: أنا أقول: لا إله إلاّ الله الّذي كلّم موسى من وراء حجاب؛ وذاك يقول: لا إله إلاّ الله الّذي خلق كلاماً أسمعه موسى من وراء حجاب».

قلنا: ولأنّ الله قال مخبراً عن المشركين أنّهم قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [المدثر: ٢٥]؛ يعنون: القرآن، فمن زعم أنّ القرآن مخلوق، فقد جعله قولاً للبشر، وهذا ممّا أنكرهُ الله على المشركين؛ ولأنّ الله تعالى قال: ﴿لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، فلو كانت البحار مداداً يكتب به لنفذت البحار وتكسّرت الأقلام، ولم يلحق الفناء كلمات الله عز وجل، كما لا يلحق الفناء علم الله، لأنّ من نفي كلامه لحقته الآفات وجرى عليه السّكوت، فلمّا لم يجري ذلك على ربّنا - عز وجل - صحّ أنّه لم يزل متكلّماً ولا يزال متكلّماً، وقد نفى النّفاد عن كلامه كما نفى الهلاك عن وجهه.

وأمّا قوله ـ عز وجل ـ: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التّوبة: ٦]، فأثبت أنّ القرآن كلام الله ـ عز وجل ـ، ولا يكون شيء واحد كلاماً للرّسول ﷺ، وكلاماً لله، دلّ أنّ المراد بالأوّل ما قلنا.

وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزّخرف: ٣] ـ معناه: سمّيناه قرآناً عربيّاً، وأنزلناه مع الملك الّذي أسمعناه إيّاه، حتّى نزل به بلسان العرب ليعقلوا معناه؛ وهو كما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النّحل: ٦٢] ـ يعني: يصفون لله ما يكرهون، ولم يرد به الخلق.

وقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢]، يحتمل أن يكون معناه: ذكراً غير القرآن، وكلام الرسول ﷺ ووعظه إيّاهم؛ بقوله: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٥٥] ولأنّه لم يقل: لا يأتيهم ذكر إلاّ كان محدثاً؛ وإنّما قال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾﴾، فدلّ أنّ ذكراً غير محدث، ثمّ إنّه إنّما أراد ذكر القرآن لهم وتلاوته عليهم وعلمهم به؛ وكلّ ذلك محدث، والمذكور المتلو المعلوم غير محدث، كما أنّ ذكر العبد لله وعلمه به وعبادته له محدث، والمذكور المعلوم غير محدث؛ وحين احتجّ به على أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ، قال أحمد بن حنبل ـ رضي الله عنه ـ: «قد يحتمل أن يكون تنزيله إلينا هو المحدث، لا الذّكر نفسه هو المحدث».

قال الشيخ ـ رحمه الله ـ: وهذا الّذي أجاب به أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ ظاهر في الآية، وإتيانه تنزيله على لسان الملك الّذي أتى به والتّنزيل محدث، وقد أجاب أحمد ـ رحمه الله ـ بالجواب الأوّل.

وأمّا تسمية عيسى بكلمة الله فعلى معنى أنّه صار مكوّناً بكلمة الله من غير أب كما صار آدم مكوّناً بكلمة الله من غير أب ولا أمّ؛ وقد بيّنه بقوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩].

وقد روّينا في الحديث الصّحيح: عن عمران بن حصين: عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «وكتب في الذّكر كلّ شيء»، والقرآن فيما كتب في الذّكر، لقوله ـ عز وجل ـ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: ٢١ ـ ٢٢]؛ وفي ذلك دلالة على قدم القرآن، ووجوده قبل وقوع الحاجة إليه.

وممّا يدلّ على ذلك الحديث الصّحيح الّذي [رواه] أبو هريرة: عن رسول الله ﷺ: «احتجّ آدم وموسى عند ربّهما، فحجّ آدم موسى عليه السلام؛ فقال موسى: أنت الّذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك جنّته، ثمّ أهبطت النّاس بخطيئتك إلى الأرض؛ قال آدم: أنت موسى الّذي اصطفاك الله برسالاته وكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كلّ شيء، وقرّبك الله نجيّا فبكم وجدت التّوراة قبل أن أخلق، قال موسى: بأربعين عاماً، قال آدم: فهل وجدت فيها ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]، قال: نعم، قال: أفتلومني أن أعمل عملاً كتب الله عليّ عمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة. قال رسول الله ﷺ: فحجّ آدم موسى!».

قال الشّيخ: وهذا التّاريخ يرجع إلى إظهاره ذلك لمن شاء من ملائكته، وفي ذلك ـ مع الآية ـ دلالة على وجوده قبل وقوع الخطيئة من آدم ـ عليه السلام ـ.

وكلام الله ـ تعالى ـ موجود فيما لم يزل، موجود فيما لا يزال؛ وبإسماعه كلامه من شاء من ملائكته ورسله وعباده متى شاء، صار كلامه مسموعاً له بلا كيف، والمسموع كلامه الّذي لم يزل ولا يزال موصوفاً به، وكلامه لا يشبه كلام المخلوقين، كما لا يشبه سائر أوصافه أوصاف المخلوقين؛ وبالله التّوفيق.

وعن جابر بن عبدالله قال: «لمّا أُمر النّبيّ ﷺ أن يبلّغ الرّسالة، جعل يقول: يا قوم لم تؤذونني أن أبلّغ كلام ربّي؟!» ـ يعني: القرآن. وعن علي رضي الله عنه: «أنّ رسول الله ﷺ كان يقول عند مضجعه: «اللهمّ إنّي أعوذ

بوجهك الكريم، وكلماتك التّامّة من شرّ ما أنت آخذ بناصيته، اللهمّ أنت تكشف المغرم والمأثم، اللهمّ لا يهزم جندك، ولا يخلف وعدك، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ، سبحانك وبحمدك»»[(١)].

قال الأستاذ الإمام ـ رحمه الله ـ: فاستعاذ رسول الله ﷺ ـ في هذا الخبر وغيره ـ بكلمات الله كما استعاذ بوجهه الكريم، فكما أنّ وجهه الّذي استعاذ به غير مخلوق، فكذلك كلماته الّتي استعاذ بها غير مخلوقة.

. وكلام الله واحد ولم يزل ولا يزال، وإنّما جاء بلفظ الجمع على معنى التّعظيم[(٢)]؛ كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾

---

(١) ضعيف الإسناد؛ أخرجه: أبو داود (٥٠٥٢)، والنسائي في «الكبرى» (٧٧٣٢، ١٠٦٠٣)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٧١١)، والطبراني في «الصغير» (٩٩٨) ـ من طرق: عن أبي الجواب أحوص بن جواب: ثنا عمار بن زُرَيق: عن أبي إسحاق: عن الحارث (و) أبي ميسرة: عن علي؛ فذكره.
ـ قال الطبراني: لم يروه عن أبي إسحاق عن أبي ميسرة إلا عمار بن رُزَيق.
قلت: وهو ثقة، وكذا أبو ميسرة ـ واسمه: عمرو بن شرحبيل ـ؛ إلا أن أبا إسحاق مدلس وقد عنعنه، ولم يتابع عليه. وقد أودعه شيخنا الألباني ـ رحمه الله ـ «ضعيف أبي داود».

(٢) مراد المؤلف ـ رحمنا الله وإيّاه ـ أن كلام الله تعالى كلٌّ لا يتجزّأ، فهو كلام لا كلمات؛ وهذا القول قريبٌ من قول ـ إن لم يكن عينه ـ «الكلابية والسالمية الذين يقولون النداء قام بذاته ـ وهو قديم ـ لكن سمعه موسى؛ فاستجدُّوا سماع موسى، وإلاّ فما زال عندهم منادياً!!؛ والقرآن والأحاديث وأقوال السلف والأئمة كلها تخالف هذا، وتبيِّن أنه ناداه حين جاء، وأنه يتكلّم بمشيته في وقت بكلام معيَّن؛ كما قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾. والقرآن فيه مئون من الآيات تدل على هذا الأصل، وأما الأحاديث فلا تحصى؛ وهذا قول أئمة السنة والسلف وجمهور العقلاء.
ولهذا قال عبدالله بن المبارك والإمام أحمد بن حنبل وغيرهما: لم يزل متكلِّماً إذا شاء وكيف شاء، وهذا قول عامة أهل السنة. فلهذا اتفقوا على أن القرآن كلام الله منزلٌ غير مخلوق. ولم نعرف عن أحد من السلف أنه قال هو قديم لم يزل، والذين قالوا من المتأخِّرين هو قديمٌ كثيرٌ؛ منهم من لم يتصوَّر المراد، بل منهم من يقول هو قديم في علمه، ومنهم من يقول قديم أي متقدِّم الوجود ـ متقدِّمٌ على ذات زمان المبعث، =

[الحجر: ٩]، وإنّما سمّاها تامّة، لأنّه لا يجوز أن يكون في كلامه عيب أو نقص؛ كما يكون ذلك في كلام الآدميّين.

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله - عز وجل -: من شغله قراءة القرآن عن مسألتي؛ أعطيته أفضل ما أعطي السّائلين. وفضل كلام الله على سائر الكلام، كفضل الله على خلقه»(١).

= لا أنّه أزلّي لم يزل -، ومنهم من يقول: بل مرادنا بقديم أنه غير مخلوق» اهـ. من «الفرقان بين الحق والباطل» (ص١٥٤ - ١٥٥).

أقول: والحق الذي ندين الله تعالى به، وعليه من مضى من سلفنا «أنَّ كلام الله تعالى كلمات غير متناهيات، وأنَّ هذه الكلمات مؤلّفة من حروف، وأنَّه بصوت - سمعه آدم وموسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين، ويسمعه الملائكة، وتسمعه الخلائق يوم القيامة -، وأنه تعالى يتكلّم بما شاء، متى شاء، كيف شاء».

(١) إسناد ضعيف؛ أخرجه: الترمذي (٢٩٢٦)، والدارمي (٣٣٥٦)، وعبدالله في «زوائد السنة» (١٢٥)، وابن نصر في قيام الليل (ص٧١)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠٦/٥)، والعقيلي في «الضعفاء» (٣٧٥)، والمصنف في «الأسماء والصفات (ص٢٣٨)، وأبو الحسن الأشعري في «الإبانة» (١٢١) - تعليقاً - من طريق: محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهَمداني: عن عمرو بن قيس: عن عطية: عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الرب عز وجل من شغله القرآن وذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي [ولفظ الدارمي: من شغله قراءة القرآن عن مسألتي وذكري أعطيته أفضل ثواب] السائلين، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه».

- قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

قلت: كذا قال؛ وهذا منه غير حسن؛ وقد رد عليه تحسينه هذا الذهبي في «الميزان» والألباني في «الضعيفة» (١٣٣٥)؛ ذلك أن السند معل بعلتين:

الأولى: عطية العوفي؛ ضعيف، وهو ممن كان يدلس تدليس الشيوخ - كما يعلمه من لقدمه في هذا الفن رسوخ -.

والثانية: وهاء ابن أبي يزيد الهمداني.

لكن البيهقي ذكر له متابعين: الحكم بن بشير، ومحمد بن مروان.

قال ناصر السنة: فإذا صح السند بهذه المتابعة، فهي متابعة قوية، يبرأ محمد بن الحسن هذا من عهدة الحديث، فالحكم بن بشير صدوق - كما في التقريب -، ومحمد بن مروان، إن كان هو العقيلي البصري - فهو صدوق أيضاً، لكن له أوهام، وإن كان هو السدي الأصغر، فهو متهم؛ وكلاهما من طبقة واحدة. والله أعلم.

وبالجملة: فقد انحصرت علة الحديث في العوفي. =

قال الأستاذ ـ رحمه الله ـ: قال أصحابنا: لما كان فضل الله على خلقه أنّه قديم غير مخلوق، كان من فضل كلامه على خلقه أنّه لم يزل غير مخلوق.

وعن نيار بن مكرم: «أنّ أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ قرأ عليهم قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ [الروم: ١ ـ ٢]؛ فقالوا: كلامك هذا، أم كلام صاحبك؟، قال: ليس بكلامي ولا بكلام صاحبي، ولكن كلام الله عز وجل».

وعن عامر بن شهر قال: «كنت عند النّجاشيّ فقرأ ابن له آية من الإنجيل، فضحكت؛ فقال: أتضحك من كلام الله عز وجل؟»؛ وعن فروة بن نوفل الأشجعيّ قال: «كنت جاراً لخبّاب بن الأرتّ، فخرجنا مرّةً من المسجد، فأخذ بيدي فقال: يا هناه، تقرّب إلى الله بما استطعت، وإنّك لن تقرب إليه بشيء أحبّ إليه من كلامه»؛ وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: «القرآن كلام الله». وعن أمير المؤمنين عثمان بن عفّان ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «لو أنّ قلوبنا طهرت ما شبعنا من كلام ربّنا، وإنّي لأكره أن يأتي عليّ يومٌ لا أنظر فيه في المصحف»[1].

قال الأستاذ ـ رحمه الله ـ: ورُوّينا في كتاب «الأسماء والصّفات»: عن عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أنّه قال: «ما حكمت مخلوقاً، ما حكمت إلاّ القرآن»؛ وعن عكرمة أنه قال: «صلى ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ على جنازة، فقال رجل من القوم: اللهمّ ربّ القرآن العظيم، اغفر له؛ فقال ابن عبّاس: ثكلتك أمّك، إنّ القرآن منه!، إنّ القرآن منه!»[2] ـ يعني: أنه من

= قلت: وقد خرج شيخنا الألباني في «الضعيفة» (١٣٣٤، ١٣٣٥) أحاديث في معنى هذا الخبر، لكنها لا تخلو من علة؛ فمن شاء مزيد تفصيل، فليرجع إليها.

(١) أخرجه: أحمد في «السنة» (١١٨) عن سفيان قال: قال عثمان؛ فذكره مختصراً.
أقول: وهذا معضل، فإن بين سفيان وعثمان مفاوز تنقطع فيها أعناق المطيّ.

(٢) أخرجه: البغوي (١/١٨٥ ـ ١٨٦) معلّقاً، وعزاه محققا «شرح السنة» إلى المصنف في «الأسماء والصفات» (ص٢٤٢)؛ ثم قالا: وفي سنده علي بن عاصم، وهو ضعيف تكلم فيه غير واحد.

صفاته[1]. وعن سفيان بن عيينة قال: «أدركت مشيختنا منذ سبعين سنةً، منهم: عمرو بن دينار؛ يقولون: إنّ القرآن كلام الله ليس بمخلوق».

قال الأستاذ الإمام ـ رحمه الله: هكذا وقعت هذه الحكاية في «تاريخ البخاري»: عن الحكم بن محمّد: عن سفيان: «أدركت»؛ ورواه غيره عن سفيان: عن عمرو أنّه قال: «أدركت»؛ وكذلك رواه الحميدي وغيره عن سفيان: عن عمرو أنّه قال: «أدركت»؛ ومشايخ عمرو بن دينار جماعة من الصّحابة ثمّ أكابر الصّحَابة والتابعين، فهو حكاية إجماع منهم.

وعن معاوية بن عمّار قال: «سألت جعفر بن محمّد؛ فقلت: إنّهم يسألون عن القرآن، أَمخلوقٌ هو؟ قال: ليس بخالق ولا مخلوق؛ ولكنّه كلام الله ـ عز وجل ـ».

قال ـ رحمه الله ـ: فـ[هذا القول] عن جعفر صحيح مشهور؛ وقد روي ذلك عن جعفر بن محمّد عن أبيه عن عليّ بن الحسين، وروي عن الزّهريّ عن عليّ بن الحسين؛ ورويناه من أوجه عن مالك بن أنس، وهو مذهب كافّة أهل العلم قديماً وحديثاً. وقد ذكرنا أسامي أئمّتهم وكبرائهم الّذين صرّحوا بهذا، ورأوا استتابة من قال بخلافه في كتاب «الأسماء والصّفات».

وروينا عن محمّد بن سعيد بن سابق أنّه قال: «سألت أبا يوسف؛

---

(١) ويعني أيضاً: أنه خرج منه ـ كما هو اعتقاد أهل السنة والحديث ـ؛ يقول الإمام أبو جعفر الطحاوي ـ رحمه الله ـ: «القرآن كلام الله منه بدا بلا كيفيَّة قولاً، وأنزله على رسوله وحياً، وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البريَّة؛ فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر، وقد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر، حيث قال تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥﴾ [المدثر: ٢٥]، علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر، ولا يشبه قول البشر».

وعلّق الشارح ابن أبي العز (ص١٦٨) فقال: «هذه قاعدة شريفة وأصل كبير من أصول الدين، ضل فيه طوائف كثيرة من الناس؛ وهذا الذي حكاه الطحاوي ـ رحمه الله ـ هو الحق الذي دلت عليه الأدلة من الكتاب والسنة لمن تدبَّرهما، وشهدت به الفطرة السليمة التي لم تغير بالشبهات والشكوك والآراء الباطلة».

فقلت: أكان أبو حنيفة يقول: «القرآن مخلوق»؟، فقال: معاذ الله، ولا أنا أقوله!!».

قال الأستاذ ـ رحمه الله ـ: وقد ذكر الشّافعيّ ـ رحمه الله ـ ما دلّ على أنّ ما نتلوه من القرآن بألسنتنا، ونسمعه بآذاننا، ونكتبه في مصاحفنا يسمّى كلام الله ـ عز وجل ـ؛ وأنّ الله ـ عز وجل ـ كلّم به عباده بأن أرسل به رسوله ﷺ، وبمعناه ذكره ـ أيضاً ـ عليّ بن إسماعيل في كتاب «الإبانة»[1].

قال الشّافعيّ في كتاب «الجزية»: «من جاء من المشركين فعلى الإمام أن يجيره حتّى يسمع كلام الله ثمّ يبلغه مأمنه، كان ذلك فرضاً على الإمام لقول الله لنبيّه ﷺ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦]».

وقال في كتاب «الإيمان»: «فيمن حلف أن لا يكلّم رجلاً؛ فأرسل إليه رسولاً: من قال يحنث ذهب إلى أنّ الله تعالى قال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشّورى: ٥١]، وقال: إنّ الله تعالى يقول للمؤمنين في المنافقين: ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ [التوبة: ٩٤]؛ وإنّما نبّأهم من أخبارهم بالوحي الّذي تنزّل به جبريل عليه السلام على النبيّ ﷺ، ويخبرهم النّبيّ ﷺ بوحي الله؛ قال: ومن قال: لا يحنث، قال: إنّ كلام الآدميّين لا يشبه كلام الله ـ عز وجل ـ ـ كلام الآدميّين بالمواجهة».

قال الأستاذ الإمام ـ رحمه الله ـ: وذكر باقي المسألة؛ . . . فقد سمّى الشّافعيّ ـ رحمه الله ـ على القولين جميعاً ما نسمعه من القرآن كلام الله، وأنّ الله كلّم به عباده بأن أرسل به رسوله ﷺ، وأنّ كلام الآدميّين ـ وإن كان يكون بالمواجهة في الحكم في أحد القولين ـ فكلام الله تعالى عباده قد يكون بالرّسالة والوحي كما جاء به الكتاب، ويسمّى ذلك كلاماً وتكليماً. والله أعلم.

---

(١) عقد لذلك باباً ـ هو الباب الرابع ـ: الكلام في أن القرآن كلام الله غير مخلوق؛ انظر «الإبانة» (ص٧٢ ـ ٨٤) للإمام أبي الحسن الأشعري ـ رحمه الله ـ.

وقال أبو الحسن عليّ بن إسماعيل ـ رحمه الله ـ في كتابه: «فإن قال قائلٌ: حدّثونا أتقولون: إنّ كلام الله ـ عز وجل ـ في اللّوح المحفوظ؟؛ قيل له: نقول ذلك لأنّه قال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝٢٢﴾ [البروج: ٢١ ـ ٢٢]؛ فالقرآن في اللّوح المحفوظ، وهو في صدور الّذين أوتوا العلم؛ قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وهو متلوّ بالألسنة؛ قال الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ [القيامة: ١٧]، فالقرآن مكتوب في مصاحفنا في الحقيقة، متلوٌّ بألسنتنا في الحقيقة، مسموعٌ لنا في الحقيقة؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾(١) [التّوبة: ٦]».

عن محمّد بن إسماعيل البخاريّ قال: «سمعت عبدالله بن سعيد ـ يعني: أبا قدامة ـ يقول: سمعت يحيى بن سعيد ـ يعني: القطّان ـ يقول: «ما زلت أسمع أصحابنا يقولون: أفعال العباد مخلوقة».

قال أبو عبدالله البخاريّ: حركاتهم وأصواتهم واكتسابهم وكتابتهم مخلوقة، فأمّا القرآن المتلوّ المبين المثبّت في المصاحف، المسطور المكتوب، الموعى في القلوب؛ فهو كلام الله ليس بمخلوق؛ قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾(٢) [العنكبوت: ٤٩]».

قال الشّيخ الأستاذ ـ رحمه الله ـ: وهذا القول لا يخالف قول أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ، وقد روّينا عنه في كتاب «الأسماء والصّفات» أنّه أنكر على تلميذه أبي طالب قوله: «لفظي بالقرآن غير مخلوق»، وكره الكلام في اللّفظ؛ [فقد روى عنه ابنه أنّه قال]: من قال: «لفظي بالقرآن مخلوق ـ يريد به القرآن ـ؛ فهو كافر».

قال الشّيخ ـ رضي الله عنه ـ: فإنّما أنكر قول من تذرّع بهذا إلى القول بخلق القرآن، وكان يستحبّ ترك الكلام فيه لهذا المعنى؛ والله أعلم.



---

(١) «الإبانة» (٩٣ ـ ٩٤).

(٢) قاله في كتابه «خلق أفعال العباد» (٩٧).

١١

١١ ـ باب: القول في الاستواء

قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾ [طه: ٥]، والعرش هو السّرير المشهور فيما بين العقلاء؛ قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧]، وقال: ﴿هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩]، وقال: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝﴾ [البروج: ١٥] وقال: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ [الزمر: ٧٥]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [غافر: ٧]، وقال: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الرعد: ٢]، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨]، وقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝﴾ [النمل: ٥٠]، وقال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ٣٥]؛ إلى سائر ما ورد في هذا المعنى، وقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦]؛ وأراد من فوق السّماء، كما قال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]؛ يعني: على جذوع النّخل، وقال: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٢]؛ يعني: على الأرض، وكلّ ما علا فهو سماء، والعرش أعلى السّموات؛ فمعنى الآية ـ والله أعلم ـ: أأمنتم من على العرش، كما صرّح به في سائر الآيات.

فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ ـ في حديث ذكره ـ: «فإنّ في

الجنّة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيله، ما بين كلّ درجتين كما بين السّماء والأرض، فاسألوه الفردوس فإنّه وسط الجنّة، وفوقه عرش الرّحمن، ومنه تتفجّر أنهار الجنّة»؛ وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «لمّا قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إنّ رحمتي غلبت غضبي».

قال الأستاذ الإمام ـ رحمه الله ـ: والأخبار في مثل هذا كثيرة، وفيما كتبنا من الآيات دلالة على إبطال قول من زعم من الجهميّة: أنّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ بذاته في كلّ مكان؛ وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وإنّما أراد به: بعلمه لا بذاته.

ثمّ المذهب الصّحيح في جميع ذلك: الاقتصار على ما ورد به التّوقيف دون التّكييف، وإلى هذا ذهب المتقدّمون من أصحابنا، ومن تبعهم من المتأخرين؛ وقالوا: الاستواء على العرش قد نطق به الكتاب في غير آية، ووردت به الأخبار الصّحيحة، وقبوله من جهة التّوقيف واجب، والبحث عنه وطلب الكيفيّة له غير جائز[1].

عن يحيى بن يحيى قال: «كنّا عند مالك بن أنس، فجاء رجل فقال: يا أبا عبدالله، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] كيف استوى؟ فأطرق مالك رأسه ثمّ علاه الرُّحَضاء، ثمّ قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسّؤال عنه بدعة، وما أراك إلاّ مبتدعاً، فأمرَ بهِ أن يخرج».

قال الشّيخ: وعلى مثل هذا، درج أكثر علمائنا في الاستواء، وفي مسألة المجيء والإتيان والنّزول، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢﴾ [الفجر: ٢٢]، وقال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠].

---

(١) قلت: وهذا هو مذهب السلف في جميع أمور الغيب التي لا قِبل لعقول البشر بإدراك كنهها، والوقوف على حقيقتها، وفي مقدّمة ذلك ما يتعلّق بالرب تعالى؛ ولو أنّ المصنّف التزم ما قرّره هنا لاستراح وأراح!.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنّ رسول الله ﷺ قال: «ينزل الله ـ عز وجل ـ كلّ ليلة إلى سماء الدّنيا حين يبقى ثلث اللّيل الآخر؛ فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فاغفر له».

قال ـ رحمه الله ـ: وهذا حديث صحيح رواه جماعة من الصّحابة عن النّبيّ ﷺ.

وأصحاب الحديث فيما ورد من الكتاب والسّنّة من أمثال هذا، ولم يتكلّم أحد من الصّحابة والتّابعين في تأويله على قسمين:

ـ منهم من قبله وآمن به ولم يؤوّله، ووكل علمه إلى الله، ونفى الكيفيّة والتّشبيه عنه.

ـ ومنهم من قبله وآمن به وحمله على وجه يصحّ استعماله في اللّغة، ولا يناقض التّوحيد.

وقد ذكرنا هاتين الطّريقتين في كتاب «الأسماء والصّفات» في المسائل الّتي تكلّموا فيها من هذا الباب[1].

---

(١) لنا على هذا الكلام مؤاخذتان ـ لا آخذ الله قائله ـ:

الأولى ـ قوله: «ولم يتكلّم أحد من الصّحابة والتّابعين في تأويله»؛ فيه اعتراف من المصنف بحدوث التأويل، وهذا التأويل إنما أحدثه المتكلّمون فيما أحدثوا، دفاعاً عن حياض الدين، ودفعاً لتوهُّم التشبيه في رب العالمين؛ هكذا يزعمون، وبمثل هذا يحتجُّون؛ لكن الواقع هو أنهم بذلك يتّهمون نصوص الكتاب والسنة بالنقص وبإهمال الكلام في أعظم مطالب الدين، إذ الشرك إنما كان أصله التشبيه ـ كما سبق أن نقلنا بيان ذلك عن ابن القيّم مفصّلاً ـ، فترك الاهتمام به إهمالٌ لعلاج داء الأدواء، وسفهٌ يتنزّه عنه آحاد العقلاء؛ فكيف بسيّد الأنبياء؟!

هذا على فرَض صدق تلك الدَّعوى، وعلى التَّسليم بأنَّ أصحابها قاموا بهذه الوظيفة أتمَّ قيام؛ وإلاَّ فإنَّهم ـ في أكثر أحوالهم ـ لا الإسلامَ نصروا، ولا أعداءَه كسروا!!

الثانية ـ تقسيمه أهل الحديث إلى طائفتين ـ طائفة مؤوّلةٌ، وأخرى موكِّلةٌ ـ وهلةٌ شديدةٌ من مثله؛ فإن طاغوت التأويل ـ كما سمّاه ابن القيّم في «الصواعق المرسلة» ـ لم يعرفه أهل الحديث في القرون الثلاثة المفضّلة، وإنما نشأ فيهم بعد ذلك، لمّا أن ظهر الأشعري بمذهبه ـ الملفّق من مقالات ابن كُلاَّب، وقواعد المرّيسي ـ، فصار يدعو إلى ما ظنّه«عقيدة أهل السنة والجماعة»، ويردُّ على المعتزلة والجهميَّة ـ وهم كانوا =

وفي الجملة: يجب أن يعلم أنّ استواء الله سبحانه وتعالى، ليس باستواء اعتدال عن اعوجاج، ولا استقرار في مكان[(١)]، ولا مماسّة لشيء من خلقه، لكن مستوٍ على عرشه؛ كما أخبر بلا كيف، بلا أين[(٢)]، بائن من

= أعداء أهل الأثر الألدّاء ـ؛ فصار له بذلك قَبولٌ عند أهل الحديث، وتأثر بعضهم بأقواله، وتابعوه على آرائه ـ التي أعلن توبته منها قبيل وفاته ـ.

فمن ثَمّ ظنّ المؤلف أن لأهل الحديث طريقتان في التعامل مع هاتيك النصوص؛ والحق أن ذلك إنما وقع فيه بعضهم باجتهاد منهم أخطؤوا فيه، أو نتيجة قصور في التصورُ، أو تقصير في البحث عن الحق، أو غير ذلك من الأسباب. أمّا جمهورهم فلم يزالوا منكرين على من تنكّب طريق السّالفين، وخاض في التأويل بغير دليل ولا سلطان مبين.

(١) قلت: تفسير الاستواء بالاستقرار ثابتٌ عن الأئمة؛ يقول الإمام ابن القيّم في اجتماع الجيوش الإسلامية (ص١٠٤ ـ ١٠٥): «قال أبو عبيدة في قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] قال: علا، قال: وتقول العرب: استويت فوق الدابة واستويت فوق البيت. وقال غيره: استوى أي استقر، واحتج بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾ [القصص: ١٤] أي انتهى شبابه واستقر، فلم يكن في شبابه مزيد.

قال ابن عبدالبر: الاستواء الاستقرار في العلو، وبهذا خاطبنا الله ـ عز وجل ـ في كتابه، فقال: ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ [الزخرف: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ﴾ [المؤمنون: ٢٨]».

(٢) أقول: هذه زلّة من المؤلِّف ـ عفا الله عنا وعنه ـ، إذ السؤال بـ «أين؟» ثابت في السنة ـ في حديث الجارية عند مسلم (٥٣٧)، وغيره ـ؛ حيث سأل رسول الله ﷺ أمة معاوية بن الحكم السلمي «فقال لها: أين الله؟، قالت: في السماء!؛ قال: من أنا؟، قالت: أنت رسول الله!، قال أعتقها فإنها مؤمنة!».

فهذا رسول الله ﷺ قد نطق بلفظ الأين، فمن يجترأ بعد ذلك علي أن نفيه أو منع امتحان إيمان بعض الناس به؟!؛ ولا يهولنّك إرجاف المرجفين الطّاعنين في صحة هذا الخبر، فإنما يحاولون إعادة مجد دولة التجهُّم، وقد ولّت ـ بإذن الله ـ إلى غير رجعة؛ فـ «إن كلّ أمة أدبرت، فإنهم ينتظرون من العودة، ويمنُّون أنفسهم من الرُّجعة بمثل ما تمنّي به بنو إسرائيل أنفسها، فأمل كأمل ولا فرق!

تَــمَــنٍّ يَــلَــذُّ الــمُــسْــتَــهَــامُ بِــمِــثْــلِــهِ وَإن كَــانَ لاَ يُــغْــنِــي فَــتِــيــلاً وَلاَ يُــجْــدِي
وَغَــيْــظٌ عَــلَــى الأَيَّــامِ كَــالــنَّــارِ في الــحَــشَــا وَلَــكِــنَّــهُ غَــيْــظُ الأَسِــيــرِ عَــلَــى الــقِــدِّ»

اهـ. بتصرُّفٍ من «الفصل في الملل» (٢٢٩/١) لأبي محمد بن حزم.

جميع خلقه، وأنّ إتيانه ليس بإتيان من مكان إلى مكان، وأنّ مجيئه ليس بحركة، وأنّ نزوله ليس بنقلة، وأنّ نفسه ليس بجسم، وأنّ وجهه ليس بصورة، وأنّ يده ليست بجارحة، وأنّ عينه ليست بحدقة، وإنّما هذه أوصاف جاء بها التّوقيف فقلنا بها، ونفينا عنها التّكييف؛ فقد قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقال: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ٤]، وقال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

وقال الوليد بن مسلم: «سئل الأوزاعيّ ومالك وسفيان الثّوري واللّيث بن سعد عن هذه الأحاديث؛ فقالوا: أمرّوها كما جاءت بلا كيف»؛ وقال سفيان بن عيينة قال: «كلّ ما وصف الله من نفسه في كتابه؛ فتفسيره تلاوته، والسّكوت عليه».

قال الشّيخ: وإنّما أراد به ـ والله أعلم ـ فيما تفسيره يؤدّي إلى تكييف، وتكييفه يقتضي تشبيهاً له بخلقه في أوصاف الحدث.

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران: ٧]، قالت ـ رضي الله عنها ـ: قال رسول الله ﷺ: «فإذا رأيتم الّذين يتّبعون ما تشابه منه فأولئك الّذين سمّى الله، فاحذروهم».

وقال يونس بن عبدالأعلى: «قال لي محمّد بن إدريس الشّافعيّ ـ رحمه الله ـ: لا يقال للأصل: لم؟، ولا كيف؟».

قال الشّيخ: وقال في رواية الرّبيع بن سليمان عنه: «الأصل كتاب الله، أو سنّة نبيّه، أو قول بعض أصحاب رسول الله ﷺ، أو إجماع النّاس».



١٢

١٢ ـ باب: القول في إثبات رؤية الله ـ عز وجل ـ في الآخرة بالأبصار

قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ ـ يعني: يوم القيامة، ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ ـ يعني: مشرقة، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣]؛ وليس يخلو النّظر من وجوه، إمّا أن يكون الله ـ عز وجل ـ عنى به نظر الاعتبار، كقوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ [الغاشية: ١٧]، أو يكون عنى به نظر الانتظار، كقوله: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ [يس: ٤٩]، أو يكون عنى نظر التعطف والرّحمة، كقوله: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [محمّد: ٢٠]؛ ولا يجوز أن يكون الله ـ سبحانه ـ عنى بقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ نظر التفكّر والاعتبار، لأنّ الآخرة ليست بدار استدلال واعتبار، وإنّما هي دار اضطرار، ولا يجوز أن عنى نظر الانتظار، لأنّه ليس في شيء من أمر الجنّة انتظار، لأنّ الانتظار مع تنغيص وتكدير، والآية خرجت مخرج البشارة، وأهل الجنّة فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر من العيش السّليم والنّعيم المقيم، فهم ممكّنون ممّن أرادوا، وقادرون عليه، وإذا خطر ببالهم شيء أُتوا به مع خُطوره ببالهم، وإذا كان ذلك كذلك لم يجز أن يكون الله أراد بقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ نظر الانتظار، ولأنّ النّظر إذا ذكر مع ذكر الوجوه، فمعناه: نظر العينين اللّتين في الوجه؛ كما قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٤٤]، وأراد بذلك تقلّب عينيه نحو السّماء؛ ولأنّه قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ ونظر الانتظار لا يكون مقروناً بإلى، لأنّه لا يجوز عند

العرب أن يقولوا: في نظر الانتظار (إلى)، لا ترى أنّ الله ـ عز وجل ـ لمّا قال: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ [يس: ٤٩]، لم يقل: (إلى) إذ كان معناه الانتظار؛ وقالت بلقيس فيما أخبر الله عنها: ﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٥]، فلمّا أرادت الانتظار لم تقل: (إلى)؛ قلنا: ولا يجوز أن يكون الله ـ سبحانه ـ أراد نظر التّعطّف والرّحمة، لأنّ الخلق لا يجوز أن يتعطّفوا على خالقهم، فإذا فسدت هذه الأقسام الثلاثة، صحّ القسم الرّابع من أقسام النّظر؛ وهو أنّ معنى قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ أنّها ترى الله ـ عز وجل ـ، ولا يجوز أن يكون معناه: إلى ثواب ربّها ناظرة، لأنّ ثواب الله غير الله، وإنّما قال ـ عز وجل ـ: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾، ولم يقل: (إلى غير ربّها ناظرة)، والقرآن على ظاهره؛ وليس لنا أن نزيله عن ظاهره إلاّ بحجّة، ألا ترى أنّه لمّا قال: ﴿وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ لم يجز أن يقال: أراد ملائكتي أو رسلي، ثمّ نقول: إن جاز لكم أن تدّعوا هذا في قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ جاز لغيركم أن يدّعيه في قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، فيقول: أراد بها لا تدرك غيره، ولم يرد أنّها لا تدركه الأبصار؛ وإذا لم يجز ذلك لم يجز هذا، ولا حجّة لهم في قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾، فإنّه إنّما أراد به: لا تدركه أبصار المؤمنين في الدّنيا دون الآخرة، ولا تدركه أبصار الكافرين مطلقاً؛ كما قال: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥]، فلمّا عاقب الكفّار بحجبهم عن رؤيته، دلّ على أنّه يثيب المؤمنين برفع الحجاب لهم عن أعينهم حتّى يروه، ولمّا قال في وجوه المؤمنين ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ فقيّدها بيوم القيامة، ووصفها فقال: ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ ثمّ أثبت لها الرّؤية؛ فقال: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ علمنا أنّ الآية الأخرى في نفيها عنهم في الدّنيا دون الآخرة، وفي نفيها عن الوجوه الباسرة دون النّاظرة جمعاً بين الآيتين، وحملاً للمطلق من الكلام على المقيّد منه؛ ثمّ قد قال بعض أصحابنا: إنّما نفى عنه الإدراك دون الرّؤية، والإدراك هو الإحاطة بالمرئيّ بدون الرّؤية، فالله يُرى ولا يُدرك، كمَا يعلم ولا يُحاطُ به علماً.

وممّا يدّل على أنّ الله ـ عز وجل ـ يُرى بالأبصار، قول موسى ـ عليه

السلام ـ: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ولا يجوز أن يكون نبيّ من الأنبياء قد ألبسه الله جلباب النبيّين، وعصمه ممّا عصم منه المرسلين، يسأل ربّه ما يستحيل عليه، وإذا لم يجز ذلك على موسى عليه السلام، فقد علمنا أنّه لم يسأل ربّه مستحيلاً، وأنّ الرّؤية جائزة على ربّنا ـ عز وجل ـ.

وممّا يدلّ على ذلك قول الله ـ عز وجل ـ لموسى ـ عليه السلام ـ ﴿فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فلمّا كان الله قادراً على أن يجعل الجبل مستقرًّا، كان قادراً على الأمر الذي لو فعله لرآه موسى، فدلّ ذلك على أنّ الله قادر على أن يُري نفسه عباده المؤمنين، وأنّه جائزٌ رؤيته؛ وقوله: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ أراد به في الدّنيا دون الآخرة بدليل ما مضى من الآية.

ولأنّ الله ـ تعالى ـ قال: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ﴾ [الأحزاب: ٤٤]، واللّقاء إذا أطلق على الحيّ السليم، لم يكن إلاّ رُؤية العين، وأهل هذه التّحية لا آفة بهم.

ولأنّه قال: ﴿وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ [ق: ٣٥]، وقال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: ٢٦]، وقد فسّر رسول الله ﷺ المُبيّن عن الله عز وجل، فمن بعده من الصّحابة الّذين أخذوا عنه، والتّابعين الّذين أخذوا عن الصّحابة؛ أنّ الزّيادة في هذه الآية النّظر إلى وجه الله تبارك وتعالى، وانتشر عنه وعنهم إثبات رؤية الله ـ عز وجل ـ في الآخرة بالأبصار.

ونحن ذاكرون أقوال بعضهم ـ على طريق الاختصار ـ؛ فقد أفردنا لإثبات الرؤية كتاباً، وبالله التوفيق.

فعن صهيب قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنّة الجنّة نودوا: يا أهل الجنّة إنّ لكم عند الله موعداً لم تروه؛ قال: فيقولون فما هو؟، ألم يبيّض وجوهنا، ويزحزحنا عن النّار ويدخلنا الجنّة؟، قال: فيكشف الحجاب، فينظرون إليه.

قال: فوالله (وفي لفظ: والّذي نفسي بيده) ما أعطاهم [الله عز وجل] شيئاً هو أحبّ إليه منه (وفي لفظ: هو أحبُّ إليهم، ولا أقرّ لأعينهم من النّظر إلى وجه الله تبارك وتعالى)؛ قال: ثمّ قرأ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾».

ورَوّينا عن أبيّ بن كعب (و) كعب بن عجرة: عن النّبيّ ﷺ: «في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾؛ قال: النّظر إلى وجه الرّحمن»؛ وعن أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه: «في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾؛ قال: [زيدوا] النّظر إلى ربهم [وفي لفظ: وجه الرّب عز وجل]». ورُوّينا هذا التّفسير عن: حذيفة بن اليمان (و) أبي موسى الأشعريّ - رضي الله عنهما -.

وعن الحسن: «﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ قال: الجنّة، ﴿وَزِيَادَةٌ﴾، قال: النّظر إلى وجه الرّب عز وجل». ورَوّينا عن: سعيد بن المسيّب (و) عبدالرحمٰن بن أبي ليلى (و) عبدالرّحمٰن بن سابط (و) قتادة (و) غيرهم من التّابعين، معنى قول الحسن البصريّ في تفسير [الزّيادة] في هذه الآية: بالنّظر إلى وجه ربّهم - عز وجل -.

وعن ابن عبّاس: «﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾؛ يعني: حسنها ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣]؛ قال: نظرت إلى الخالق». وعن الحسن: «- في قوله - عز وجل - ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾؛ قال: حسنه، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾؛ قال: تنظر إلى ربّها - عز وجل -؛ حسنها الله بالنّظر إليه، وحقّ لها أن تنضر وهي تنظر إلى ربّها».

قال - رحمه الله -: ورُوّينا في ذلك عن: عكرمة (و) غيره من التّابعين.

وعن أبي هريرة قال: «كان رسول الله ﷺ يوماً بارزاً للنّاس، فأتاه رجل فقال: يا رسول الله، ما الإيمان؟؛ قال: الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتابه، ولقائه، ورسله، وتؤمن بالبعث الآخر» - وذكر باقي الحديث.

قال الأستاذ الإمام - رحمه الله -: واللّقاء المذكور غير هذا الحديث هو لقاء الله عز وجل، فقد أفرد البعث بالذّكر.

وقال - في حديث دعاء التّهجّد - «ووعدك حقّ، ولقاؤك حقّ»؛ وفي رواية أبي بكرة: عن النّبيّ ﷺ: «وستلقون ربّكم فيسألكم عن أعمالكم»،

وفي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ـ في قصّة الأنصار ـ: عن النبيّ ﷺ قال لهم: «اصبروا حتّى تلقوا الله ورسوله».

وفي الكتاب: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وعن عليّ الباشاني قال: «سألت عبد الله بن المبارك عن قوله ـ عز وجل ـ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ ـ الآية؛ فقال: من أراد النّظر إلى وجه خالقه فليعمل عملاً صالحاً، ولا يخبر به أحداً».

وعن جرير بن عبدالله قال: «كنّا جُلوساً عند رسول الله ﷺ، فنظر إلى القمر ليلة البدر؛ فقال: أما إنّكم ستعرضون على ربّكم ـ عز وجل ـ فترونه كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته؛ فإن استطعتم أن لا تغلبوا على قبل طلوع الشّمس، وقبل غروبها؛ فافعلوا، [ثمّ قرأ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾]».

قال الشّيخ الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: سمعت الشّيخ الإمام أبا الطّيّب سهل بن محمّد بن سليمان ـ رحمه الله ـ يقول فيما أملاه علينا؛ في قوله: «لا تُضامُّون في رؤيته» ـ بضمّ التّاء وتشديد الميم ـ: يريد لا تجتمعون لرؤيته في جهة، ولا يضمّ بعضكم إلى بعض لذلك، فإنّه ـ عز وجل ـ لا يُرى في جهة كما يُرى المخلوق في جهة؛ ومعناه ـ بفتح التّاء ـ: لا تَضامون لرؤيته، مثل معناه بضمّها، لا تضامون في رؤيته بالاجتماع في جهة؛ وهو ـ دون تشديد الميم ـ: من الضيم؛ معناه: لا تظلمون فيه برؤية بعضكم دون بعض، وأنّكم ترونه في جهاتكم كلّها، وهو يتعالى عن جهة، قال: والتّشبيه برؤية القمر، ليقين الرُّؤية دون تشبيه المرئي تعالى الله عن ذلك عُلوًّا كبيراً.

فعن جرير قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّكم سترون ربّكم عياناً». وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «أنّ النّاس قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربّنا يوم القيامة؟؛ قال رسول الله ﷺ: «هل تمارون في الشّمس ليس دونها سحاب؟»، قالوا: لا يا رسول الله، قال: «هل تمارون في الشّمس ليس دونها سحاب؟»؛ قالوا: لا يا رسول الله، قال: «فإنّكم ترونه كذلك»».

وقال أبو سعيد الخدري: «قلنا يا رسول الله، هل نرى ربّنا يوم القيامة؟؛ قال: «هل تمارون في رؤية الشّمس في الظهيرة صحواً ليس دونها سحاب؟»، قال: قلنا: لا يا رسول الله، قال: «فهل تمارون في رؤية القمر ليلة البدر صحواً ليس فيه سحاب؟»؛ قالوا: لا يا رسول الله، قال: «ما تمارون في رؤيته يوم القيامة إلاّ كما تمارون في رؤية أحدهما»».

قال الأستاذ الإمام ـ رحمه الله ـ: قوله: تمارون أصله. تتمارون، فأسقطت إحداهما، وهو من المرية، وهي الشّك في الشّيء والاختلاف فيه؛ يقول: ترون ربّكم يوم القيامة بلا شكّ ولا مرية، كما ترون القمر في دار الدّنيا بلا شكّ ولا مرية.

عن عبدالله بن قيس قال: قال رسول الله ﷺ: «جنّتان من فضّة آنيتهما وما فيهما، وجنّتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربّهم، إلاّ رداء الكبرياء على وجهه في جنّة عدن».

قال الأستاذ الإمام رضي الله عنه ـ عند قوله: «رداء الكبرياء» ـ: هو ما يتّصف به من إرادة احتجاب الأعين عن رؤيته، فإذا أراد إكرام أوليائه بها رفع ذلك الحجاب عن أعينهم بخلق الرّؤية فيها ليروه بلا كيف؛ وقوله: «في جنّة عدن» ـ يعني: والنّاظرون في جنّة عدن. ولهذه الأخبار الصّحيحة شواهد من حديث: عليّ بن أبي طالب، وعمّار بن ياسر، وزيد بن ثابت، وعبدالله بن مسعود، وعبادة بن الصامت، وجابر بن عبدالله الأنصاريّ، وعبدالله بن عبّاس، وعبدالله بن عمر، وعديّ بن حاتم، وأبي رزين العقيلي، وأنس بن مالك، وبريدة بن حصيب، وغيرهم ـ رضي الله عنهم ـ عن النّبيّ ﷺ.

وقال ـ رضي الله عنه ـ: ورُوّينا في إثبات الرّؤية عن أبي بكر الصّديق ـ رضي الله عنه ـ، وحذيفة بن اليمان، وعبدالله بن مسعود، وعبدالله بن عبّاس، وأبي موسى، وغيرهم ـ رضي الله عنهم ـ. ولم يُرو عن أحدٍ منهم نفيها؛ ولو كانوا فيها مختلفين لنقل اختلافهم إلينا، وكما أنّهم لمّا اختلفوا في رؤيته بالأبصار في الدّنيا، نقل اختلافهم في ذلك إلينا، فلمّا

نقلت رؤية الله بالأبصار عنهم في الآخرة ولم ينقل عنهم في ذلك اختلاف؛ يعني: في الآخر، كما نقل عنهم اختلاف في الدّنيا علمنا أنّهم كانوا في القول برؤية الله بالأبصار في الآخرة متّفقين مجتمعين. وبالله التّوفيق.

وعن الشّافعيّ - رحمه الله - «في قوله - عز وجل -: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ١٥﴾؛ قال: فلمّا حجبهم في السّخط كان هذا دليلاً على أنّهم يرونه في الرّضا»؛ وقال سعيد بن أسد: «قلت للشّافعيّ - رحمه الله -: ما تقول في حديث الرّؤية؟؛ فقال لي: يا ابن أسد، اقض عليّ - حييت أو متّ - أنّ كلّ حديث يصحّ عن رسول الله ﷺ أقول به، وإن لم يبلغني».



١٣

١٣ ـ باب: القول في الإيمان بالقدر

فقال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]، وقال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢]، وقال: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، وقال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩]، والقدر اسم لما صدر مقدّراً عن فعل القادر؛ يقال: قدرت الشيء، وقدّرته ـ بالتّشديد والتّخفيف ـ فهو قَدر أيّ مقدور ومقدَّر، كما يقال: هدمت البناء فهو هدم؛ أي: مهدوم، وقبضت الشّيء فهو قبض؛ أي: مقبوض.

فالإيمان بالقدر هو الإيمان بتقديم علم الله ـ سبحانه ـ بما يكون من أكساب الخلق وغيرها من المخلوقات، وصدور جميعها عن تقدير منه؛ وخلق لها خيرها وشرّها.

عن يحيى بن يعمر قال: «كان أوّل من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقنا حجّاجاً أنا وحميد بن عبدالرّحمن؛ فلمّا قدمنا قلنا: لو لقينا بعض أصحاب رسول الله ﷺ، فسألناه عمّا يقول هؤلاء القوم في القدر؟؛ قال: فوفّق لنا عبدالله ابن عمر في المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله، قال يحيى: فظننت أنّ صاحبي يكل الكلام إليّ؛ فقلت: يا أبا عبدالرّحمٰن، إنّه ظهر قبلنا ناس يقرؤون القرآن ويعرفون العلم، يزعمون أن لا قدر، وإنّما الأمر أنف؛ فقال عبدالله: فإن لقيتم أولئك فأخبروهم أنّي بريء منهم وهم منّي براء، والّذي يحلف به عبدالله بن عمر لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبله الله

ـ عز وجل ـ منه حتّى يؤمن بالقدر كلّه خيره وشرّه.

ثمّ قال: حدّثني عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذا طلع رجل شديد بياض الثّياب شديد سواد الشّعر، لا يُرى عليه أثر السّفر ولا نعرفه، حتّى جلس إلى رسول الله ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفّيه على فخذيه؛ ثمّ قال: يا محمّد أخبرني عن الإسلام، ما الإسلام؟، قال رسول الله ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلاّ الله، وأنّ محمّداً رسول الله، وتقيم الصّلاة، وتؤتي الزّكاة، وتصوم رمضان، وتحجّ البيت إن استطعت السّبيل»؛ فقال الرّجل: صدقت، قال عمر رضي الله عنه: فعجبنا له يسأله ويصدّقه، ثمّ قال: يا محمّد، أخبرني عن الإيمان، ما الإيمان؟؛ فقال: «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر كلّه خيره وشرّه»، فقال: صدقت؛ فقال: أخبرني عن الإحسان، ما الإحسان؟ فقال: «الإحسان أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك»، قال: فحدّثني عن السّاعة، متى السّاعة؟؛ فقال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السّائل»؛ قال: فأخبرني عن أمارتها، قال: «أن تلد الأمة ربّتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاة الشّاة يتطاولون في البنيان»، ثمّ انطلق، فقال عمر رضي الله عنه: فلبث ملياً، ثمّ قال لي رسول الله ﷺ: «يا عمر، ما تدري من السّائل؟»؛ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «ذاك جبريل ـ عليه السلام ـ أتاكم يعلّمكم دينكم»».

وعن ابن بريدة قال: «كنت أنا وابن عمير جالسين في المسجد، فجاء ابن عمر ـ فذكر الحديث ـ، في سؤال الرّجل رسول الله ﷺ عن الإيمان، وقال في جوابه: قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث والحساب، والجنّة والنّار، والقدر خيره وشرّه من الله ـ عز وجل ـ».

وعن أبي هريرة قال: «جاء مشركوا قريش إلى رسول الله ﷺ يخاصمونه في القدر؛ قال: فنزلت هذه الآية ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٧ ـ ٤٩]».

وقال طاووس: «أدركت ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كلّ شيء بقدر؛ قال: وسمعت عبدالله بن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «كلّ شيء بقدر حتّى العجز والكيس ـ أو: الكَيس والعجز ـ»؛ وقال عبدالله بن عمرو بن العاص: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قدّر الله المقادير قبل أن يخلق السّموات والأرض بخمسين ألف سنة».

وعن أبي حفصة قال: «قال عبادة بن الصّامت لابنه: يا بنّي، إنّك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتّى تعلم أنّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنّ أوّل ما خلق الله ـ جلّ ثناؤه ـ القلم، فقال له: أكتب؛ قال: ربّ وماذا أكتب، قال: أكتب مقادير كلّ شيء حتّى تقوم السّاعة؛ يا بنّي إنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما مات على غير هذا فليس منّي».

وعن عليّ ـ رضي الله عنه ـ قال: «كنّا مع رسول الله ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة؛ فقال: ما منكم من أحد إلاّ قد كتب مقعده من النّار ومقعده من الجنّة، قالوا: يا رسول الله، أفلا نتّكل؟، قال: اعملوا فكلّ ميسّر؛ ثمّ قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾».

قال الشّيخ الإمام ـ رحمه الله ـ: وقوله: «فكلٌّ ميسّر»، يريد أنّه ميسّر في أيّام حياته للعمل الّذي سبق له القدر به قبل وجوده وكونه، وأمر بالعمل الّذي أمارة له ليكون راجياً خائفاً.

عن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ قال: حدثنا رسول الله ﷺ ـ وهو الصّادق المصدوق ـ: «أنّ أحدكم يجمع خلقه في بطن أمّه أربعين يوماً نطفة، ثمّ يكُونُ علقةً مثل ذلك، ثمّ يكون مُضغةً مثل ذلك، ثمّ يُبعثُ إليه الملك فينفخ فيه الرُّوح؛ ثمّ يُؤمرُ بأربع: أكتب رزقه، وعمله، وأجله، وشقيّ أم سعيد، والّذي لا إله غيره، إنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النّار حتّى ما يكون بينه وبينها إلاّ ذراعٌ، فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل الجنّة فيدخلها؛ وإنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنّة حتّى ما يكون بينه وبينها إلاّ

ذراعٌ، فيسبق عليه الكتاب، فيختم له بعمل أهل النّار فيدخلها».

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «احتجّ آدم وموسى ـ عليهما السلام ـ؛ فقال موسى: أنت أبونا خيّبتنا وأخرجتنا من الجنّة، فقال آدم: يا موسى، اصطفاك الله بكلامه، وخطّ لك التّوراة؛ أتلومني على أمرٍ قدّرهُ عليّ قبل أن يخلقني، قال: فحجّ آدم موسى!».

وعن ابن عبّاس: عن أُبيّ بن كعب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الغلام الّذي قتله الخضر ـ عليه السلام ـ طُبع كافراً، ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفراً». وقال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: عن النّبيّ ﷺ قال: «السّعيد من سعد في بطن أمّه [والشّقيّ من شقي في بطن أمّه]».

وعن ابن عبّاس قال: «كنت رديف رسول الله ﷺ؛ فقال لي رسول الله ﷺ: «يا غلام ـ أو يا بنيّ ـ، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرّف إليه في الرّخاء يعرفك في الشّدّة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، قد جفّ القلم بما هو كائن، فلو أنّ الخلق كلّهم جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه، وإن أرادوا أن يضرّوك بشيء لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه، فاعمل لله بالشّكر في اليقين، واعلم أنّ الصّبر على ما تكره خير كثير، وأنّ النّصر مع الصّبر، وأنّ الفرج مع الكرب، وأنّ مع العسر يسراً [رفعت الصُحُف، وجفّتِ الأقلامُ]».

قال الأستاذ الإمام ـ رحمه الله ـ:

وحديث «السّعيد من سعد في بطن أمّه» لا يخالف الأحاديث الواردة في المقادير، وجريان القلم بما يكون؛ فإنّه إنّما يسعد في بطن أمّه من جرى القلم بسعادته، وإنّما جرى القلم بسعادة من كان في علم الله، وفي تقديره سعادته.

وعن أبي حازم قال: «إن الله ـ عز وجل ـ علم قبل أن يكتب، وكتب قبل أن يخلق؛ فمضى الخلق على علمه وكتابه». وعن أبي خزامة: أنّ أباه

حدّثه أنّه قال: «يا رسول الله، أرأيت دواءً نتداوى بِهِ، ورُقىً نسترقيهَا، وتُقًى نتّقيهَا؛ هل يردُّ ذلك من قدر الله من شيءٍ؟؛ فقال رسول الله ﷺ: إنه من قدر الله».

قال الشيّخ ـ رحمه الله ـ: والّذي يشهد لهذا الحديث بالصّحة؛ قوله ﷺ: «كلّ ميسّر لما خلق له»، فهو إذاً تَداوى، أو استرقى، أو اتّقى بتقدير الله وتيسيره أمكنه ذلك، ولو لم يقدّره لم يتيسّر منه فعل ذلك؛ وبالله التّوفيق.



١٤

١٤ ـ باب: القول في خلق الأفعال



قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [غافر: ٨٢]، فدخل فيه الأعيان والأفعال من الخير والشرّ، وقال: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرّعد: ١٦]، فنفى أن يكون خالق غيره، ونفى أن يكون شيء سواه غير مخلوق؛ فلو كانت الأفعال غير مخلوقة لكان الله ـ سبحانه ـ خالق بعض الأشياء دون جميعها، وهذا خلاف الآية، ومعلوم أنّ الأفعال أكثر من الأعيان؛ فلو كان الله خالق الأعيان والنّاس خالقي الأفعال، لكان خلق النّاس أكثر من خلقه، ولكانوا أتمّ قوّة منه، وأولى بصفةِ المدح من ربّهم سبحانه؛ ولأنّ الله تعالى قال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦]، فأخبر أنّ أعمالهم مخلوقة لله ـ عز وجل ـ.

عن قتادة: «ـ في قوله: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥]؛ قال: الأصنام، والله خلقكم وما تعلمون، قال: خلقكم وخلق ما تعملون بأيديكم».

قلنا: ولأنّ الله تعالى قال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]، فامتدح بالقولين جميعاً؛ فكما لا يخرجُ شيءٌ من علمهِ، لا يخرجُ شيءٌ غيره من خلقهِ؛ ولأنّه قال: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٣ ـ ١٤]، فأخبر أنّ قولهم، وسرّهم، وجهرهم خلقه، وهو بجميع ذلك عليم، وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [النّجم: ٤٣]، كما قال: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾

[النّجم: ٤٤]، فكما كان مُمِيتاً مُحِيياً، بأن خلق الموت والحياة كان مضحكاً ومبكيّاً، بأن خلق الضّحك والبُكاء؛ وقد يضحك الكافر سرُوراً بقتل المسلمين، وهو منه كفر؛ وقد يبكي حُزناً بظُهور المسلمين وهو منه كفر، فثبت أنّ الأفعال كلّها خيرها وشرّها كلّها صادرة عن خلقه وإحداثه إيّاها.

ولأنّه قال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، وقال: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة: ٦٤]، فسلب عنهم فعل القتل، والرّمي، والزّرع مع مباشرتهم إيّاه، وأثبت فعلها لنفسه، ليدلّ بذلك على أنّ المعنى المؤثّر في وُجُودها بعد عدمها هو إيجادُه وخلقُه؛ وإنّما تحدث من عباده مباشرةً تلك الأفعال بقدرةٍ حادثةٍ أَحدَثَهَا خالِقُنا ـ عز وجل ـ على ما أراد؛ فهي من الله سبحانه خلق، على معنى أنّه هو الّذي اخترعها بقدرتِهِ القديمةِ، وهي من عباده كسبٌ على معنى تعلّق قدرةٍ حادثةٍ بمباشرتهم الّتي هي أكسابهم، ووُقوع هذه الأفعال أو بعضها على وُجوه تخالف قصد مكتسبها يدلّ على مُوقِع أَوقَعَهَا على ما أراد غير مكتسبها، وهو الله ربّنا خلقنا وخلق أفعالنا؛ لا شريك له في شيء من خلقه، تبارك الله ربّ العالمين. وكان الإمام أبو الطّيب سهل بن محمّد بن سليمان يعبّر عن هذا بعبارةٍ حسنةٍ؛ فيقول: «فعل القدير القديم خلق، وفعل القادر المحدث كسبٌ، فتعالى القديم عن الكسب وجلّ، وصغر المحدث عن الخلق وذلّ»[١].

---

(١) هذا تقريرٌ لمسألة القدر على أصول الأشعريّة، وما استحدثوه من نظريّة الكسب، وحقيقتها ـ كما قال الفخر الرازي ـ: «أن الإنسان مجبورٌ في صورة مختار»؛ والذي عليه السلف وجمهور العقلاء: أن الإنسان له كسبه ـ خيراً كان أو شرّاً ـ، وهو مجزيٌّ بما اكتسبه؛ ولا يخرج مع ذلك على أن يكون مخلوقاً لله وأفعاله. ولنترك الإمام الهُمام ابن القيّم يشرح لنا ذلك ويبيِّنه؛ يقول ـ عليه رحمة الله ـ: «اعلم أن الرب ـ سبحانه ـ فاعل غير منفعل، والعبد فاعل منفعل، وهو في فاعليّته منفعل للفاعل الذي لا ينفعل بوجه... فالعبد بجملته مخلوقٌ لله، جسمه وروحه وصفاته وأفعاله وأحواله، فهو مخلوق من جميع الوجوه، وخلق على نشأة وصفة يتمكّن بها من إحداث إرادته وأفعاله، وتلك النشأة بمشيئة الله وقدرته وتكوينه، فهو الذي خلقه وكوّنه كذلك، وهو لم يجعل نفسه كذلك، بل خالقه وباريه جعله محدِثاً لإرادته وأفعاله، وبذلك أمره ونهاه وأقام عليه حجته، وعرّضه للثواب والعقاب؛ فأمره بما هو متمكّنٌ من إحداثه، =

....

= ونهاه عمّا هو متمكّنٌ من تركه، ورتّب ثوابه وعقابه على هذه الأفعال والتُّروك التي مكّنه منها وأقدره عليها وناطها به، وفطر خلقه على مدحه وذمه عليها ـ مؤمنهم وكافرهم، المقرُّ بالشَّرائع منه والجاحد لها ـ، فكان مريداً شائياً بمشيئة الله له، ولولا مشيئة الله أن يكون شائياً لكان أعجز وأضعف من أن يجعل نفسه شائياً، فالرب سبحانه أعطاه مشيئةً وقدرةً وإرادةً، وعرّفه ما ينفعه وما يضرُّه، وأمره أن يجري مشيئته وإرادته وقدرته في الطُّرق التي يصل بها إلى غاية صلاحه؛ فإجراؤها في طريق هلاكه بمنزلة من أعطى عبده فرساً يركبها وأوقفه على طريق نجاة وهلكة، وقال: أجرِها في هذه الطريق، فعدل بها إلى الطريق الآخر وأجراها فيها، فغلبته بقوة بأسها وشدة سيرها، وعزَّ عليه ردُّها عن جهة جريها، وحيل بينه وبين إدارتها إلى ورائها مع اختيارها وإرادتها؛ فلو قلت كان ردُّها عن طريقها ممكناً له مقدوراً أصبت، وإن قلت لم يبق في هذه الحال بيده من أمرها شيءٌ ولا هو يتمكّن أصبت، بل قد حال بينه وبين ردِّها من يحول بين المرء وقلبه ومن يقلّب أفئدة المعاندين وأبصارهم.

وإذا أردت أن تفهم هذا على الحقيقة، فتأمّل حال من عَرَضت له صورةٌ بارعة الجمال فدعاه حسنها إلى محبّتها، فنهاه عقله وذكّره ما في ذلك من التّلف والعطب، وأراه مصارع العشّاق عن يمينه وعن شماله ومن بين يديه ومن خلفه، فعاد يُعاود النظر مرة مرة، ويحثُّ نفسه على التعلّق وقوة الإرادة، ويحرّضها على أسباب المحبة، ويُدني الوقود من النار، حتى إذا اشتعلت وشبَّ ضِرامها ورمت بشررها وقد حاطت به وطلب الخلاص، قال له القلب: هيهات لات حين مناص، وأنشده:

تولّع بالعشق حتى عشِق فلمّا استقلّ به لم يُطِق
رأى لجّةً ظنّها موجةً فلمّا تمكّن منها غرق

وكان الترك أوّلاً مقدوراً له لما يوجد من السّبب التّام والإرادة الجازمة الموجبة للفعل، لما تمكّن الداعي واستحكمت الإرادة، قال المحبُّ لعاذله:

يا عاذلي والأمر في يده هلاّ عذلت وفي يدي الأمر

فكان أوّل الأمر إرادة واختياراً ومحبّة، ووسطه اضطراراً، وآخره عقوبة وبلاءً» اهـ. مختصراً من «شفاء العليل» (٣٠٧ ـ ٣١٥).

قلت: واستدلال المصنّف بالآيتين، ليس على بابه؛ أمّا الآية الأولى: فإنه تعالى بيّن فيها «أنه خالق أفعال العباد، وأنه المحمود على جميع ما صدر منهم من خير، لأنه هو الذي وفّقهم لذلك وأعانهم عليه، ولهذا قال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾، أي: ليس بحولكم وقوّتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلّة عددكم، أي: بل هو الذي أظفركم عليهم؛ .... يُعلم تبارك وتعالى أن النصر ليس على كثرة العدد ولا بلبس اللأمة والعُدد، وإنما النصر من عنده تعالى. ثم قال تعالى لنبيّه ﷺ أيضاً =

وقد أثبت الله ـ سبحانه ـ كسب العباد، وخلقه كسبهم بما ذكرنا من الآيات في هذا الموضع، وفي كتاب «القدر» ممّا لم نذكره ههُنا؛ وبمثل ذلك جاءت السّنّة عن رسول الله ﷺ.

عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله يصنع كلّ صانع وصنعته»، وعن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ: أنّ النّبيّ ﷺ قال: «[والّذي نفسي بيده]؛ [إنّ] الخير والشرّ (وفي لفظ: المعروف والمنكر) [لـ] خليقتان ينصبان للنّاس يوم القيامة [فأمّا المعروف، فيعد أهله الخير ويُمنّيه؛ وأمّا المنكر، فيقول: إليكم!، إليكم!، وما يستطيعون له إلاّ لزوماً]»(١).

عن أبي أمامة الباهليّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله ـ عز وجل ـ يقول: أنا الله لا إله إلاّ أنا خلقت الخير وقدّرته، فطُوبى لمن خلقته للخير، وخلقت الخير له، وأجريت الخير على يديه؛ أنا الله لا إله إلاّ أنا، خلقت الشرّ وقدّرته، فويلٌ لمن خلقت الشرّ لهُ، وخلقته للشرّ،

= في شأن القبضة من التُّراب التي حصب بها وجوه المشركين يوم بدر حين خرج من العريش بعد دعائه وتضرُّعه واستكانته، فرماهم بها وقال: «شاهت الوجوه!»، ثم أمر أصحابه أن يصدُقوا الحملة إثرها، ففعلوا فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين، فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾، أي: هو الذي بلَّغ ذلك إليهم وكبتهم بها، لا أنت». اهـ. من «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (١٩٢/٣).
وأمّا الآية الأخرى؛ فإنها ابتدئت بقول الحكيم العليم ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾ «وهو شقُّ الأرض وإثارتها والبذر فيها ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾ أي: تنبتونه في الأرض ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: بل نحن الذين نقره قراره وننبته في الأرض». اهـ. من «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (١٩٢/٣).
فأنت ترى أن نفي القتل والرمي في الآية الأولى، ونفي الزرع في الآية الأخرى حقٌّ؛ إذ كلاهما ممّا يخرج عن طاقة البشر وقدرته، فليس هو يقيناً من فعله؛ وكذلك فإن في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾ إثباتاً لكون الحرث من فعلهم، فالحرثُ مثبتٌ لهم والزّرع منفيٌّ عنهم. وهذا واضحٌ ـ ولله الحمد ـ.

(١) أخرجه: أحمد (١٨٩٩٣)، والطيالسي (٥٣٥) ـ من طريقين: عن هشام: عن الحسن: عن أبي موسى؛ فذكره.
قلت: ورجاله ثقات؛ إلاّ أن قتادة مدلس وقد عنعن، وكذلك شيخه الحسن.

وأجريت الشرّ على يديه»(١).

وأمّا ما روي في حديث «دعاء الاستفتاح»: «والخير في يديك، والشرّ ليس إليك»، فإنّما معناه الإرشاد إلى استعمال الأدب في الثّناء على الله ـ عز وجل ـ، والمدح له بأن يضاف إليه محاسن الأمور، دون مساويها، ولم يقصد به إدخال شيء في قدرته، ونفي ضدّه عنه؛ فقد قال في هذا الحديث: «والمهدي من هديت»، وفي حديث آخر: «المعصوم من عصم الله»؛ وفي ذلك دلالة على أنّه يهدي قوماً دون قوم آخرين، ومن لم يهده ولم يعصمه فقد خذلهُ، ومن خذله لم يرُد بِه خيراً؛ قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [المائدة: ٤١]، وكان النّضر بنُ شُمَيل يقول: معناه: الشرّ لا يُتقرّب به إليك؛ [فقد روى عنه يحيى بن معين أنّه] قال: «والشرّ ليس إليك» ـ تفسيره: والشرّ لا يُتقرّب به إليك»(٢).

---

(١) إسناده منكر؛ أبو فروة الرهاوي اسمه: يزيد بن سنان، ضعيف صاحب مناكير؛ قال ابن عدي في الكامل (٢١٦٦): وعامة أحاديثه غير محفوظة، وهو ضعيف، وتركه بعضهم وله شاهد من حديث ابن عباس؛ أخرجه: الطبراني (١٢٧٩٧): عن أحمد بن سلم العميري: نا مالك بن يحيى بن عمرو بن مالك النكري: عن أبيه: عن جده عمرو بن مالك: عن أبي الجوزاء: عن ابن عباس ـ مرفوعاً: «إن الله قال: أنا خلقت الخير والشر؛ فطوبى لمن قدَّرت على يده الخيرَ، وويلٌ لمن قدَّرت على يده الشر».

قال شيخنا في «الضعيفة» (٢٤٢٩): وهذا إسناد ضعيف جدّاً، مسلسل بالضعفاء؛ ثم ذكر له أربع علل.

(٢) وقد أفرد العلاّمة ابن القيم في «شفاء العليل» (٣٩٧) باباً: في تنزيه القضاء الإلهي عن الشر»، لا بأس من إيراد بعضه، للأهميّته ونفاسته؛ يقول ـ رحمه الله، وبلّل بالمغفرة ثراه ـ: «قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦﴾ [آل عمران: ٢٦].

... فتناولت الآية ملكه وحده وتصرفه وعموم قدرته، وتضمنت أن هذه التصرفات كلها بيده، وأنها كلها خير؛ فسلبه الملك عمن يشاء وإذلاله من يشاء خير ـ وإن كان شراً بالنسبة إلى المسلوب الذّليل، فإن هذا التصرف دائرٌ بين العدل والفضل، والحكمة والمصلحة لا يخرج عن ذلك. وهذا كله خيرٌ يحمد عليه الرب، ويثنى عليه =

عن عمران بن حصين قال: «قيل: يا رسول الله، أعُلم أهل الجنّة من أهل النّار؟، قال: نعم؛ قيل: ففيم العاملون؟، قال: كلٌّ ميسرٌ لما خُلق له (وفي لفظ: اعملوا، فكلّ ميسرّ)».

وكما قال (كذا!)؛ قال أبو سليمان الخطّابي ـ رحمه الله ـ: فيما بلغني عنه في هذا الحديث: فأعلمهم ﷺ أنّ العلم السّابق في أمرهم واقع على معنى تدبير الرّبوبيّة، وأنّ ذلك لا يبطل تكليفهم العمل بحقّ العبودية، إلاّ أنّه أخبر أنّ كلاّ من الخلق ميسّر لما دبّر له في الغيب، فيسوقه العمل إلى ما كتب له من سعادة أو شقاوة، فيثاب ويعاقب على سبيل المجازاة؛ فمعنى العمل: التّعريض للثواب والعقاب، وبه وقعت الحجّة، وعليه دارت المعاملة.

وكان الشّيخ أبو الطّيب سهل بن محمّد بن سليمان ـ رحمه الله ـ؛ يقول: «أعمالنا أعلام الثواب والعقاب».

قلنا: وليس لقائل أن يقول: إذا خلق كسبه ويسره لعمل أهل النّار، ثمّ عاقبه عليه، كان ذلك منه ظلماً، كما ليس له أن يقول إذا مكّنه منه، وعلم أنّه لا يتأتّى منه غيره، ثمّ عاقبه، كان ذلك منه ظلماً؛ لأنّ الظّلم في كلام العرب: مجاوزة الحدّ، والّذي هو خالقنا وخالق أكسابنا لا آمر فوقه،

= به كما يحمد ويثنى عليه بتنزيهه عن الشر، وأنه ليس إليه، كما ثبت في «صحيح مسلم»: أن رسول الله ﷺ كان يثني على ربه بذلك في دعاء الاستفتاح في قوله: «لبيك وسعديك، والخير في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت».

فتبارك وتعالى على نسبة الشر إليه، بل كل ما نسب إليه فهو خير؛ والشر إنما صار شراً لانقطاع نسبته وإضافته إليه، فلو أضيف إليه لم يكن شراً ـ كما سيأتي بيانه، وهو سبحانه خالق الخير والشر، فالشر في بعض مخلوقاته لا في خلقه وفعله، وخلقه وفعله وقضاؤه وقدره خيرٌ كله؛ ولهذا تنزه سبحانه عن الظلم الذي حقيقته وضع الشيء في غير موضعه كما تقدم؛ فلا يضع الأشياء إلا في مواضعها اللائقة بها، وذلك خير كله، والشر وضع الشيء في غير محله، فإذا وضع في محله لم يكن شراً، فعلم أن الشر ليس إليه».

ولا حادّ دونه، وكلّ من سواه خلقه وملكه، فهو يفعل في ملكه ما يشاء؛ لا يُسألُ عمّا يفعل وهم يُسألون.

فعن أبي الأسود الدؤلي قال: «قال لي عمران بن حصين: أرأيت ما يعمل الناس اليوم، ويكدحون فيه؛ شيء قضي عليهم، ومضى عليهم من قدر سابق، أو فيما يستقبلونه مما أتاهم به نبيهم ﷺ وثبتت الحجة عليهم؟؛ فقلت: بل شيء قضي عليهم، ومضى عليهم؟؛ قال: فقال: أفلا يكون ظلماً؟، قال: ففزعت من ذلك فزعاً شديداً، وقلت: كل شيء خلق الله وملك يده، فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون!!؛ فقال لي: يرحمك الله، إني لم أرد بما سألتك عنه إلا لأحرز عقلك إن رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ؛ فقالا: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل النّاس اليوم ويكدحون فيه، أشيء قُضيَ عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق، أو فيما يستقبلونه به ممّا آتاهم به نبيّهم ﷺ وثبتت عليهم الحجّة؟؛ فقال: لا، بل شيء قُضي عليهم ومضى فيهم، ففيم نعمل إذاً؟؛ فقال: من كان الله خلقه لواحدة من المنزلتين يسّره لها، وتصديق ذلك من كتاب الله ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس: ٧ ـ ٨].

وعن ابن الدّيلمي أنه قال: «وقع في نفسي شيء من القدر، فأتيت أُبيّ بن كعب؛ فقلت: أبا المنذر وقع في نفسي شيء من القدر فخفت أن يكون فيه هلاك ديني ـ أو: أمري ـ، فقال: يا ابن أخي، إنّ الله ـ عز وجل ـ لو عذّب أهل سمواته وأهل أرضه لعذّبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم، ولو أنّ لك مثل أُحد ذهباً أنفقته في سبيل الله، ما قبله الله منك حتّى تؤمن بالقدر، وتعلم أنّ ما أصابك لم يكن ليُخطئك، وأنّ ما أخطأك لم يكن ليُصيبك، وإنّك إن متّ على غير هذا دخلت النّار، ولا عليك أن تأتي أخي عبدالله بن مسعود فتسأله؛ فأتيت عبد الله بن مسعود، فسألته؛ فقال مثل ذلك، وقال لي: لا عليك أن تأتي حذيفة بن اليمان فتسأله، فأتيته فسألته؛ فقال لي مثل ذلك، وقال: أئت زيد بن ثابت فسله، فأتيت زيد بن ثابت فسألته؛ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول؛ فذكر ذلك».

قال الأستاذ ـ رحمه الله ـ: ورواه أيضاً كثير بن مرّة: عن ابن الدّيلميّ، إلاّ أنّه زاد: سعد بن أبي وقّاص في أوّله ولم يذكر حذيفة.

وعن معمر قال: «بلغني أنّ عمرو بن العاص قال لأبي موسى الأشعريّ ـ رضي الله عنهما ـ: وددت أنّي أجد من أخاصم إليه ربّي؛ فقال أبو موسى: أنا، فقال عمرو: أيُقدّر عليّ شيئاً ويُعذّبُني عليه؟؛ فقال أبو موسى ـ رضي الله عنه ـ: نعم،، قال: لِمَ؟؛ قال: لأنّه لا يظلمُك، فقال: صدقتَ»[1].

وعن إياس بن معاوية قال: «لم أخاصم بعقلي كلّه من أهل الأهواء غير أصحاب القدر؛ قلت: أخبرني عن الظّلم في كلام العرب ما هو؟ قال: أن يأخذ الرّجل ما ليس له؛ قلتُ: فإنّ الله لهُ كلّ شيءٍ».

قال الشّيخ أبو بكر: الظّلم عند العرب هو فعل ما ليس للفاعل فعله[2]، وليس من شيء يفعله الله إلاّ وله فعله، ألا ترى أنّه فاعل بالأطفال، والمجانين والبهائم، ما شاء من أنواع البلاء؛ فقال: ﴿أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]، فأغرهم صغيرهم وكبيرهم، وقال: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾ [الذاريات: ٤١]، وغير ذلك من الآيات الواردة في تعذيب الصّغير، والكبير، والأطفال، والمجانين بأنواع البلاء.



(١) أخرجه: عبدالرزاق (٢٠٠٩٧)، وعنه أحمد في «السنة» (٧٦٣)؛ وفيه انقطاع ظاهرٌ بين معمر وعمرو بن العاص.

(٢) قلت: الصواب أن الظلم: هو وضع الشيء في غير موضعه ـ كما قرّره أئمة العلم كابن تيمية وابن القيم، وأصحاب المعاجم المعتمدة كالرازي وابن منظور ـ.

١٥

٢٥ ـ باب: القول في الهداية والإضلال

قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]، وقال: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]، وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]، وقال معناه في غير آية من كتابه كتبناها في كتاب «القدر».

فعن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ لعمّه: قُل لا إله إلاّ الله أشهد لك بها يوم القيامة»؛ فقال: لولا أن تعيّرني نساء قريش، لأقررت بها عينك، فأنزل الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾»؛ وعن النّواس بن سمعان الكلابي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من قلب إلاّ بين أصبعين من أصابع الرّحمٰن، إن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه»؛ وكان رسول الله ﷺ يقول: «اللهمّ ما مقلّب القلوب ثبّت قُلوبنا على دينك؛ والميزان بيد الرّحمٰن يرفع أقواماً ويخفض آخرين إلى يوم القيامة».

قال الشّيخ ـ رحمه الله ـ: وقوله: «بين أصبعين من أصابع الرّحمٰن»، أراد به كون القلب تحت قدرة الرّحمٰن[1]، وقد أثنى الله ـ عز وجل ـ ربّنا

(١) قلت: تأويل الأصبعين بالقدرة صرفٌ للنص عن ظاهره من غير قرينة ناهضة ـ بل بشبهة زائفة ـ، وهو نظير تأويل اليدين بها ـ وسبق أن رده المصنف ـ ثم هو خلاف سياق الخبر، إذ جعل القلب تحت أصبعين من أصابع الرحمٰن، ولا يُعقل تجزئة =

على الرّاسخين في العلم الّذين يقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨]، وفيه وفي السنَّة دلالة على، أنّ الله تعالى إن شاء هداهم وثبّتهم، وإن شاء أزاغ قُلُوبهُم وأضلّهم؛ نعوذ بالله من زيغ القلوب.

عن رفاعة ابن رافع الزّرقي قال: «لّما كان يوم أحد انكفأ المشركون؛ فقال رسول الله: استووا حتّى أثني علي ربّي، فصاروا خلفه صُفوفاً؛ فقال: «اللهمّ لك الحمد كلّه، اللهمّ لا مانع لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضلّ لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرّب لما باعدت، ولا مباعد لما قرّبت، اللهمّ أبسط علينا من بركاتك ورحمتك، وفضلك ورزقك، اللهمّ إنّي أسألك النّعيم يوم القيامة، والأمن يوم الخوف، اللهمّ إنّي عائذ بك من شرّ ما أعطيتنا، ومن شرّ ما منعتنا، اللهمّ حبب إلينا الإيمان، وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الرّاشدين، اللهمّ توفّنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصّالحين غير خزايا ولا مفتونين، اللهمّ قاتل الكفرة الّذين يكذبون رسلك ويصدّون عن سبيله، واجعل عليهم رجزك وعذابك إله الحقّ»».

وعن ابن عبّاس: «في قوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ [المائدة: ٧٤]، قال: قد دعا الله إلى توبته، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتّى يتوب الله عليه، قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التّوبة: ١١٨]، فبدء التّوبة من الله ـ عز وجل ـ»؛ وعنه أيضاً: «في قوله: ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤]، يقول: يحول بين المؤمن وبين الكفر، يحول بين الكافر وبين الإيمان، وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، قال: لو رُدّوا إلى الدّنيا لحيل بينهم وبين الهدى،

= القدرة إلى قدرتين من قدرات؛ فعلم أن المراد إنما هو حقيقة اللفظ، مع تفويض الكيف؛ فربنا ـ جل شأنه ـ لا يشبه أحداً من خلقه في ذاته ولا صفاته، ولا أفعاله.
وانظر «التوحيد» لابن خزيمة (ص٧٦، وما بعدها)، فقد ساق فيه ـ رحمه الله ـ جملة وافرة من الأخبار الدّالّة على إثبات الأصابع لله تعالى، وأنها من الصفات الثابتات لربّنا الكبير المتعال ـ كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه ـ.

كما حيل بينهم أوّل مرّة في الدّنيا، قوله: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]، فاستجاب الله لموسى ـ عليه السلام ـ، وحال بين فرعون وبين الإيمان حتّى أدركه الغرق، فلن ينفعه الإيمان وقوله: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ [الحجر: ٣٩]، يقول أضللتني، وقوله: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ [الصافات: ١٦١ ـ ١٦٣] يقول: لا تضلون أنتم ولا أضلّ منكم؛ إلاّ من قضيت له أنه صال الجحيم، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، قال: زيّن لكلّ أمّة عملهم الّذي يعملون حتّى يموتوا، وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا﴾، خلقنا ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [الأعراف: ٢٩ ـ ٣٠]، وقال: إنّ الله ـ عز وجل ـ بدأ خلق ابن آدم مؤمناً وكافراً، كما قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾، ثمّ يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمناً وكافراً، وقال ـ في قوله ـ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصّلت: ١٧]، يقول: بيّنا لهم، وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، يقول: أمر، وقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النّساء: ٧٨]، يقول: الحسنة والسّيّئة من عند الله، فأمّا الحسنة فأنعم الله بها عليك، وأمّا السّيّئة فابتلاك الله بها، قوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النّساء: ٧٩]، قال: الحسنة، ما فتح الله عليه يوم بدر، وما أصاب من الغنيمة والفتح، والسّيّئة ما أصاب يوم أحد؛ أن شُجّ في وجهه وكُسّرت رباعيّته».

وروّينا عن سعيد بن المسيّب أنّه قال: «في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، أي: ما خلقت من يعبدني إلاّ ليعبدني، وفي قوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، قال: وإن من شيء إلاّ يسبّح بحمده»(١).

(١) يقول الحافظ ابن كثير (٢٥١/٦) عند تفسيره لهذه الآية: «ومعنى الآية: أنه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن =

وقيل: وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾، أي: إلاّ لآمر أهل التّكليف منهم بعبادتي؛ وقيل: إلاّ لتكونوا لي عباداً، كقوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣﴾ [مريم: ٩٣].



= عصاه عذبه أشد العذاب». ويقول شيخه شيخ الإسلام أبو العباس بن تيمية: «الغاية التي يحب لهم ويرضى لهم، والتي أمروا بفعلها هي العبادة».

أقول: فدل ما نقلناه عن هذين الإمامين أن ظاهر الآية مرادٌ، أي: أن الخلق خلقوا حقيقة للعبادة وأن ذلك هو الغرض الذي من أجله وجدوا، وكونهم لم يقوموا بما أمروا به، لا ينفي كونه الأمر الذي طولبوا به، ولا يُقال: أن هذا الخير مخالف لمخبَره، وأن الواقع بخلافه؛ لما قدمنا أن المراد الكوني متحقق لا شك فيه، وإنما يتخلف المراد الشرعي.

فظهر بهذا مخالفة ما قررناه لما رواه المصنف عن ابن المسيب إذا ثبت السند بذلك إليه، فإني لم أقف عليه.

١٦

١٦ ـ باب: القول في وقوع أفعال العبد بمشيئة الله ـ عز وجل ـ



قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الإنسان: ٣٠]، فأخبر أنّا لا نشاء شيئاً إلاّ أن يكون الله قد شاء، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ﴾ [يونس: ٩٩]، وقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السّجدة: ١٣]، وقال: ﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١]، وقال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقال: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ﴾ [المائدة: ٤١]؛ وآيات القرآن في معنى هذه الآيات كثيرة، قد كتبناها في كتاب «الأسماء والصّفات»، وفي كتاب «القدر».

وعن حذيفة: عن النّبيّ ﷺ قال: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان؛ ولكن قولوا: ما شاء الله ثمّ شاء فلان».

قال الشّافعيّ ـ رضي الله عنه ـ: «المشيئة إرادة الله ـ عز وجل ـ؛ قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الإنسان: ٣٠]؛ فاعلم خلقه أنّ المشيئة له دون خلقه، وأنّ مشيئتهم لا تكون إلاّ أن يشاء».

وعن كرز بن علقمة الخزاعيّ قال: «سأل رجل النّبيّ ﷺ: هل للإسلام من منتهى؟؛ فقال رسول الله ﷺ: أيّما أهل بيت من العرب أو

العجم أراد الله بهم خيراً، أدخل عليهم الإسلام، فقال: ثمّ ماذا؟؛ قال: ثمّ تقع الفتن كأنّها الظلل». وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: أنّ النّبيّ ﷺ قال: «لا عليكم أن تعجبوا بأحد حتّى تنظروا بما يُختم له، فإنّ العامل يعمل من عمره أو بُرهة من دهره بعمل صالح، لو مات عليه دخل الجنّة، ثمّ يتحوّل فيعمل عملاً سيّئاً، وإنّ العبد ليعمل قبل موته زماناً من دهره بعمل سيّيء، لو مات عليه لدخل النّار، ثمّ يتحوّل فيعمل عملاً صالحاً، وإذا أراد الله بعبدٍ خيراً استعمله قبل موته؛ قالوا: يا رسول الله، وكيف يستعمله قبل موته؟؛ قال: يوفّقه لعملٍ صالح، ثمّ يقبضه عليه».

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تحاجّت الجنّة والنّار؛ فقالت النّار: أوثرت بالمتكبّرين والمتجبّرين، وقالت الجنّة: فما لي لا يدخلني إلاّ ضعفاء النّاس، وسقطهم، وغرتهم؛ قال الله ـ عز وجل ـ للجنّة: إنّما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء، وقال للنّار: إنّما أنت عذابي أعذّبُ بك من أشاء من عبادي؛ ولكلِّ واحدةٍ منكما ملؤُها». وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القويّ خير وأحبّ إلى الله من المؤمن الضّعيف؛ وفي كلّ خير فاحرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أنّي فعلت كذا وكذا؛ ولكنّ قل: قدّر الله وما شاء فعل، فإنّ (اللّو) يفتح عمل الشّيطان».

وعمن عمرو بن شعيب: عن أبيه: عن جدّه: «أنّ النّبيّ ﷺ قال لأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ: «يا أبا بكر؛ لو أراد الله أن لا يُعصى ما خلق إبليس»». وقال عمر بن عبدالعزيز: «لو أراد الله أن لا يُعصى لم يخلق إبليس [بيّن ذلك في آية من كتابه ـ عز وجل ـ وفصلها، علمها من علمها وجهلها من جهلها، ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ [الصافات: ١٦١ ـ ١٦٣].

وعن ابن عبّاس ـ رضي الله عنه ـ: «في قوله ـ عز وجل ـ: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: ٤١]، يقول: من يرد الله ضلالته فلن تغني عنه من الله شيئاً، وقوله: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ

عَنكُمْ﴾ ـ يعني: الكفّار الّذين لم يرد الله أن يطهّر قلوبهم فيقولوا: لا إله إلاّ الله، ثمّ قال: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، هم عباده المخلصون؛ الّذين قال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، فألزمهم شهادة أن لا إله إلاّ الله، ووحبّبها إليهم؛ وفي قوله: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦]، يقول: سلّطنا شرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب، وهو قوله ـ عز وجل ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣]، وفي قوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [يس: ٦٦]، يقول: أضللناهم عن الهدى، فكيف يهتدون؟؛ وقال: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ﴾، وفي قوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، يقول: من شاء الله له الإيمان آمن، ومن شاء له الكفر كفر؛ وهو قوله ـ عز وجل ـ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، وفي قوله ـ عز وجل ـ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يونس: ٣٩]، ثمّ قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ [الأنعام: ١٠٧]، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، يقول الله: لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين».

وعنه أيضاً: «قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ [يس: ٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [الكهف: ٤٨]؛ ونحو هذا من القرآن ـ، قال: إنّ رسول الله ﷺ كان يحرص على أن يؤمن جميع النّاس ويبايعوه على الهدى، فأخبر الله أنّه لا يؤمن إلاّ من سبق له من الله السّعادة في الذّكر الأوّل، ولا يضلّ إلاّ من سبق له من الله الشّقاوة في الذّكر الأوّل؛ ثمّ قال لنبيّه ﷺ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾﴾ [الشّعراء: ٣ ـ ٤].

قال الشّيخ ـ رحمه الله ـ: وقد روّينا في حديث زيد بن ثابت، وفي حديث أبي الدّرداء وغيرها: أنّ النّبيّ ﷺ قال: «ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن».

وهذا كلام أخذته الصّحابة عن رسول الله ﷺ، وأخذه التّابعون عنهم ولم يزل يأخذه الخلف عن السّلف من غير نكير، وصار ذلك إجماعاً منهم على ذلك؛ وفي كتاب الله ـ عز وجل ـ: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩]، وقال لنبيّه ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، فنفى أن يملك العبد كسباً ينفعه أو يضرّه إلاّ بمشيئة الله وقدرته.

وفي معنى ذلك قال الشّافعيّ ـ رضي الله عنه ـ فيما رواه الرّبيع بن سليمان قال: سئل الشّافعيّ ـ رضي الله عنه ـ عن القدر؛ فأنشأ يقول:

ما شئت كان وإن لم أشأ ... وما شئت إن لم تشأ لم يكن
خلقت العباد على ما علمت ... ففي العلم يجري الفتى والمسنّ
على ذا مننت وهذا خذلت ... وهذا أعنت وذا لم تعن
فمنهم شقيّ ومنهم سعيد ... ومنهم قبيح ومنهم حسن

وعلى نحو الشّافعيّ ـ رضي الله عنه ـ في إثبات القدر لله، ووقُوع الأعمال بمشيئة الله درج أعلام الصّحابة والتّابعين؛ وإلى مثل ذلك ذهب علماء الأمصار: الأوزاعي، ومالك بن أنس، وسفيان الثّوري، وسفيان بن عيينة، واللّيث بن سعد، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن إبراهيم، وغيرهم ـ رضي الله عنهم ـ.

عن أبي عصمة قال: «سألت أبا حنيفة، من أهل الجماعة؟؛ قال: من فضّل أبا بكر وعمر، وأحبّ عليًا وعثمان، وآمن بالقدر خيره وشرّه من الله، ومسح على الخفّين ولم يُكفر مؤمناً بذنب ولم يتكلّم في الله بشيء».



١٧

١٧ ـ باب: القول في الأطفال أنهم يولدون على فطرة الإسلام



عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «كلّ مولود يولد على الفطرة فأبواه يُهوّدانه، ويُنصّرانه، كما تناتج الإبل من بهيمة جمعاء هل تحسّ من جدعاء؛ قالوا: يا رسول الله، أفرأيت من يموت وهو صغير؟، قال: الله أعلم بما كانوا عاملين».

آخر هذا الخبر يدلّ على أنّ المراد بالأوّل: بيان حكمه في الدّنيا.

كما قال الشّافعي ـ رضي الله عنه ـ ـ في رواية أبي عبدالرّحمٰن البغدادي ـ، عند قول النّبيّ ﷺ: «كلّ مولود يولد على الفطرة»: هي الفطرة الّتي فطر الله عليها الخلق، فجعلهم رسول الله ﷺ ما لم يُفصحوا بالقول، فيختاروا أحد القولين ـ الإيمان أو الكفر ـ، لا حكم لهم في أنفسهم، إنّما الحكم لهم بآبائهم، فمن كان آباؤهم يوم يولدون فهم بحالهم إمّا مؤمن فعلى إيمانه، وإمّا كافر فعلى كفره.

قال الشّيخ ـ رحمه الله ـ: الّذي يُؤكّد هذا ما رواه أبو هريرة: عن النّبيّ ﷺ ـ في هذا الحديث ـ: «فإن كانا مسلمين فمسلم»؛ فأمّا حكمهما في الآخرة، فبيانه في آخر الخبر، وهو قوله: «الله أعلم بما كانوا عاملين»، فحكمهم في الدّنيا في النّكاح والمواريث، وسائر أحكام الدّنيا؛ حكم آبائهم حتّى يُعربوا عن أنفسهم بأحدهما، وحكمهم في الآخرة موكولٌ إلى علم الله ـ عز وجل ـ فيهم، وعلى مثل هذا يدلّ حديث عائشة

ـ رضي الله عنها ـ: عن النّبيّ ﷺ ـ في أطفال المسلمين ـ.

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أمّ المؤمنين أنّها قالت: «أُتي النّبيّ ﷺ بصبيّ من الأنصار ليُصلّي عليه، قال: فقلت: يا رسول الله، عُصفور من عصافير الجنّة لم يعمل سُوءاً ولم يَدْرِهِ؛ فقال: أو غير ذلك يا عائشة، إنّ الله خلق الجنّة وخلق لها أهلاً، خلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النّار وخلق لها أهلاً، خلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم».

فهذا الحديث يمنع من قطع القول بكونهم في الجنّة؛ وحديث أُبيّ بن كعب: عن النّبيّ ﷺ ـ في الغلام الّذي قتله الخضر ـ: «أنّه طبع كافراً»، يدلّ على ذلك، فقد كان أبواه مُؤمنَين.

وقد روّينا في أواخر كتاب «القدر» أخباراً في أنّ أولاد المشركين مع آبائهم في النّار، وأولاد المسلمين مع آبائهم في الجنّة، وأخباراً غير قويّة في أولاد المشركين في أنّهم خُدّام أهل الجنّة؛ وما صحّ من ذلك يدلّ على أنّ أمرهم موكول إلى الله تعالى، وإلى ما عَلم الله من كلّ واحد منهم، وكُتب له من السّعادة أو الشّقاوة[1]؛ وقد قيل في أولاد المسلمين أنّ الله تبارك وتعالى أكرم هذه الأمّة، بأن ألحق بهم ذُريّاتهم في الجنّة.

عن ابن عبّاس: «في قوله ـ عز وجل ـ: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١]، قال: الله ـ عز وجل ـ يرفع ذريّة المؤمن معه في الجنّة وإن كانوا دُونه في العمل؛ ثمّ قرأ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ [الطور: ٢١]،

---

(١) استقر إجماع المسلمين على أنّ أولاد المؤمنين في جنات النعيم، واختلف أهل العلم في مصير أولاد المشركين؛ هل هم من الناجين من أهوال النيران، أو ممن يساكنون المؤمنين في الجنان، أو هم من طوائف الامتحان؛ والذي رسا عليه قارب التحقيق: أن أولاد المشركين في الجنة ـ فضلاً من الله ومنّة ـ، وهذا المذهب اختيار الحذّاق من العلماء كالنووي، والعسقلاني، والألباني.
وقد أفردنا لهذه المسألة مصنفاً استوفينا فيه الأقوال، ومآخذ أصحابها في الاستدلال؛ وسميناه «بيان نجاة الولدان من أهوال النيران»؛ يسر الله إتمامه ونشره ـ بمنه وكرمه ـ.

يقول: وما نقصناهم». وعنه أيضاً: «﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم: ٣٩]، فأنزل الله تعالى بعد هذا ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ - يعني: بإيمان، فأدخل الله - عز وجل - الأبناء بصلاح الآباء الجنّة».

قال الشّيخ - رحمه الله -: فيحتمل أن يكون خبر عائشة - رضي الله عنها - في ولد الأنصاري قبل نزول الآية، فجرى رسول الله ﷺ على الأصل المعلوم في جريان القلم بسعادة كلّ نسمة أو شقاوتها، فمنع من القطع بكونه في الجنّة؛ ثمّ أكرم الله أمتّه بإلحاق ذريّة المؤمن به، وإن لم يعملوا عمله، فجاءت أخبارٌ بدُخلوهم الجنّة، فعلمنا بها بجريان القلم بسعادتهم.

فمنها: حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -: عن النّبيّ ﷺ: «صغارهم دعاميص الجنّة». وعن أبي هريرة - رضي الله عنه -: عن النّبيّ ﷺ: «أولاد المسلمين في جبل في الجنّة يكفلهم إبراهيم وسارة - عليهما السّلام -؛ فإذا كان يوم القيامة دُفعوا إلى آبائهم». وفي حديث معاوية بن قرة: عن أبيه: عن النّبيّ ﷺ - في قصّة الرّجل الّذي هلك ابن له -؛ قال: «. . . ؛ فعزّاه النّبيّ ﷺ؛ فقال: «يا فلان، أيُما أحبّ إليك، أن تُمتّع به عمرك أو لا تأتي غداً باباً من أبواب الجنّة إلاّ وجدته قد سبقك إليه يفتحه إليك؟»، فقال: يا نبيّ الله، بل يسبقني إلى أبواب الجنّة أحبّ إليّ؛ قال: «فذاك لك»، فقام رجل من الأنصار، فقال: يا نبيّ الله، جعلني الله فداك، أهذا لهذا خاصّةً؟، أو من هلك له طفل من المسلمين كان له ذلك؟؛ قال: «من هلك له طفلٌ من المسلمين كان له ذلك»».

وأسانيد هذه الأحاديث مع غيرها ذكرناها في «باب الصّبر» من كتاب «الجامع»، وكلّ ذلك فيمن وافى أبواه يوم القيامة مؤمنين أو أحدهما، فيلحق بالمؤمن من ذرّيّته كما جاء به الكتاب، ويستفتح له كما جاءت به السنّة، ويحكم لها بأنّها كانت ممّن جرى له القلم بالسّعادة.

وقد ذكر الشّافعيّ - رحمه الله - في كتاب «المناسك» ما دلّ على صحّة هذه الطّريقة في أولاد المسلمين؛ فقال: إنّ الله - عز وجل - بفضل

نعمته، أثاب النّاس على الأعمال أضعافها، ومنَّ على المؤمنين بأن ألحق بهم ذرّياتهم، ووفّر عليهم أعمالهم، فقال: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١]؛ فلمّا منَّ على الذراري بإدخالهم جنّته بلا عمل، كان أن منّ عليهم بأن يكتب لهم عمل البرّ في الحجّ وإن لم يجب عليهم في ذلك المعنى؛ قال: وقد جاءت الأحاديث في أطفال المسلمين أنّهم يدخلون الجنّة.

قال الإمام ـ رحمه الله ـ: وهذه طريقة حسنة في جملة المؤمنين الّذين يوافون يوم القيامة مؤمنين، وإلحاق ذريتهم بهم ـ كما ورد به الكتاب ـ، وجاءت به الأحاديث؛ إلاّ أنّ القطع به في واحد من المؤمنين بعينه غير ممكن لما يخشى من تغيّر حاله في العاقبة، ورُجوعه إلى ما كتب له من الشّقاوة، فكذلك قطع القول به في واحد من المولودين غير ممكن، لعدم علمنا بما يؤول إليه حال متبوعه، وبما جرى له به القلم في الأزل من السّعادة أو الشّقاوة، وكان إنكار النّبيّ ﷺ القطع به في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ، وعن أبيها لهذا المعنى.

فنقول بما ورد به الكتاب والسنّة في جملة المؤمنين وذرّياتهم، ولا نقطع القول به في آحادهم لما ذكرنا، وفي هذا جمع بين جميع ما ورد في هذا الباب؛ والله أعلم.

ومن قال بالطّريقة الأولى في التّوقف في أمرهم، جعل امتحانهم وامتحان أولاد المشركين في الآخرة محتجاً بحديث الأسود بن سريع: عن النّبيّ ﷺ قال: «أربعة يوم القيامة ـ يعني: يُدلون على الله بحجّة ـ: رجل أصمّ لا يسمع، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في فترة؛ فأمّا الأصمّ فيقول: ربّ لقد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً؛ وأمّا الأحمق فيقول: ربّ لقد جاء الإسلام والصّبيان يخذفونني بالبعر، وأمّا الهرم فيقول: ربّ لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً، وأمّا الذي مات في الفترة فيقول: يا ربّ ما أتاني الرّسول، فيأخذ مواثيقهم ليُطعنَهُ، ويُرسل إليهم أن ادخلوا النّار؛ فوالّذي نفس محمّد بيده لو دخلوها ما كانت عليهم إلاّ برداً وسلاماً».

عن أنس: عن النّبيّ ﷺ قال: «يُؤتى يوم القيامة بمن مات على الفترة، والشّيخ الفاني، والمعتوه، والصّغير الّذي لا يعقل فيتكلّمون بحجّتهم وعذرهم، فيأتي عنقٌ من النّار فيقول لهم ربّهم: إنّي كنت أرسل إلى النّاس رسلاً من أنفسهم، وإنّي رسول نفسي إليك؛ ادخلوا هذه النّار، فأمّا من كتب عليه الشّقاوة فيقولون: ربّنا، منها فررنا، وأمّا أهل السّعادة فينطلقون حتّى يدخلوها؛ فيدخل هؤلاء الجنّة ويدخل هؤلاء النّار، فيقول للّذين كانوا لم يُطيعوه: قد أمرتكم أن تدخلوا النّار فعصيتموني، وقد عاينتموني، فأنتم لرسلي كنتم أشد تكذيباً».

قال الشّيخ ـ رحمه الله ـ:

وهكذا ينبغي أن يقول في الطّريقة الثّانية في أولاد المسلمين، فمن لم يوافي أحد أبويه يوم القيامة مؤمناً، يجعل امتحانه في الآخرة حيث لم يجد متبعاً يلحق به في الجنّة.



١٨

١٨ ـ باب: القول في الآجال والأرزاق

قال الله ـ جلّ ثناؤه ـ: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، والأجل: عبارة عن الوقت الّذي ينقطع فيه فعل الحياة، كما أنّ أجل الدين عبارة عن الوقت الّذي يحلّ فيه الدين والمقتول والميّت أجلهما عند خروج روحهما، وقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [نوح: ٤] ـ يعني، من الشرك ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [نوح: ٤] يعني: والله أعلم: بغير عقوبة، ﴿إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٤]، قال: الموت؛ وقال يحيى بن زياد الفرّاء: إنّما أراد مسمّى عندكم ومثله، قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الرّوم: ٢٧] ـ يعني: وهو أهون عليه عندكم في معرفتكم.

وقال في الرّزق: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، وقد علمنا أنّ جميع المكلّفين ليسوا بآكلين حلالاً، فلو كان لم يرزقهم الحرام، كان لم يرزق أكثر الأنام لأكلهم الحرام، وفي ذلك دلالة على أنّ جميع ما يغذّى به الحيوان من حلال وحرام، وما يأكل الأطفال من لبن لا يملكونه وغيره ممّا يأكله البهائم، وإن لم يكن لها ملك.

عن حذيفة بن أسيد: يبلغ به النّبيّ ﷺ قال: «يوكل الموكل على النّطفة بعدما استقرّت في الرّحم بأربعين أو خمس وأربعين ليلة؛ فيقول: أي ربّ، أشقيٌّ هو أم سعيدٌ؟، فيقول الله ـ عز وجل ـ: فيكتبان؛ ثمّ يقول: أي ربّ، أذكرٌ أم أنثى؟، فيقول الله ـ عز وجل ـ: فيكتبان، ويكتب عمله وأجله ورزقه وعمره؛ ثمّ ترفع الصّحف فلا يزاد فيها ولا ينقص».

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله ـ تعالى ذكره ـ وكّل بالرّحم ملكاً؛ فيقول: يا ربّ علقة، يا ربّ مضغة، فإذا أراد الله؛ خلقه قال: ربّ أذكرٌ، أم أُنثى، أم سعيد؟، فما الرّزق؟، فما الأجل؟؛ فيكتب ذلك في بطن أمّه».

عن عبدالله ـ هو ابن مسعود ـ قال: «قالت أمّ حبيبة: اللهمّ أمتعني بزوجي رسول الله ﷺ، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية؛ فقال لها النّبيّ ﷺ: «قد دعوت الله لآجال معلومة، وأرزاق مقسومة، وآثار مبلوغة، لا يعجل شيء منها قبل حلّها ولا يؤخر شيء منها بعد حلّها، فلو دعوت الله أن يُعيذك أو يُعافيك من عذاب في النّار، أو عذاب في القبر، لكان خيراً أو لكان أفضل».

عن ابن مسعود: أنّ رسول الله ﷺ قال: «لا يستبطأنّ أحدٌ منكم رزقه فإنّ جبريل ـ عليه السلام ـ ألقى في روعي أنّ أحداً منكم لن يخرج من الدّنيا حتّى يستكمل رزقه، فاتّقوا الله أيّها النّاس وأجملوا في الطّلب».



١٩

١٩ ـ باب: القول في الإيمان



قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤]، فأخبر أنّ المؤمنين هم الّذي جمعوا هذه الأعمال الّتي بعضها يقع في القلب، وبعضها باللّسان، وبعضها بهما وسائر البدن، وبعضها بهما أو بأحدهما وبالمال، وفيما ذكر الله في هذه الأعمال تنبيه على ما لم يذكره، وأخبر بزيادة إيمانهم بتلاوة آياته عليهم.

وفي كلّ ذلك دلالة على أنّ هذه الأعمال وما نبّه بها عليه من جوامع الإيمان، وأنّ الإيمان يزيد وينقص، وإذا قبل الزّيادة قبل النّقصان؛ وبهذه الآية وما في معناها من الكتاب والسنّة ذهب أكثر أصحاب الحديث إلى أنّ اسم الإيمان يجمع الطّاعات فرضَها ونفلَها؛ وأنّها على ثلاثة أقسام:

ـ فقِسمٌ يكفر بتركه، وهو اعتقاد ما يجب اعتقاده، والإقرار بما اعتقده.

ـ وقسم يفسق بتركه، أو يعصي، ولا يكفر به إذا لم يجحده، وهو مفروض الطّاعات كالصّلاة، والزّكاة، والصيّام، والحجّ واجتناب المحارم.

ـ وقسم يكون بتركه مخطئاً للأفضل غير فاسق ولا كافر، وهو ما يكون من العبادات تطوّعاً.

واختلفوا في كيف تسمية جميع ذلك إيماناً؛ منهم من قال: جميع

ذلك إيمان بالله تبارك وتعالى وبرسوله، لأنّ الإيمان في اللّغة هو: «التّصديق»، وكلّ طاعة تصديق، لأنّ أحداً لا يطيع من لا يثبت أمره.

ومنهم من قال: الاعتقاد دون الإقرار إيمان بالله ورسوله ﷺ، وبسائر الطّاعات إيمان بالله ورسوله، فيكون التّصديق بالله وإثباته والاعتراف بوجوده، والتّصديق له قبول شرائعه واتّباع فرائضه على أنّها صواب وحكمه عدلٌ، وكذلك التّصديق بالنّبيّ ﷺ والتّصديق له، وقد ذكرنا بيانه ودليله في كتاب «الإيمان»، وفي كتاب «الجامع»، ونحن نذكر ههنا طرفاً من ذلك.

عن ابن عبّاس قال: «قيل للنّبيّ ﷺ: أرأيت الّذين ماتوا وهم يصلّون إلى بيت المقدس؟؛ فأنزل الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]».

ورواه ـ أيضاً ـ البراء بن عازب أتمّ منه، وفي هذا دلالة على أنّه سمّى صلاتهم إلى بيت المقدس إيماناً، فإذا ثبت ذلك في الصّلاة، ثبت ذلك في سائر الطّاعات، وقد سمّى رسول الله ﷺ الطّهور إيماناً؛ فقال ـ في حديث أبي مالك الأشعري: «الطّهور شطر الإيمان».

وسمّى في حديث «وفد بن قيس» كلمتي الشّهادة، وإقامة الصّلاة، وإيتاء الزّكاة، وحجّ البيت، وإعطاء الخُمُس إيماناً.

عن ابن عبّاس قال: «قدم وفد عبد قيس على النّبيّ ﷺ؛ فقال: «مرحباً بالوفد غير الخزايا»، قالوا: يا رسول الله، إنّ بيننا وبينك كفار مضر، وإنّا لا نصل إليك إلاّ في شهر الحرام، فمرنا بأمر نعمل به وندعوا إليه من وراءنا؛ قال: آمركم بالإيمان، تدرون ما الإيمان؟؛ شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله، وأن تقيموا الصّلاة، وتُؤتوا الزّكاة، وتصوموا رمضان، وتحجّوا البيت؛ قال: وأحسبه قال: وتُعطوا الخُمُس من الغنائم».

وسمّى شعب الإيمان كلّها إيماناً في حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ [الّذي رواه عن] رسول الله ﷺ: «الإيمان بضعٌ وستّون ـ أو: بضعٌ وسبعون ـ شعبة؛ أفضلها شهادة أن لا إله إلاّ الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطّريق؛ والحياء شعبة من الإيمان».

عن أبي سعيد الخدري: عن النبيّ ﷺ: «أنه سئل أيّ المؤمنين أكمل إيماناً؛ قال: رجلٌ يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله، ورجلٌ يعبد الله في شعب من الشّعاب قد كفى النّاس شرّه». عن أبي هريرة: عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلُقاً».

قال الشّيخ ـ رحمه الله ـ: وقوله: «أكمل المؤمنين إيماناً»، أراد به ـ والله أعلم ـ من أكمل المؤمنين إيماناً جمعاً بينه وبين سائر ما ورد في هذا المعنى، وهذا لفظ سائغ في كلام العرب؛ يقولون: أكمل وأفضل، ومُرادهم به من أكمل، ومن أفضل.

عن أبي أمامة: عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «من أحبّ لله، وأبغض لله؛ وأعطى لله، ومنع لله؛ فقد استكمل الإيمان»؛ ورواه معاذ بن أنس الجهنيّ: أنّ رسول الله ﷺ قال؛ فذكره، وزاد: «وأنكح لله؛ فقد استكمل الإيمان».

وعن أبي سعيد الخُدْريّ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكراً، فإن استطاع أن يُغيّره بيده فليفعل، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان».

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ قال: «يخرج من النّار من قال: لا إله إلاّ الله، وفي قلبه من الإيمان ما يزن برّة». ورواه أبو سعيد الخُدريّ: عن النّبيّ ﷺ فقال: «من كان في قلبه مثقال حبّة من خردل من الإيمان».

والأحاديث في تسمية شرائع الإسلام إيماناً، وأنّ الإيمان والإسلام عبارتان عن دين واحد إذا كان الإسلام حقيقة، ولم يكن بمعنى الإستسلام، وأنّ الإيمان يَزيدُ وينقُص سوى ما ذكرنا كثيرة، وفيما ذكرنا هٰهنا كفاية.

وقد رُوّينا في ذلك عن الخُلفاء الرّاشدين: أبي بكر، وعثمان، وعليّ؛ ثمّ عن: عبدالله بن رواحة، ومعاذ بن جبل، وعبدالله بن مسعود، وعمّار بن ياسر، وأبي الدّرداء، وابن عبّاس، وأبي هريرة، وعثمان بن حنيف، وعمير بن حبيب، وجندب، وعقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ.

ومن التّابعين وأتباعهم، عن جماعة يكثر تِعدادهم؛ وهو قول فقهاء الأمصار ـ رحمهم الله ـ: مالك بن أنس، والأوزاعي، وسفيان بن سعيد الثّوري، وسفيان بن عيينة، وحمّاد بن زيد، وحمّاد بن سلمة، ومحمّد بن إدريس الشّافعيّ، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن إبراهيم الحنظليّ؛ وغيرهم من أهل الحديث، ورُوِّيناه عن قتيبة بن سعيد: عن أبي يوسف القاضي؛ وكلّ ذلك مذكورٌ في كتاب «الإيمان».

عن عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان قولٌ باللّسان، عمل بالأركان، معرفة بالقلب»[1].

---

(١) موضوع؛ أخرجه: ابن ماجه (٦٥)، وابن السماك في «حديثه» (٢/٨٨/٢)، والعقيلي في «الضعفاء» (٤٠٦)، والدولابي في «الكنى» (٢/١١)، وابن جرير الطبري في «التهذيب» (٢/١٩٦/١٥٢٤و ١٥٢٥)، والآجري في «الشريعة» (ص١٣٠ ـ ١٣١)، والبيهقي في «الشعب» (١/١٢)، وأبو بكر الخبازي الطبري في «الأمالي» (٢/١٠)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (١/١٣٨)، والخطيب (١٠/٣٤٣ ـ ٣٤٤و١١/٤٧)، ومن طريقه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/١٢٨)، وابن عبدالهادي في «جزء أحاديث وحكايات» (٢/٣٢٩)؛ كلهم من طريق: أبي الصلت الهروي: حدثنا علي بن موسى الرِّضا: حدثنا أبي موسى بن جعفر: حدثنا أبي جعفر بن محمد: عن أبيه محمد بن علي: عن أبيه علي بن الحسين: عن أبيه الحسين بن علي: عن أبيه علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ؛ فذكره.

ـ قال العقيلي: موسى بن جعفر حديثه غير محفوظ، ولا يُتابع عليه إلا من جهة تقاربه، والحمل فيه على أبي الصلت الهروي.

قال شيخنا الألباني في «الضعيفة» (٢٢٧١): «قلت: اسمه عبدالسلام بن صالح، قال الذهبي في «الضعفاء»: اتهمه بالكذب غير واحد، قال أبو زرعة: لم يكن بثقة، وقال ابن عدي: متهم، وقال غيره: رافضي. وقال الدارقطني: وهو متهم بوضعه ـ يعني: هذا الحديث ـ، لم يحدث به إلا من سرقه منه، فهو الابتداء في هذا الحديث؛ . . . ثم ساق له الشيخ متابعات؛ وختم البحث بقوله: وبالجملة: فهذه المتابعات كلُّها واهيةٌ جدًّا، فلا يزداد الحديث بها إلا وهناً، لا سيما مع جزم الإمام الدارقطني أنهم سرقوه من المتهم بوضعه، ألا وهو الهروي.

وزعمُ بعض المعاصرين من المشتغلين بالحديث أن الحديث صحيح، وأن عبدالسلام بن صالح ثقة، وإنما تكلم فيه لتشيعه؛ مردودٌ بأن الكلام فيه إنما هو لكونه روى أحاديث أنكرت عليه هذا أحدها، وقد صرّح بذلك الخطيب البغدادي، فقال: =

عن الشّافعيّ قال: «الإيمان قولٌ وعمل، يزيد وينقص».

قال الشيّخ ـ رحمه الله ـ: وإنّما يرجع الاستثناء في الإيمان إلى كمال الإيمان وإلى إشفاقهم على إيمانهم في ثاني الحال، وبأنّ تغيير حال إنسان في الإيمان لم يمنع كونه موصُوفاً به في الحال قبل التّغيير؛ والله أعلم.

عن تمام بن نجيح قال: «سأل رجل الحسن البصري عن الإيمان؛ فقال: الإيمان إيمانان، فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله، وملائكته، وكُتبه، ورُسله، والجنّة والنّار، والبَعث والحساب فأنا مؤمن؛ وإن كنت تسألني عن قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤]؛ فوالله، ما أدري أنا منهم أم لا».

فلم يتوقّف الحسن في أصل إيمانه في الحال، وإنّما توقف في كماله، الّذي وعد الله ـ عز وجل ـ لأهل الجنّة؛ بقوله: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤].

وقال الثّوري: «قد خالفنا المرجئة في ثلاث؛ نحن نقول: الإيمان قولٌ وعمل، وهم يقولون: قولٌ بلا عمل، ونحن نقول: يزيد وينقص، وهم يقولون: لا يزيد ولا ينقص، ونحن نقول: أهل القبلة عندنا مؤمنون، وأمّا عند الله، فالله أعلم بهم؛ وهم يقولون: نحن عند الله مؤمنون».

فسفيان الثّوري ـ رحمه الله ـ أخبر عن أهل السنّة أنّهم لا يقطعون بكونهم مؤمنين عند الله ـ يعني: في ثاني الحال، لأنّ الله يعلم الغيب، فهو عالم بما يصير إليه حال العبد ثمّ يموت عليه، ونحن لا نعلمه فنكل الأمر

= قلت: وقد ضعف جماعة من الأئمة أبا الصلت، وتكلموا فيه بغير هذا الحديث. ولذلك لم يَبعد ابن الجوزي عن الصواب حين حكم على الحديث بالوضع، وقد أقره عليه السخاوي في «المقاصد» (ص١٤٠)، وتبعه ابن القيم في «تهذيب السنن» (٥٩/٨)».

فيما لا نعلمه إلى عالمه خوفاً من سُوء العاقبة، ونستثني على هذا المعنى، ونرجو من الله تعالى أن يُثَبِّتنا بالقول الثّابت في الحياة الدّنيا وفي الآخرة.

والأحاديث الّتي وردت في جريان القلم بما هو كائن، ورُجُوع كلّ إنسان إلى ما كُتب له من الشّقاوة والسّعادة، فموته عليه مانعة من قطع القول بما يكون في العاقبة حاملة على الاستثناء، وعلى الخوف من تبدّل الحالة؛ والله يعصمنا من ذلك بفضله وسعة رحمته.

عن عائشة: أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ الرّجل ليعمل بعمل أهل الجنّة، وإنّه لمكتوبٌ في الكتاب أنه من أهل النّار، فإذا كان عند موته تحوّل فعمل بعمل أهل النّار فمات ودخل النّار؛ وإنّ الرّجل ليعمل بعمل أهل النّار، وإنّه لمكتوبٌ في الكتاب أنّه من أهل الجنّة، فإذا كان عند موته تحوّل فعمل بعمل أهل الجنّة فمات ودخل الجنّة».

وفي حديث سهل بن سعد السّاعدي: عن النّبيّ ﷺ: «إنّما الأعمال بالخواتيم»؛ وفي حديث أسامة بن زيد: عن النّبيّ ﷺ - في صفة الجنّة -؛ قال: «. . . ؛ فنحن المشمّرون لها يا رسول الله؟، قال: قُولُوا: إن شاء الله»[1].



(١) أخرجه: البخاري في «الكبير» (٢/٢/٣٣٦)، وابن ماجه (٤٣٣٢)، وابن حبان (٢٦٢٠)، والطبراني في «الكبير» (٣٨٨)، وأبو بكر بن أبي داود في «البعث» (٧١)، والمصنف في «البعث» (٣٩١)، والبغوي في «شرح السنة» (١٥/٢٢٣) - كلهم من طريق: محمد بن مهاجر: عن الضحاك المعافري: عن سليمان بن موسى: عن كريب: عن أسامة بن زيد قال: «قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -: «ألا هل مشمر للجنة؟ فإن الجنة لا خطر لها، هي - ورب الكعبة - نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام في أبد، في دار سليمة، وفاكهة، وخضرة، وحِبرة، ونعمة، في محِلّة عالية بهيّة»؛ قالوا: نعم، يا رسول الله، نحن المشمّرون لها، قال: «قالوا: إن شاء الله»؛ قال القوم: إن شاء الله».

قلت: وإسناده ضعيفٌ؛ الضحاك المعافري نكرة، وسليمان بن موسى الأموي مختلفٌ فيه.

٢٠

٢٠ - باب: القول في مُرتكبي الكبائر

قال الله - عز وجل -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النّساء: ١١٦] - يعني: ما دون الشّرك لمن يشاء بلا عقوبة، وقد يُعاقب بعضهم على ما اقترفه من الذّنوب، ثمّ يعفو عنه ويدخل الجنّة بإيمانه؛ لقوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠].

عن عبادة بن الصّامت - رضي الله عنه - قال: «كنّا مع رسول الله ﷺ في مجلس؛ فقال: بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، وقرأ عليهم الآية؛ وقال: فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعُوقبَ بهِ فهُو كَفّارةٌ لهُ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله عليه، فهو إلى الله إن شاء غفر له وإن شاء عذّبه». وعن ابن محيرز: «أنّ رجلاً من بني كنانة، يدعى «المخدجيّ»: سمع رجلاً بالشّام يدعى «أبا محمّد» يقول: إنّ الوتر واجب؛ قال المخدجيّ: فرحت إلى عبادة بن الصّامت، فاعترضت له وهو رايح إلى المسجد، فأخبرته بالّذي قال أبو محمّد؛ فقال عبادة - رضي الله عنه -: كذب أبو محمّد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: صلوات كتبهنّ الله على العباد، فمن جاء بها لم يضيّع منها شيئاً استخفافاً بحقّهنّ، كان له عند الله عهد أن يدخله الجنّة». وعن جابر قال: «جاء رجل إلى النّبيّ ﷺ؛ فقال: يا رسول الله، ما الموجبتان؟؛ قال: من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنّة، ومن مات يشرك بالله شيئاً دخل النّار».

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من أصل الإيمان: الكفّ عمّن قال لا إله إلاّ الله لا نكفّره بذنب، ولا نخرجه من الإسلام بعمل، والجهاد ماض منذ بعثني الله - عز وجل - إلى أن يقاتل آخر أمّتي الدّجّال لا يبطله جور جائر، ولا عدل عادل، والإيمان بالأقدار»[1].

قال الأستاذ - رحمه الله -: ولهذه الأحاديث شواهد ذكرناها في كتاب «الإيمان»، وفي كتاب «البعث والنّشور»؛ وعلى هذا درج من مضى من الصّحابة والتّابعين وأتباعهم من أهل السنّة.

وقال الشّافعيّ - رحمه الله - في كتاب وصيّته: وجعل الآخرة دار القرار، وجزاء بما عمل في الدّنيا من خير أو شرّ، إن لم يعفه جلّ ثناؤه، وإلى مثل هذا ذهب فقهاء الأمصار، وقالوا في آيات الوعيد: إنّ ذلك جزاؤه، فإن شاء الله أن يعفو عن جزائه فما دون الشّرك فَعَلَ.

عن أبي مجلز: «في قوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾؛ قال: هي جزاؤه، فإن شاء الله أن يتجاوز عن جزائه فعل». وعن هشام بن حسّان قال: «كنّا عند محمّد بن سيرين؛ فقال له رجل: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ - حتّى ختم الآية [:]، قال: فغضب محمّد؛ وقال: أين أنت عن هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]؟، قُم فاخرج عنّي».

وقال ابن عمر - رضي الله عنهما -: «وما زلنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتّى سمعنا من نبيّنا ﷺ يقول: «إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء؛ وأنّه قال: إنّي ادّخرت دعوتي شفاعة لأهل الكبائر من أمّتي يوم القيامة، قال: فأمسكنا عن كثير ممّا كان في أنفسنا، ونطقنا به ورجوناه».

---

(١) أخرجه: أبو داود (٢٥٣٢)، والمزي في «التهذيب» (٣٢/٢٥٤) - من طريقين: عن أبي معاوية الضرير: عن جعفر بن برقان: عن يزيد بن أبي نُشبة: عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ؛ فذكره.

قلت: وهذا سند ضعيف؛ يزيد بن أبي نشبة، قال فيه الذهبي والعسقلاني: مجهول.

عن عون بن عبدالله قال: «قال لقمان لابنه: يا بنّي، أرج الله رجاءً لا تأمن فيه مكره، وخف الله مخافة لا تيأس فيها من رحمته؛ قال: يا أبتاه، وكيف أستطيع ذلك، وإنّما لي قلب واحد، قال: المؤمن كذا له قلبان؛ قلبٌ يَرجُو بهِ، وقَلبٌ يَخافُ بهِ».



٢١

٢١ ـ باب: القول في الشّفاعة وبطلان قول من قال بتخليد المؤمنين في النار



قال الله ـ عز وجل ـ لنبيّه ﷺ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] وقال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝٧٢﴾ [مريم: ٧١ ـ ٧٢].

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أوّل شفيعٍ يوم القيامة، وأنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة، إنّ من الأنبياء لمن يأتي يوم القيامة ما معه مصدق غيرَ واحدٍ»؛ وعن جابر بن عبدالله: أنّ النّبي ﷺ قال: «أنا قائد المُرسلين، ولا فخر؛ وأما خاتم النبيّين، ولا فخر، وأنا أوّل شافع ومشفّع، ولا فخرٌ».

وعن أنسٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ لكلّ نبيٍّ دعوةً قد دعا بها في أمته، وإنّي اختبأتُ دعوتي شفاعة لأمّتي».

وبمعناه رواه: أبيّ بن كعب، وأبو هريرة، وعبدالرّحمن بن أبي عقيل، وغيرهم عن النّبيّ ﷺ.

عن أنس: عن النبي قال: «يجمع المؤمنون يوم القيامة، فيهمون ذلك اليوم، فيقولون: لو استشفعنا على ربنا يريحنا من مكاننا هذا؛ فيأتون آدم، فيقولون له: يا آدم، أنت أبو الناس، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك اسم كل شيء، فاشفع لنا إلى ربنا حتى يريحنا من

مكاننا هذا، فيقول: لست هناكم، ويذكر لهم خطيئته التي أصاب، ولكن ائتوا نوحاً أول رسول بعثه الله إلى الأرض، فيأتون نوحاً، فيقول لست هناكم، ويذكر لهم خطيئته التي أصاب ولكن ائتوا إبراهيم إنه خليل الرحمٰن، فيأتون إبراهيم فيقول لهم: لست هناكم، ويذكر لهم خطاياه التي أصاب، ولكن ائتوا موسى عبداً أتاه الله تعالى التوراة، وكلمه تكليما، فيأتون موسى، فيقول لهم: لست هناكم، ويذكر خطيئته التي أصاب ولكن ائتوا عيسى، فيقول لهم: لست هناكم، ولكن ائتوا محمداً عبداً غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

قال رسول الله ﷺ: فيأتوني، فأنطلق معهم، فأستأذن على ربي، فيؤذن لي، فإذا رأيت ربي وقعت له ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال لي: يا محمد، ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تشفع؛ فأحمده بمحامد علمنيها، ثم أحد لهم فأدخلهم الجنة؟؟، ثم أرجع الثانية، فأستأذن على ربي، فيأذن لي، فإذا رأيت ربي وقعت له ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال لي: يا محمد، ارفع رأسك، وسل تعطه، واشفع تشفع؛ فأحمد ربي بمحامد علمنيها، ثم أحد لهم حداً ثانياً، فأدخلهم الجنة؛ ثم أرجع فأستأذن على ربي فيؤذن لي، فإذا رأيت ربي ـ عز وجل ـ وقعت له ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقول لي: يا محمد، ارفع رأسك، وسل تعطه، واشفع تشفع؛ فأحمد ربي بمحامد علمنيها، ثم أحد لهم حداً ثالثاً، فأدخلهم الجنة، حتى أرجع فأقول: يا رب، ما بقي إلا من وجب عليه الخلود أو حبسه القرآن». وروى حديث الشفاعة بطوله أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ وغيره عن النبي ﷺ.

وعن أنس بن مالك: أن النبي ﷺ قال: «يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن برة، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة [وفي لفظ: درة]». وعن عمران ابن حصين: عن النبي ﷺ قال: «يخرج من النار قوم بشفاعة

محمد ﷺ، فيدخلون الجنة؛ يسمون الجهنميين». وعن جابر بن عبدالله قال: سمعت بأذني هاتين رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ـ عز وجل ـ يخرج قوماً من النار فيدخلهم الجنة [بالشفاعة]».

وقال يزيد الفقير: «كنت قد شغفني رأي من رأي الخوارج، فخرجنا في عصابة ذوي عدد نريد أن نحج، ثم نخرج على الناس، فمررنا على المدينة، فإذا جابر بن عبدالله يحدث القوم عن رسول الله ﷺ جالساً إلى سارية، وإذا هو قد ذكر الجهنميين، قال: قلت له: يا صاحب رسول الله، ما هذا الذي تحدثون؟، والله يقول: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ و﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ وما هذا الذي تقولون؟، قال: فقال لي: أي بني، أتقرأ القرآن؟، قال: قلت: نعم. قال: فهل سمعت بمقام محمد ﷺ المحمود الذي يبعثه الله فيه؟، قلت: نعم، قال: فهو المقام المحمود الذي يخرج الله به من يخرج من النار.

قال: ثم نعت وضع الصراط ومر الناس عليه؛ فأخاف أن لا أكون حفظت ذاك، غير أنه قد زعم أن قوماً يخرجون من النار بعد أن يكونوا فيها، قال: فيخرجون كأنهم عيدان السماسم، قال: فيدخلون نهراً من أنهار الجنة، فيغتسلون فيه قال: فيخرجون كأنهم القراطيس البيض.

قال: فرجعنا فقلنا: ويحكم، أترون هذا الشيخ يكذب على رسول الله ﷺ؟، فرجعنا فلا ـ والله ـ ما خرج منا إلا رجل واحد».

قال الشيخ رحمه الله: في حديث أبي سعيد الخدري في هذا الباب بيان حال من يبقى في النار، ومن يخرج منها. فعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن أناساً تصيبهم النار بذنوبهم حتى إذا كانوا فحماً، أذن في الشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنة؛ ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم من الماء، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل». وعنه أنه قال: «قلنا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟، فذكر حديث الرؤية كما سبق ذكره، وذكر قصة المنادي يوم القيامة وسجود من سجد.

قال: ثم يضرب الجسر على جهنم قلنا: وما الجسر، يا رسول الله؟؛ قال: دحض مزلة له كلاليب وخطاطيف وحسك يكون بنجد عقيضا يقال له السعدان؛ فيمر المؤمنون كالبرق وكالطير وكالطرف وكأجاويد الخيل وكالراكب فمرسل ومخدوش ومكروس ـ قال أبو حامد: إنما هو مكردس في نار جهنم ـ والذي نفسي بيده ما أحدكم بأشد مناشدة في الحق يراه مضيئا له من المؤمنين في إخوانهم إذا هم رأوا، وقد خلصوا من النار. يقولون: أي ربنا إخواننا كانوا يصلون معنا، ويصومون معنا، ويحجون معنا، ويجاهدون معنا قد أخذتهم النار؛ فيقول: اذهبوا، فمن عرفتم صورته فأخرجوه، ويحرم صورتهم على النار. فيجدون الرجل قد أخذته النار إلى قدميه وإلى أنصاف ساقيه، وإلى ركبتيه، وإلى حقوه، فيخرجون منها بشراً كثيراً، ثم يعودون فيتكلمون، فيقول: اذهبوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال قيراط خيراً فأخرجوه، فيخرجون بشراً كثيراً ثم يعودون فيتكلمون، فلا يزال يقول ذلك، حتى يقول: اذهبوا فاخرجوا من وجدتم في قلبه مثقال ذرة فأخرجوه ـ وكان أبو سعيد إذا حدث بهذا الحديث يقول: فإن لم تصدقوا فاقرأوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝٤٠﴾ [النساء: ٤٠] ـ؛ فيقولون: أي ربنا، لم نذر فيها خيراً؛ فيقول: هل بقي إلا أرحم الراحمين، فيقول: قد شفعت الملائكة، وشفع النبيون وشفع المؤمنون، فهل بقي إلا أرحم الراحمين، فيأخذ قبضة من النار. قال: فيخرج قوماً قد عادوا حممة لم يعملوا لله عمل خير قط.

قال: فيطرحون في نهر في الجنة يقال له: نهر الحياة، فينبتون فيه ـ والذي نفسي بيده ـ كما تنبت الحبة في حميل السيل، ألم تروها وما يليها في الظل أصيفر، وما يليها من الشمس أخيضر؟ قلنا: يا رسول الله، كأنك كنت في الماشية؟؛ قال: فينبتون كذلك، فيخرجون أمثال اللؤلؤ، فيجعل في رقابهم الخواتم، ثم يرسلون في الجنة هؤلاء الجهنميون، هؤلاء الذين أخرجهم الله من النار بغير عمل ولا خير قدموه. فيقول الله ـ عز وجل ـ: خذوا فلكم ما أخذتم، فيأخذون حتى ينتهوا، قال: ثم يقولون: لو

يعطينا الله ما أخذنا، فيقول الله ـ عز وجل ـ: فإني أعطيكم أفضل مما أخذتم؛ فيقولون: يا ربنا، وما أفضل مما أخذنا؟؛ فيقول: رضواني فلا أسخط».

وعن أبي سعيد الخدري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج قوم من النار قد احترقوا، فيدخلون الجنة، فينطلقون إلى نهر يقال له الحياة، فيغتسلون فيه، فينضرون كما ينضر العود، فيمكثون في الجنة حينا، فيقال لهم: تشتهون شيئاً؟، فيقولون: أن يرفع عنا هذا الاسم، قال: فيرفع عنهم». وعن أبي هريرة قال: «قال الناس: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟؛ قال: هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟، قالوا: لا، يا رسول الله؛ قال: فهل تضارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟، قالوا: لا، يا رسول الله؛ قال: فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك.

يجمع الله الناس يوم القيامة؛ فيقول: من كان يعبد شيئاً فليتبعه، قال: فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت، وتبقى هذه الأمة؛ فذكر الحديث في الرؤية.

ثم قال: ويضرب جسر جهنم، فأكون أول من يجيز ودعوى الرسل: يومئذ اللهم سلم سلم. وله كلاليب مثل شوك السعدان، هل رأيتم شوك السعدان؟، قالوا: نعم، يا رسول الله، فإن بها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله ـ عز وجل ـ، قال: فتخطف الناس بأعمالهم، فمنهم الموبق بعمله، ومنهم المخردل، ثم ينجو حتى إذا فرغ الله من القضاء بين عباده وأراد أن يخرج من النار من أراد أن يرحم ممن كان يشهد أن لا إله إلا الله أمر الملائكة أن يخرجوهم.

قال: فيعرفونهم بعلامة آثار السجود، قال: فيخرجونهم قد امتحشوا، قال: فيصب عليهم من ماء يقال له ماء الحياة فينبتون نبات الحبة في حميل السيل ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار فيقول يا رب قد قشبني ريحها وأحرقني ذكاؤها فاصرف وجهي عن النار فلا يزال يدعو الله.

فيقول: لعلي إن أعطيتك أن تسألني غيره، فيقول: لا، وعزتك لا أسألك غيره فيصرف وجهه عن النار، ثم يقول: بعد ذلك يا رب قربني إلى باب الجنة فيقول أوليس قد زعمت أن لا تسألني غيره؟ ويلك يا ابن آدم ما أغدرك. فلا يزال يدعو فيقول الله تعالى: لعلي إن أعطيتك ذلك أن تسألني غيره، فيقول: لا وعزتك لا أسألك غيره، ويعطي الله من العهود والمواثيق أن لا يسأله غيره، فيقربه إلى باب الجنة، فإذا دنا منها انفهقت له الجنة، فلما رأى ما فيها سكت ما شاء الله أن يسكت. ثم يقول: رب أدخلني الجنة، فيقول أوليس قد زعمت أن لا تسألني غيره ويلك يا ابن آدم ما أغدرك، فيقول يا رب لا تجعلني أشقى خلقك فلا يزال يدعو حتى يؤذن له بالدخول فيها فإذا دخل قيل له تمن من كذا فيتمنى ثم يقال له تمن من كذا، تمن من كذا، قال: فيتمنى حتى تنقطع به الأماني فيقال له: هذا لك ومثله معه.

قال أبو هريرة: وذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولاً؛ قال: وأبو سعيد الخدري جالس مع أبي هريرة لا يغير عليه شيئاً من حديثه حتى انتهى إلى قوله هذا لك ومثله معه فقال أبو سعيد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: هذا لك وعشرة أمثاله قال أبو هريرة: حفظت مثله معه». وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ـ يعني: قول الله ـ عز وجل ـ: أخرجوا من النار من ذكرني يوماً، أو خافني في مقام». وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل نبي دعوة مستجابة، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي، وهي نائلة منكم إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئاً».

قال رحمه الله: وروينا في هذا عن معاذ بن جبل (و) أبي ذر (و) أبي موسى (و) عوف بن مالك، وغيرهم رضي الله عنهم، عن النبي ﷺ.

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي [وتلا هذه الآية ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ٣١]]».

وعن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «خيرت بين الشفاعة

أو أن يدخل شطر أمتي الجنة، فاخترت الشفاعة لأنها أعم وأكفى؛ أترونها للمؤمنين المتقين؟، لا ولكنها للمذنبين المتلوثين الخطائين». وعن حذيفة بن اليمان: «أنه سمع رجلاً يقول: «اللهم اجعلني فيمن تصيبه شفاعة محمد ﷺ»؛ قال: «إن الله يغني المؤمنين عن شفاعة محمد ﷺ، ولكن الشفاعة للمذنبين المؤمنين والمسلمين».

عن ابن عباس: «في قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] يقول: الذين ارتضاهم بشهادة أن لا إله إلا الله». وعن السدي قال: «سألت مرة الهمداني عن قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريم: ٧١]؛ فحدثني: أن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ حدثهم: عن رسول الله ﷺ قال: يرد الناس النار ثم يصدرون بأعمالهم، فأولهم كلمع البرق، ثم كمر الريح، ثم كحضر الفرس، ثم كالراكب، ثم كشد الرحال، ثم كمشيهم»؛ ورواه أبو الأحوص: عن عبدالله بن مسعود: «في قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ﴾ [مريم: ٧١]؛ قال: الصراط».

ورويناه: عن ابن عباس أنه قال: «الورود: الدخول، واستشهد بقوله تعالى: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وبقوله ـ عز وجل ـ: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨]»؛ وروينا عن جابر بن عبدالله: عن النبي ﷺ أنه قال: «الورود: الدخول ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم: ٧٢]». وقد ذكرناه في كتاب «الجامع»، وفي كتاب «البعث» مع سائر الروايات فيه.



٢٢

٢٢ ـ باب: الإيمان بما أخبر عنه رسول الله ﷺ في ملائكة الله وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والحساب والميزان والجنة والنار وأنهما مخلوقتان معدتان لأهلهما وبما أخبر عنه في حوضه وفي أشراط الساعة قبل قيامها

قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٢٨٥﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقال: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧﴾ [التغابن ٧]، وقال: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ٤ ـ ٦]، وقال: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ۝٩ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ۝١٠ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ۝١١ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾ [الإنشقاق: ٧ ـ ١٢]، وقال: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال: ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ۝٩﴾ [الأعراف: ٨ ـ ٩]، والآيات في مثل هذا كثيرة.

وقال في الجنة ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال في النار: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]، والمعدة لا تكون إلا مخلوقة

موجودة، وقال في الجنة: ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، والمعدوم لا عرض له، وقال في الحوض: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: ١]، وقال في أشراط الساعة: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

عن يحيى بن يعمر قال: «قلت لابن عمر: يا أبا عبدالرحمٰن، إن قوماً يزعمون أن ليس قدر، قال: فهل عندنا منهم أحد؟، قال: قلت: لا، قال: فأبلغهم عني إذا لقيتهم أن ابن عمر بريء إلى الله منكم، وأنتم براء منه، سمعت عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجل عليه سحناء السفر وليس من أهل البادية، وليس من أهل البلد يتخطى حتى ورك بين يدي رسول الله ﷺ كما يجلس أحدنا في الصلاة، ثم وضع يديه على ركبتي رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، ما الإسلام؟، قال: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتحج البيت وتعتمر وتغتسل من الجنابة وتتم الوضوء وتصوم رمضان، قال: فإن فعلت هذا فأنا مسلم؟، قال: نعم، قال: صدقت؛ قال: يا محمد، ما الإيمان؟؛ قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالجنة والنار والميزان، وتؤمن بالبعث بعد الموت، وتؤمن بالقدر خيره وشره [وفي رواية: وبالموت وبالبعث من بعد الموت والحساب والجنة والنار، والقدر كله] قال: فإذا فعلت هذا فأنا مؤمن؟، قال: نعم، قال: صدقت قال: يا محمد، ما الإحسان؟؛ قال: أن تعمل لله كأنك تراه فإنك إن لم تكن تراه فإنه يراك؛ قال: فإذا فعلت هذا فأنا محسن؟، قال: نعم، قال: صدقت؛ قال: فمتى الساعة؟، قال: سبحان الله، ما المسؤول عنها أعلم بها من السائل، إن شئت أنبئتك بأشراطها، قال: أجل؛ قال: إذا رأيت العالة الحفاة العراة يتطاولون في البنيان وكانوا ملوكاً، قال: ما العالة الحفاة العراة؟، قال: العريب، قال: وإذا رأيت الأمة تلد ربتها وربها، فذاك من أشراط الساعة، قال: صدقت. ثم نهض فولى، فقال رسول الله ﷺ: علي بالرجل، قال:

فطلبناه فلم نقدر عليه؛ فقال رسول الله ﷺ: «هل تدرون من هذا؟، هذا جبريل ـ عليه السلام ـ أتاكم يعلمكم دينكم، فخذوا عنه، فوالذي نفسي بيده ما شبه علي منذ أتاني غير مرتي هذا، وما عرفته حتى ولى».

قال ـ رحمه الله ـ: قد سمى رسول الله ﷺ كلمة الشهادة في هذا الحديث إسلاماً، وسماه في حديث ابن عباس في قصة وفد عبدالقيس إيماناً، وفي الحديثين دلالة على أنهما اسمان لمسمى واحد، إلا أنه في هذا الحديث فسر الإيمان بما هو صريح فيه ـ وهو التصديق ـ، وفسر الإسلام بما هو أمارة له، وإن كان اسم صريحه يتناول أمارته واسم أمارته، واسم أمارته يتناول صريحه؛ وهذا كما فصل بينهما وبين الإحسان، وإن كان الإيمان والإسلام إحساناً، والإحسان الذي فسره بالإخلاص واليقين يكون إيماناً[1].

---

(١) يقول شيخ الإسلام في «الإيمان» (ص٧٠): «جعل النبي ﷺ الدين ثلاث درجات؛ أعلاها الإحسان، وأوسطها الإيمان، ويليه الإسلام؛ فكل محسن مؤمن، وكل مؤمن مسلم، وليس كل مؤمن محسناً، ولا كل مسلم مؤمناً».
وقال شارح «الطحاوية» (٣٤٨ ـ ٣٤٩): «فالحاصل أن حالة اقتران الإسلام بالإيمان غير حالة إفراد أحدهما عن الآخر؛ فمثل الإسلام من الإيمان كمثل الشهادتين إحداهما من الأخرى، فشهادة الرسالة غير شهادة الوحدانية، فهما شيئان في الأعيان، وإحداهما مرتبطة بالأخرى في المعنى والحكم كشيء واحد، كذلك الإسلام والإيمان، لا إيمان لمن لا إسلام له، ولا إسلام لمن لا إيمان له، إذ لا يخلو المؤمن من إسلام به يتحقَّق إيمانه، ولا يخلو المسلم من إيمان يصح به إسلامه، ونظائر ذلك في كلام الله ورسوله، وفي كلام الناس كثيرة ـ أعني: في الإفراد والاقتران؛ منها لفظ الكفر والنفاق، فالكفر إذا ذكر مفرداً في وعيد الآخرة دخل فيه المنافقون كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥]، ونظائره كثيرة. وإذا قرن بينهما كان الكافر من أظهر كفره، والمنافق من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه؛ وكذلك لفظ البر والتقوى، ولفظ الإثم والعدوان، ولفظ التوبة والاستغفار، ولفظ الفقير والمسكين، وأمثال ذلك.
ويشهد للفرق بين الإسلام والإيمان قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]، إلى آخر السورة».

وقوله في أشراط الساعة: «تلد الأمة ربتها وربها»، يريد به اتساع الإسلام وكثرة السبايا حتى يستولد الناس الجواري فتلد الأمة من سيدها ابنة أو ابناً، فيكون ولدها في معنى سيدها ـ إذ هو ولد مولاها ـ. وبعثة النبي ﷺ، واتساع شريعته من أشراط الساعة، بمعنى أنه ليس بينه وبين الساعة نبي آخر؛ ثم لا يعلم أحد متى تقوم الساعة إلا الله ـ عز وجل ـ.

عن أبي هريرة قال: عن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويؤمنوا بي وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دمائهم وأموالهم إلا بحقهما، وحسابهم على الله عز وجل».

قال الشيخ: ونعتقد فيما أنزله الله تعالى على رسوله محمد ﷺ في القرآن ولم ينسخ رسمه في حياته أنه بقي في أمته محفوظاً، لم تجر عليه زيادة ولا نقصان ـ كما وعد الله بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]، وهو كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ﴾ [فصلت: ٤١]. قال الحسن البصري: «حفظه الله من الشيطان، فلا يزيد فيه باطلاً، ولا ينقص منه حقاً».

عن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «يقوم الناس يوم القيامة لرب العالمين، حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه». وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ، وعن أبيها ـ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نوقش الحساب هلك، قالت: قلت: يا رسول الله، إن الله ـ عز وجل ـ يقول: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾، قال: ذاك العرض».

وعنها ـ أيضاً ـ: «أنها ذكرت النار فبكت؛ فقال رسول الله ﷺ: ما يبكيك؟، قالت: ذكرت النار فبكيت، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟؛ فقال رسول الله ﷺ: «أما في ثلاثة مواطن، فلا يذكر أحد أحداً؛ عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل، وعند الكتاب ـ حين يقال: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩] ـ حتى يعلم أين يقع كتابه أفي يمينه أم في

شماله أم من وراء ظهره، وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم».

عن أبي هريرة: عن النبي ﷺ قال: «كلمتان خفيفتان على اللسان، حبيبتان إلى الرحمٰن، ثقيلتان في الميزان: «سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»».

قال ـ رضي الله عنه ـ: فالإيمان بالميزان واجب بما ذكرنا[1]، ثم كيفية الوزن، فقد قيل: توضع صحف الحسنات في إحدى كفتي الميزان، وصحف السيئات في الكفة الأخرى ثم توزن، وقد ورد في بعض الأخبار ما يدل عليه. وقد يجوز أن يحدث الله تعالى أجساماً مقدرة بعدد الحسنات والسيئات بحيث يتميز إحداهما من الأخرى، ثم توزن الأجسام ـ والله أعلم ـ[2]. وما ورد به خبر الصادق نؤمن به، ونحمله على وجه يصح، وبالله التوفيق.

فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله ـ عز وجل ـ: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؛ ثم قرأ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧]».

---

(١) قال شارح «الطحاوية» (ص٤١٧): «والذي دلت عليه السنة: أن ميزان الأعمال له كفتان حسيتان مشاهدتان».
قلت: وذكروا أن الميزان له لسان؛ ولم أجد على ذلك دليلاً، إلاّ ما حكاه الحافظ في «الفتح» (٥٣٨/١٣) عن أبي إسحاق الزجاج من إجماع أهل السنة على ذلك. فالله أعلم.

(٢) يقول الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي في «معارج القبول» (٨٤٥/٢ ـ ٨٤٩/بتصرف): والقول في الموزون على أربعة أوجه: **الأول**: أن الأعمال نفسها هي التي توزن، وأن أفعال العباد تجسم، وتوضع في الميزان؛ **والثاني**: أن صحائف الأعمال هي التي توزن؛ **والثالث**: أن الموزون ثواب العمل؛ **والرابع**: أن الموزون هو العامل نفسه.
قلت: والذي استظهر من النصوص ـ والله أعلم ـ أن العامل وعمله وصحيفة عمله كل ذلك يوزن، لأن الأحاديث التي في بيان القرآن قد وردت بكل من ذلك، ولا منافاة بينها.

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: «بينما رسول الله ﷺ ذات يوم، فذكر الحديث إلى أن قال: وأيم الذي نفس محمد بيده لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً؛ قالوا: يا رسول الله، وما رأيت؟، قال: رأيت الجنة والنار!».

وعن عبدالله بن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي؛ إن كان من أهل الجنة، فمن أهل الجنة؛ وإن كان من أهل النار، فمن أهل النار. يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله ـ عز وجل ـ إليه يوم القيامة».

عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بي إلى السماء أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ الجوف؛ فقلت: ما هذا، يا جبريل؟، فقال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك؛ فأهوى الملَك بيده، فاستخرج من طينه مسكاً أذفر». وعن أبي حمزة قال: «دخل أبو برزة على عبيد الله بن زياد فقال: إن محمدّيكم هذا لدحداح!!، فقال: ما كنت أرى أن أعيش في قوم يعدُّون صحبة محمد ﷺ عاراً!!؛ قالوا: إن الأمير، إنما دعاك ليسألك عن الحوض؛ فقال: عن أي باله؟، قال: أحق هو؟، قال: نعم، فمن كذب به فلا سقاه الله منه».

عن أبي هريرة قال: وقال رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون؛ وذلك حين: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]». وعنه أيضاً يرفعه: «ثلاث إذا خرجن ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض».

وعن يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود قال: «سمعت رجلاً قال لعبدالله بن عمرو: إنك تقول إن الساعة تقوم إلى كذا وكذا؟!؛ فقال: لقد هممت أن لا أحدثكم بشيء، إنما قلت إنكم ترون بعد قليل أمراً عظيماً، فكان حريق البيت. قال عبدالله بن عمرو: قال رسول الله ﷺ: يخرج

الدجال في أمتي فيمكث فيهم أربعين ـ لا يدري أربعين يوماً، أو أربعين شهراً، أو أربعين سنة فيبعث الله عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ كأنه عروة بن مسعود الثقفي فيطلبه فيهلكه، ثم يلبث الناس بعده سبع سنين ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قِبل الشام فلا يبقى أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدكم كان في كبد جبل لدخلت عليه ـ قال: سمعتها من رسول الله ﷺ ـ؛ ويبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً، فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟!، فيأمرهم بعبادة الأوثان، فيعبدونها وهم في ذلك دارَّة أرزاقهم حسن عيشهم؛ ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا صغا ليتا ورفع ليتا ـ ورفع بُندار إحدى منكبيه ـ وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه فيصعق، ثم لا يبقى أحد إلا صعق ثم يرسل أو ينزل الله مطراً كأنه الطل أو الظل ـ نعمانُ الشَّاك ـ، فتنبت منه أجساد الناس؛ ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ثم يقال يا أيها الناس هلموا إلى ربكم ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات: ٢٤]؛ ثم يقال: أخرجوا بعث النار، فيقال: كم؟، فيقال: من كل ألف تسع مائة وتسعة وتسعين».

قال الشيخ ـ رحمه الله ـ: سقط من كتابي ورفع ليتا، واللِّيت مجرى القُرط من العنق.

وعن أم حبيبة: عن زينب ـ زوج النبي ﷺ ـ قالت: «استيقظ النبي ﷺ من نومه محمرّاً وجهه وهو يقول: لا إله إلا الله ـ ثلاث مرات ـ، ويلٌ للعرب من شر قد اقترب!!؛ فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه ـ وحلَّق حلقة بأصبعيه ـ قلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟؛ قال: نعم، إذا كثر الخبث».

قال: وقد روينا في كتاب «البعث» قصة الدجال، ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام، وخروج يأجوج ومأجوج وهلاكهم، وقيام الا ساعة ـ من حديث النواس بن سمعان، وغيره.

وعن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: عن النبي ﷺ أنه قال: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطول الله ذلك اليوم، حتى يبعث (وفي لفظ: لبعث الله) رجلاً من أهل بيتي [ـ يواطىء اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي ـ] يملأها عدلاً كما ملئت جوراً». وعن عبدالله بن مسعود: أن النبي ﷺ قال: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلاً من أهل بيتي ـ يواطىء اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي ـ، يملأها عدلاً كما ملئت جوراً».

وعن عبدالله بن مسعود قال: «مضت الآيات غير أربع: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، والدابة، ويأجوج ومأجوج؛ قال: وبها يختم الأعمال، قال: ثم قرأ ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]».

قال ـ رحمه الله ـ: يعني به: الآيات الكبار.

عن أبي هريرة: قال رسول الله ﷺ: «ـ يعني يقول الله ـ عز وجل ـ: كذبني ابن آدم ولم ينبغي له أن يكذبني، وشتمني ابن آدم ولم ينبغي له أن يشتمني؛ فأما تكذيبه إياي، فقوله: «لن يعيدني كما بدأني!»، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته!!؛ وأما شتمه إياي، فقوله: «اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد، ولم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفواً أحد!!».

عن أبي رزين العقيلي قال: «قلت: يا رسول الله، كيف يحيى الله الموتى، وما آية ذلك في خلقه؟؛ قال: أما مررت بواد لك (وفي لفظ: بوادي أهلك) مَحلاً، ثم مررت به يهتز خضراً، ثم مررت به مَحلاً، ثم مررت به يهتز خضراً؟؛ قال: بلى؛ قال: كذلك يحيي الله الموتى، وذلك آيته في خلقه».

قال الشيخ: وقد ورد ذلك في كتاب الله ـ عز وجل ـ، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾ [الحج: ٥ ـ ٦]، وآيات القرآن في الإعادة كثيرة.



٢٣

٢٣ ـ باب: الإيمان بعذاب القبر
ـ نعوذ بالله من عذاب القبر، ومن عذاب النار ـ

قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] وما بعدها في الآية؛ قال مجاهد: ذاك عند الموت. وقال في الكفار: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنفال: ٥٠] ـ أي: ويقولون لهم هذا تعريفاً إياهم أنهم يقدمون على عذاب الحريق، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

فدلَّت الآيتان على أن الكفار يعنف عليهم في نزع أرواحهم وأنهم يخبرون بما هم قادمون عليه من العذاب الهون، خلاف المؤمنين الذين يؤمنُّون ويبشرون بالجنة التي كانوا يوعدون، وقال في آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦]، وحديث ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ في معناه قد مضى ذكره في الباب قبله.

وقال: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧]؛ عن البراء بن عازب: عن

النبي ﷺ قال: «المؤمن إذا شهد أن لا إله إلا الله وعرف محمداً في قبره (وفي لفظ: إن المسلم إذا سئل في القبر فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله)؛ فذلك قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]».

وعن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «إن الميت إذا وضع في قبره، إنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه؛ فإن كان مؤمناً، كانت الصلاة عند رأسه، وكان الصيام عن يمينه، وكانت الزكاة عن شماله، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه.

فيؤتى من قبل رأسه، فتقول الصلاة: ما قِبلي مدخل؛ ثم يؤتى عن يمينه، فيقول الصيام: ما قِبلي مدخل؛ ثم يؤتى عن يساره، فتقول الزكاة: ما قِبلي مدخل؛ ثم يؤتى من قبل رجليه، فتقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس: من قبلي مدخل.

فيقال له: اجلس، فيجلس ـ وقد مثلت له الشمس وقد أدنيت للغروب ـ؛ فيقال له: أرأيتك هذا الرجل الذي كان فيكم، ما تقول فيه؟ وماذا تشهد به عليه؛ فيقول: دعوني حتى أصلي، فيقولون: إنك ستفعل؛ أخبرنا عما نسألك عنه: أرأيتك هذا الرجل الذي كان فيكم، ما تقول فيه؟ وماذا تشهد به عليه؟؛ قال فيقول: محمد أشهد أنه رسول الله، وأنه جاء بالحق من عند الله؛ فيقال له: على ذلك حييت، وعلى ذلك مت، وعلى ذلك تبعث ـ إن شاء الله ـ.

ثم يفتح له باب من أبواب الجنة، فيقال له: هذا مقعدك منها، وما أعد الله لك فيها؛ فيزداد غبطة وسروراً. ثم يفتح له باب من أبواب النار، فيقال له: هذا مقعدك منها، وما أعد الله لك فيها لو عصيته؛ فيزداد غبطة وسروراً. ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً، وينور له فيه، ويعاد الجسد لما بدأ منه؛ فتجعل نسمته في النسيم الطيب، وهي طير يعلق في شجر الجنة. قال: فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ ـ إلى آخر الآية.

قال: وإن الكافر إذا أتي من قبل رأسه لم يوجد شيء، ثم أتي عن يمينه فلا يوجد شيء، ثم أتي عن شماله فلا يوجد شيء، ثم أتي من قبل رجليه فلا يوجد شيء؛ فيقال له: اجلس، فيجلس خائفاً مرعوباً؛ فيقال له: أرأيتك هذا الرجل الذي كان فيكم، ما تقول فيه؟ وماذا تشهد به عليه؟؛ فيقول: أي رجل؟، فيقال: الذي كان فيكم، فلا يهتدي لاسمه حتى يقال له محمد؛ فيقول: ما أدري، سمعت الناس قالوا قولاً فقلت كما قال الناس؛ فيقال له: على ذلك حييت، وعلى ذلك مت، وعلى ذلك تبعث ـ إن شاء الله ـ؛ ثم يفتح له باب من أبواب النار، فيقال له: هذا مقعدك من النار وما أعد الله لك فيها، فيزداد حسرة وثبوراً؛ ثم يفتح له باب من أبواب الجنة، فيقال له: ذلك مقعدك من الجنة وما أعد الله لك فيه لو أطعته، فيزداد حسرة وثبوراً؛ ثم يضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، فتلك المعيشة الضنكة التي قال الله: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾».

وعن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: «قال رسول الله ﷺ: يا عمر، كيف أنت إذا كنت في أربع من الأرض في ذراعين، فرأيت منكراً ونكيراً؛ قال: يا رسول الله، وما منكر ونكير؟؛ قال: فتانا القبر، أبصارهما كالبرق الخاطف، وأصواتهما كالرعد القاصف؛ معهما مرزبة لو اجتمع عليها أهل مني ما استطاعوا رفعها، هي أهون عليهما من عصاي هذه، فامتحناك؛ فإن تعاييت أو تلويت ضرباك بها ضربة تصير بها رماداً؛ قال: يا رسول الله، وإني على حالتي هذه؟؛ قال: نعم؛ قلت: إذاً أكفيكهما».

غريبٌ بهذا الإسناد؛ تفرَّد به مفضل هذا. وقد رويناه من وجه آخر عن ابن عباس، ومن وجه آخر صحيح عن عطاء بن يسار: عن النبي ﷺ ـ مرسلاً، في قصة عمر؛ وقال: «ثلاثة أذرع وشبر، في عرض ذراع وشبر»، ولم يذكر المرزبة[1].

---

(١) أخرجه: ابن أبي داود في «البعث» (٧)، وعنه الذهبي في «الميزان» (٤/١٦٧ ـ ١٦٨) ـ من طريق: مفضَّل بن صالح أبو جميلة: عن إسماعيل بن أبي خالد: عن أبي شهر: عن عمر؛ فذكره. =

وروينا في حديث البراء بن عازب: عن النبي ﷺ ـ في قصة عذاب القبر ـ قال: «فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان».

قال الشيخ: وإعادة الروح في جزء واحد، وسؤال جزء واحد، وتعذيب جزء واحد، مما يجوز في العقل، وليس في تعرف (كذا!) الأجزاء استحالة ما وردت به الأخبار في عذاب القبر، وهو كما شاء الله، ولمن شاء الله، وإلى ما شاء الله؛ نعوذ بالله من عذاب الله.

والأخبار في عذاب القبر كثيرة، وقد أفردنا لها كتاباً مشتملاً على ما ورد فيها من الكتاب والسنة والآثار.

وقد استعاذ منه رسول الله ﷺ، وأمر أمته بالاستعاذة منه؛ فعن عائشة: «أن يهودية دخلت عليها فذكرت لها عذاب القبر فقالت: أعاذك الله من عذاب القبر. قالت عائشة: فسألت النبي ﷺ عن عذاب القبر فقال النبي ﷺ: عذاب القبر حق!؛ قالت عائشة: فما سمعته يصلي صلاة بعد، إلا تعوذ فيها من عذاب القبر».

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا فرغ أحدكم من صلاته، فليدع بأربع، ثم ليدع بما شاء؛ «اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، وعذاب القبر، وفتنة المحيا والممات، وفتنة المسيح الدجال»». وعن ابن عباس: «أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن يقول: قولوا: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات»».

= ـ قال الشيخ أبو إسحاق الحويني ـ حفظه المولى ـ: وهذا خبر منكر بهذا التمام؛ المفضل هذا منكر الحديث ـ كما قال البخاري وأبو حاتم ـ، وقد أشار المصنف إلى تفرده بهذا الإسناد؛ وشيخ شيخه لا يعرف ـ كما قال الذهبي ـ.

قلت: ثم ذكر ـ حفظه الله ـ للخبر شواهد عن غير واحد من الصحابة والتابعين، غير أنها لا تفيده شيئاً؛ انظر تخريجها والكلام عليها في تعليق له على الخبر في «البعث» لابن أبي داود (٣٥/٣٧).

قال الشافعي: «إن مشيئة العباد هي إلى الله تعالى، ولا يشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين، وإن أعمال الناس خلق من الله فعل للعباد، وإن القدر خيره وشره من الله ـ عز وجل ـ، وإن عذاب القبر حق، ومسألة أهل القبور حق، والبعث والحساب والجنة والنار، وغير ذلك مما جاءت به السنن، وظهرت على ألسنة العلماء وأتباعهم من بلاد المسلمين حق».



٢٤

٢٤ ـ باب:
الاعتصام بالسنة واجتناب البدعة



قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

قال الشافعي: «سمعت بعض من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول: الحكمة سنة رسول الله ﷺ».

قال الشيخ: قد رويناه عن الحسن البصريّ (و) قتادة (و) يحيي بن أبي كثير.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ﴾، قال الشافعي: يعني إن اختلفتم في شيء، فردوه إلى الله والرسول، يعني ـ والله أعلم ـ: إلى ما قال الله والرسول. وروينا عن ميمونْ بن مهران أنه قال في هذه الآية: «الرد إلى الله: الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول إذا قبض إلى سنته».

عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ خطب الناس في حجة الوداع فقال: «إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم، ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحاقرون من أعمالكم، فاحذروا! يا أيها الناس: إني تركت فيكم ما إن اعتصمتم به، فلن تضلو أبداً، كتاب الله، وسنة نبيه. إن كل

مسلم أخو المسلم، المسلمون إخوة، ولا يحل لامرىء من مال أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس ولا تظلموا، ولا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض».

عن عبيد الله بن أبي رافع: عن النبي ﷺ قال: «لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول: ما أدري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه». عن عائشة: قال رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد».

وروينا في الحديث الثابت: عن جابر بن عبدالله قال: «كان رسول الله ﷺ في خطبته يحمد الله ويثني عليه بما هو أهله؛ ثم يقول: من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار».

وعن العرباض بن سارية قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون؛ فقلنا: يا رسول الله، كأنها موعظة مودع فأوصنا، قال: أوصيكم بتقوى الله - عز وجل -، والسمع والطاعة وإن أمر عليكم عبد، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة».

وعن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً؛ ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم من آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً».

وفي حديث جرير بن عبدالله: «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها لا ينقص ذلك من أجورهم شيء؛ ومن سن في الإسلام سنة سيئة فله وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينتقص من أوزارهم شيء».

وعن كثير بن عبدالله: عن أبيه: عن جده: أن النبي ﷺ قال: «من أحيا سنة من سنتي قد أميتت بعدي فإن له من الأجر مثل أجر من عمل بها من الناس لا ينقص ذلك من أجور الناس شيئاً، ومن ابتدع بدعة لا يرضاها الله ورسوله فإن عليه إثم من عمل بها من الناس لا ينقص ذلك من آثام الناس شيئاً»[1]. وعن أبي ذر قال: «أمرنا رسول الله ﷺ أن لا نغلب على أن نأمر بالمعروف، وننهي عن المنكر، ونعلم الناس السنن»[2].

---

(١) أخرجه: الترمذي (٢٦٧٧)، وابن ماجه (١٩٧، ١٩٨) ـ من طرق: عن كثير بن عبدالله: عن أبيه: عن جده ـ به.
ـ قال الترمذي: هذا حديث حسن.
قلت: كذا قال، فلم يصب؛ وكثير وهَّاه جمعٌ، فالسند ضعيف جدًّا.

(٢) أخرجه: أحمد (٢٠٩٤٩)، والدارمي (٥٤٣)، وابن أبي عاصم (١٠٢٠) ـ من طرق: عن العوام بن حوشب: عن القاسم بن عوف الشيباني؛ وقد اضطرب فيه؛ فتارة رواه عن رجل عن أبي ذر، وأخرى عن أبي ذر بلا واسطة.
قلت: وروايته عن أبي ذر مرسلة ـ كما قال المزي والعسقلاني ـ، وفي الرواية التي ذكر فيها الواسطة لم يسمه؛ فدلَّ ذلك على اضطرابه في حديثه. وليس ذلك بدعاً منه، فقد قال أبوحاتم الرازي: القاسم بن عوف مضطرب الحديث ومحله عندي الصدق، وفي ترجمته من التقريب: صدوق يغرب. وفي الكاشف: مختلفٌ في حاله.
على أنه لم يتفرَّد به؛ فقد تابعه مروان بن جناح عند ابن أبي عاصم (١٠١٩)؛ فقال: ثنا نصير ـ مولى خالد ـ: عن أبي ذر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيكون بعدي سلطان، فمن أراد ذله ثغر في الإسلام ثغرة، وليست له توبة إلا أن يسدها، وليس يسدها إلى يوم القيامة».
ـ قال شيخنا في «ظلال الجنة» (ص٤٧٦): إسناده ضعيف، ورجاله ثقات غير نصير ـ مولى خالد ـ، كذا وقع في الكتاب، وفي «التهذيب وغيره: مولى معاوية، وذكر أنه روى عنه أيضاً سليمان بن موسى الدمشقي، وثقه ابن حبان، فهو مجهول الحال، وقال الذهبي: نكرة لا يعرف.
قلت: ولا منافاة بين قول من قال: هو مولى معاوية، وبين من جعله مولى خالد؛ لأن خالداً هذا هو: ابن يزيد بن معاوية ـ كما قال المزي ـ، وبه جزم ابن حبان في ثقاته؛ وعلى كلٍّ فهذا المولى مجهول، والاعتماد على خبر المجهول غير مقبول، وقد استظهر شيخنا ـ رحمه الله ـ أنه الرجل المبهم في رواية القاسم بن عوف؛ فبقي الخبر على ضعفه. والله أعلم.

قال الشيخ: وإذا لزم اتباع رسول الله ﷺ فيما سنَّ، وكان لزومه فرضاً باقياً، ولا سبيل إلى اتباع سنته إلا بعد معرفتها، ولا سبيل لنا إلى معرفتها إلا بقبول خبر الصادق عنه، لزم قبوله ليمكننا متابعته، ولذلك أمر بتعليمها والدعاء إليها، وبالله التوفيق.

وعن عبدالله بن مسعود أنه قال: «[إن أحسن الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وإن الشقي من شقي في بطن أمه، وإن السعيد من وعظ بغيره] فاتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم».

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تفرقت اليهود على إحدى وسبعين والنصارى مثل ذلك، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة». وروي معناه في حديث معاوية، وغيره[1].

وقد ذكرنا في كتاب «المدخل» وغيره: أن الخلاف المذموم ما خولف فيه كتاب، أو سنة صحيحة، أو إجماع، أو ما في معنى واحد من هؤلاء؛ وذلك كخلاف من خالف أهل السنة فيما أشرنا إليه في هذا الكتاب، فقد قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وقد جاء الكتاب والسنة، ثم إجماع الصحابة بإثبات ما أثبتناه من صفات الله ـ عز وجل ـ، ورؤيته، وشفاعة نبيه ﷺ، وغير ذلك؛ فمن نفاه، واختلف فيه، كان ذلك اختلافاً بعد مجيء البينة ورد من رد ما ورد فيه من السنة الثابتة جهالة منه بلزوم اتباع ما بلغه منه وتأويل من تأول ما ورد فيه من الكتاب غير سائغ في الشريعة، فلا وجه لترك الظاهر إلا بمثله أو بما هو أقوى منه، والله يعصمنا من ذلك برحمته.

---

(١) قلت: وقد جمع طرقه الشيخ/ سليم الهلالي ـ وفقه المولى وسدّده ـ في رسالته: «نصح الأمة في فهم أحاديث افتراق الأمة»؛ فمن شاء التعرف على الخبر من جانبيه ـ رواية ودراية ـ، فعليه بها.

ويشبه أن يكون اختلاف هؤلاء وأمثالهم أريد بما روينا في حديث أبي هريرة، والذي يؤكده ما روي في حديث معاوية في هذا الحديث أنه قال: «كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة»، وفي حديث عمرو بن عوف «إلا واحدة الإسلام وجماعتهم»[1]، وفي حديث عبدالله بن عمرو: «إلا واحدة ما أنا عليه اليوم وأصحابي».

وإنما اجتمع أصحابه على مسائل الأصول، فإنه لم يرو عن واحد منهم خلاف ما أشرنا إليه في هذا الكتاب؛ فأما مسائل الفروع، فما ليس فيه نص كتاب ولا نص سنة، فقد اجتمعوا على بعضه، واختلفوا في بعضه، فما اجتمعوا عليه ليس لأحد مخالفتهم فيه، فصاحب الشرع هو الذي سوغ لهم هذا النوع من الاختلاف حيث أمرهم بالاستنباط وبالاجتهاد مع علمه بأن ذلك يختلف، وجعل للمصيب منهم أجرين، وللمخطىء منهم أجراً واحداً، وذلك على ما يحتمل من الاجتهاد، ورفع عنه ما أخطأ فيه.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد،

---

(١) أخرجه: الحاكم (٤٤٥)، والطبراني في «الكبير» (١٣/١٧) - من طريق: إسماعيل بن أبي أويس: حدثني كثير بن عبدالله بن عمرو بن عوف بن زيد: عن أبيه: عن جده قال: «كنا قعوداً حول رسول الله ﷺ في مسجده بالمدينة فجاءه جبريل - عليه السلام - بالوحي فتغشى رداءه فمكث طويلاً حتى سري عنه وكشف رداءه فإذا هو تعرق عرقاً شديداً وإذا هو قابض على شيء فقال أيكم يعرف ما يخرج من النخل فقال الأنصار نحن يا رسول الله بأبينا أنت وأمنا ليس شيء يخرج من النخل إلا نحن نعرفه نحن أصحاب نخل ثم فتح يده فإذا فيها نوى فقال: «ما هذا» فقالوا هذا يا رسول الله نوى قال: «نوى أي شيء» قالوا: نوى سنة قال: «صدقتم جاءكم جبريل - عليه السلام - يتعاهد دينكم لتسلكن سنن من قبلكم حذو النعل بالنعل ولتأخذن بمثل أخذهم إن شبراً فشبراً وإن ذراعاً فذراعاً وإن باعاً فباعاً حتى لو دخلوا في جحر ضب دخلت فيه إلا أن بني إسرائيل افترقت على موسى سبعين فرقة كلها ضالة إلا فرقة واحدة الإسلام وجماعتهم ثم إنها افترقت على عيسى بن مريم على إحدى وسبعين فرقة كلها ضالة إلا واحدة الإسلام وجماعتهم ثم إنكم تكونون على اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة الإسلام وجماعتهم» - لفظ الطبراني، وفي لفظ الحاكم اختصارٌ.

قلت: وهذا خبر ساقطٌ؛ كثيرٌ لا يُشتغل به.

فأصاب كان له أجران؛ فإن اجتهد فأخطأ، كان له أجر».

قال الشيخ: فهذا النوع من الاختلاف غير ما ذم الله - تعالى - وذمه رسوله ﷺ فيما روينا: وكان الشافعي - رحمه الله - يجعل هؤلاء المختلفين في معنى المجتمعين حيث أن كل واحد منهم أدى ما كلف من الاجتهاد، ولم يخالف كتاباً نصاً، ولا سنة قائمة بلغته، ولا إجماعاً، ولا قياساً صحيحاً عنده؛ إنما نظر في القياس فأداه إلى غير ما أدى إليه صاحبه، فكل واحد منهم يكون مؤدياً في الظاهر ما كلف ويرفع عنه إثم ما غاب عنه أو أخطأه من التأويل الصحيح أو السنة الصحيحة أو القياس الصحيح إذ لم يكلف علم الغيب، فمن سلك من فقهاء الأمصار سبيل الصحابة والتابعين فيما أجمعوا عليه واختلفوا فيه كانوا كالفرقة الواحدة، وهي الفرقة الناجية التي أشار إليها رسول الله ﷺ، فكل منهم أخذ بوثيقة فيما تبع فيه من الكتاب أو السنة أو الإجماع، وبالله التوفيق.

وأما تخليد من عداهم من أهل البدع في النار، فهو مبني على تكفيرهم، فمن لم يكفرهم أجراهم بالخروج من النار بأصل الإيمان مجرى الفساق المسلمين، وحمل الخبر على تعذيبهم بالنار مدة من الزمان دون الأبد، واحتج في ترك القول بتكفيرهم بقوله ﷺ: «تفترق أمتي»، فجعل الجميع - مع افتراقهم - من أمته، والله أعلم.



٢٥

٢٥ ـ باب:
النهي عن مجالسة أهل البدع ومكالمتهم

عن أبي هريرة: عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجالسوا أهل القدر، ولا تُفاتحوهم»[(١)]. وعن ابن عمر [: عن النبي ﷺ] قال: «القدرية مجوس هذه الأمة؛ إن مرضوا، فلا تعودوهم؛ وإن ماتوا، فلا تشهدوهم». وروي عن: حذيفة (و) جابر (و) أبي هريرة ـ مرفوعاً.

إنما سموا قدرية؛ لأنهم أثبتوا القدر لأنفسهم، ونفوه عن الله ـ سبحانه وتعالى ـ، ونفوا عنه خلق أفعالهم وأثبتوه لأنفسهم، فصاروا بإضافة بعض الخلق إليه دون بعض مضاهين للمجوس، في قولهم بالأصلين النور والظلمة، وأن الخير من فعل النور، والشر من فعل الظُّلمة.

عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بعث الله نبياً إلا وفي أمته قدرية ومرجئة يشوشون عليه أمر أمته؛ ألا وإن الله قد لعن القدرية

---

(١) إسناده ضعيف؛ أخرجه: أبو داود (٤٧١٠، ٤٧٢٠)، وأحمد (٢٠٦)، وابن حبان (٧٩)، والحاكم (٢٨٧)، وأبو يعلى (٢٤٥)، والبيهقي في الكبرى (٢٠٦٦٢)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٣٣٠) ـ من طرق: عن عطاء بن دينار: عن حكيم بن شريك: عن يحيى بن ميمون الحضرمي: عن ربيعة الجُرشي: عن أبي هريرة: عن عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تجالسوا أهل القدر ولا تفاتحوهم (وعند ابن عاصم: لا تقاعدوهم)».
ـ قال الألباني: إسناده ضعيف؛ من أجل حكيم بن شريك الهذلي مجهول.

والمرجئة على لسان سبعين نبياً»[1]. وقد روي عن أبي هريرة: عن النبي ﷺ؛ بنحو من معناه.

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أمتي ليس لهما في الإسلام نصيب: المرجئة والقدرية»[2].

---

(١) أخرجه: ابن أبي عاصم (٣٢٥)، والطبراني، والخطيب في الموضح (٦/٢) ـ من طرق: عن بقية: عن أبي العلاء الدمشقي: عن محمد بن جحادة: عن يزيد بن حصين: عن معاذ بن جبل؛ بنحوه.
ولهذا السند علتان:
أولاهما: عنعنة بقية، وهو ممن يدلس تدليس التسوية.
والأخرى: جهالة يزيد بن حصين.
وشاهده الذي ساقه المصنف؛ أخرجه: الآجري في الشريعة (ص١٤٨)، وابن بطة في الإبانة (٢/٩٦/٧) ـ من طريقين: عن شهاب بن خراش: عن محمد بن زياد: عن أبي هريرة ـ مرفوعاً؛ به.
وابن خراش هذا؛ في حفظه ضعف.

(٢) أخرجه: البخاري في «التاريخ» (٢٢٢٣)، والترمذي (٢١٤٩)، وابن ماجه (٦٢، ٧٣)، والطبراني في «الكبير» (١١٦٨٢)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٥٧٩) واللالكائي في «السنة» (١/١٤٧/١)، وابن أبي عاصم (٣٣٤، ٣٣٥، ٩٤٦، ٩٤٧، ٩٤٨، ٩٥١) وابن عدي (٣/٣٠٩) ـ من طريقين: عن عكرمة: عن ابن عباس [وعن جابر بن عبدالله]: قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أمتي ليس لهم [في الإسلام ـ أو] في الآخرة نصيب [وفي رواية: لا تنالهما شفاعتي]: القدرية والمرجئة».
قال الترمذي: وهذا حديث غريب حسن صحيح، وفي بعض النسخ: حسن.
قلت: وقوله غريب يعني ضعيف، وهو كذلك؛ فإن السند إلى ابن عباس واهٍ؛ فقد رواه عن عكرمة عنه كل من نزار بن حيان (و) سلام بن أبي عمرة وهما متروكان.
وقوله حسن صحيح؛ فباعتبار طرقه، حيث قال: وفي الباب عن: عمر، وابن عمر، ورافع بن خديج.
قلت: أما حديث ابن عمر؛ فقد نقل الخطيب في «التاريخ» (٥/٣٦٧) عن يحيى بن معين أنه قال فيه: «وهذا حديث منكر من هذا الوجه جداً كالموضوع». وأما عن عمر، ورافع بن خديج؛ فلم أقف عليها، فالله أعلم بحالها.
وقد وجدت له شاهداً من حديث واثلة بن الأسقع؛ أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (١٦٤٨): حدثنا أحمد قال: حدثنا معلل بن نفيل قال: حدثنا محمد بن محصن: عن الأوزاعي: عن مكحول: عنه يرفعه؛ بمثله.

قال أبو عمر: «سألت وكيعاً عن المرجئة، فقال: الذين يقولون: الإيمان قول».

وقال أبو قلابة: «لا تجالسوا أهل الأهواء، فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم، أو يلبسوا عليكم بعض ما تعرفون». وعن مصعب بن سعد قال: «لا تجالسوا مفتوناً، فإنه لن يخطئك منه إحدى خصلتين؛ إما أن يفتنك فتتابعه، أو يؤذيك قبل أن تفارقه».

وقال الشافعي: «المراء في العلم يقسي القلب، ويورث الضغائن»؛ وقال الشافعي أيضاً: «لأن يلقى الله العبدُ بكل ذنب ما خلا الشرك خير من أن يلقاه بشيء من الهوى».



= قلت: وهذا سند ساقط؛ محمد بن محصن العكاشي كذبه غير واحد، وروايته عن الأوزاعي مناكير.

هذا ما وقفنا عليه من طرق للخبر، وهي لا تنهض لتحسينه، فضلاً عن أن ترقى به إلى مصاف الصحاح، فلا يلتفت إلى تصحيح الترمذي، وقد ضعف الخبر شيخنا الألباني، والله أعلم.

يقول شيخ الإسلام في «الفرقان بين الحق والباطل» (ص ٥٧ ـ ٥٨): «وقد رويت أحاديث في ذم القدرية والمرجئة، روى بعضها أهل السنن كأبي داود وابن ماجه، وبعض الناس يثبتها ويقويها، ومن العلماء من يطعن فيها ويضعفها. ولكن الذي ثبت في ذم القدرية ونحوهم هو عن الصحابة كابن عمر وابن عباس».

٢٦

٢٦ ـ باب:
ما على الوالي من مراعاة أمر الرعية



عن أبي المليح: «أن عبيد الله بن زياد عاد معقل بن يسار في مرضه فقال له معقل: إني محدثك بحديث لولا أني في الموت لم أحدثك به، سمعت رسول الله ﷺ: ما من أمير يلي أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم ولا ينصح إلا لم يدخل معهم الجنة». وعن عبدالله بن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «ألا كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته؛ فالأمير الذي على الناس راع عليهم وهو مسؤول عنهم، والرجل راع على أهل بيته، وهو مسؤول عنهم، وامرأة الرجل راعية على بيت بعلها وولدها وهي مسؤولة عنهم وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسؤول عنه، فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».

وعن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «أوصي الخليفة من بعدي بتقوى الله، وأوصيه بجماعة المسلمين أن يعظم كبيرهم، ويرحم صغيرهم، ويوقر عالمهم، وأن لا يضربهم فيذلهم، ولا يوحشهم فيكفرهم، وأن لا يخصيهم فينقطع نسلهم، وأن لا يغلق بابه دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم»[1]. وقد روي ما في هذا الحديث في أخبار متفرقة قد ذكرناها في غير هذا الموضع.



(١) أخرجه: المصنف في «الكبرى» (١٦٤٢١) ـ من طريق: يزيد بن هارون: أنبأ العوام بن حوشب: عن شهر بن حوشب: عن أبي أمامة الباهلي ـ به.
قلت: وهذا سند ضعيف، من أجل شهر.

٢٧

٢٧ ـ باب: طاعة الولاة ولزوم الجماعة وإنكار المنكر بلسانه أو كراهيته بقلبه والصبر على ما يصيبه من سلطانه



قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩]، وقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ [النساء: ١١٥].

عن ابن عباس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩]؛ نزلت في عبدالله بن حذافة بن قيس بن عدي السهمي، بعثه ﷺ سرية».

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله ومن يعصني فقد عصى الله؛ ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعص الأمير فقد عصاني». وعن عبد الله: عن النبي ﷺ قال: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية؛ فإذا أمر بمعصية، فلا سمع ولا طاعة».

وعن أم سلمة ـ زوج النبي ﷺ ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «سيكون عليكم أئمة (وفي لفظ: يعمل عليكم أمراء بعدي) تعرفون منهم وتنكرون، فمن أنكر [بلسانه] فقد برىء، ومن كره بقلبه (وفي لفظ: فمن كره فقد برىء، ومن أنكر) فقد سلم، ولكن من رضي وتابع؛ فقيل فمن كره (وفي

لفظ: قالوا): يا رسول الله، أفلا نقاتلهم؛ قال: لا، ما صلوا».

قال الحسن: «فمن أنكر بلسانه فقد برىء»، وقد ذهب زمان هذه؛ «ومن كره بقلبه فقد جاء زمان هذه». [ثم قال قتادة: يعني: من أنكر بقلبه، وكره بقلبه].

عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بها، ثم يخلف من بعدهم خلوفٌ يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون؛ فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن؛ وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل».

وعن ابن عباس يرويه: عن النبي ﷺ قال: «من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً إلا مات ميتة جاهلية».

عن زيد بن ثابت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نضر الله امرأ سمع حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ورب حامل فقه ليس بفقيه؛ ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة والأمر، ولزوم الجماعة، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم».



٢٨

٢٨ ـ باب: معرفة جمل ما كلف المؤمنون أن يعقلوه ويعملوه ويعطوا من أنفسهم وأموالهم وأن يكفوا عنه ما حرم عليهم منه



قال الله ـ جل ثناؤه ـ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، وقال: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، وقال: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾، وعلقه بالاستطاعة في آية أخرى، وهي البلوغ والزاد والراحلة وتخلية الطريق، وأمر بالجهاد وحض عليه حتى يقوم به من فيه الكفاية في غير آية من كتابه وحرم الفواحش والربا والقتل والظلم وقطيعة الرحم في غير موضع.

عن عكرمة بن خالد قال: «جاء رجل إلى ابن عمر فقال: يا أبا عبدالرحمٰن، ألا تغزو؟، فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان».

عن ابن الخصاصية أنه قال: «أتيت رسول الله ﷺ لأبايعه على الإسلام؛ فاشترط علي: تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتصلي الخمس، وتصوم رمضان، وتؤدي الزكاة، وتحج البيت، وتجاهد في سبيل الله.

قال: قلت: يا رسول الله، أما اثنتان فلا أطيقهما؛ إيتاء الزكاة فمالي إلا عشر ذَود هن رِسل أهلي وحمولتهم، وأما الجهاد فيزعمون أنه من ولى فقد باء بغضب من الله، فأخاف إذا حضرني قتالٌ كرهت وجشعت نفسي؛

قال: فقبض رسول الله ﷺ يده ثم حركها؛ ثم قال: لا صدقة ولا جهاد فبم تدخل الجنة؟؛ قال: ثم قلت: يا رسول الله، أبايعك؛ فبايعني عليهن كلهن»(١).

عن أبي أيوب الأنصاري: «أن رجلاً قال: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة، فقال القوم: ما له؟، فقال رسول الله ﷺ: دعوه، أَرَبٌ ما له!!؛ فقال ﷺ: تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم؛ ذرها!ـ قال: كأنه كان على راحلته ـ».

عن أبي عمرو الشيباني قال: «أخبرني صاحب هذه الدار ـ وأومأ بيده إلى دار عبدالله ـ قال: سألت النبي ﷺ: أي العمل أحب إلى الله؟، قال: الصلاة لوقتها؛ قلت: ثم أيٌّ؟، قال: بر الوالدين؛ قلت: ثم أيٌّ؟، قال: الجهاد في سبيل الله. قال: حدثني بهن، ولو استزدته لزادني».

عن أنس قال: «سئل رسول الله ﷺ عن الكبائر؛ فقال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، وشهادة الزور ـ أو قال: قول الزور ـ».
وعن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات قيل: يا رسول الله، وما هن؟؛ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات».

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يسرق السارق حين

---

(١) أخرجه: أحمد (٢٢٠٠٢)، والحاكم (٢٤٢١)، والمصنف في «الكبرى» (١٧٥٧٤)، والطبراني في «الكبير» (١٢٣٣)، وفي «الأوسط» (١١٤٨)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١/١٩٤) ـ من طريقين: عن جبلة بن سُحيم: عن أبي المثنى العبدي: عن ابن الخصاصية السدوسي قال؛ فذكره.
ـ قال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه؛ ووافقه الذهبي.
قلت: هو كذلك، لولا أن أبا المثنى العبدي ـ واسمه: مؤثر بن عَفازَة ـ، قال فيه الحافظ في «التقريب»: مقبول ـ يعني: حيث يُتابع، وإلا فلين الحديث ـ.
أقول: ولم أقف له على متابع ـ بل ذكر ابن عبدالبر أنه تفرد به ـ، فبقي السند ضعيفاً. والله أعلم.

يسرق وهو مؤمن، ولا يزني زان حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الحدود أحدكم - يعني: الخمر - حين يشربها وهو مؤمن. والذي نفس محمد بيده لا ينتهب أحدكم نهبة ذات شرف يرفع إليه المؤمنون أعينهم فيها حين ينتهبها وهو مؤمن، ولا يغل أحدكم حين يغل وهو مؤمن؛ فإياكم، وإياكم».

قال الشيخ - رضي الله عنه -: وإنما أراد - والله أعلم - أن هذه الأفعال ليست من أفعال من يكون مؤمناً مستكمل الإيمان.

وكان الزهري يقول: «من الله القول، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم»، وقال أيضاً: «وكانوا يجرون الأحاديث عن رسول الله ﷺ كما جاءت تعظيماً لحرمات الله، ولا يعدون الذنوب شركاً ولا كفراً».

قال عبدالله - يعني: ابن عمر -: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «ألا أي شهر تعلمونه أعظم حرمة؟، قالوا: شهرنا هذا؛ قال: أي بلد تعلمونه أعظم حرمة؟، قالوا: بلدنا هذا؛ قال: أتعلمون أي يوم أعظم؟، قالوا: يومنا هذا؛ قال: فإن الله تعالى حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم، إلا بحقها كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا؛ إلا هل بلغت - ثلاثاً -؟، كل ذلك يجيبونه: ألا نعم!».

عن تميم الداري قال: قال رسول الله ﷺ: «الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم».

عن أبي أمية الشعباني قال: «أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت: كيف تصنع بهذه الآية قال: أية آية؟، قلت: قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾؛ قال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: «بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه، ورأيت أمراً لا يدان لك به؛ فعليك نفسك ودع عنك أمر العوام فإن من ورائك أياماً الصبر فيهن مثل قبض على الجمر؛ للعامل فيهن كأجر

خمسين رجلاً يعملون مثل عمله»»[1].

قال الشيخ: وأما ما ينوب العباد من فروع الفرائض وما يخص من الأحكام وغيرها، فما ليس فيه نص كتاب ولا في أكثره نص سنة ـ وإن كانت في شيء منه سنة ـ فإنما هي من أخبار الخاصة، وما كان منه يحتمل التأويل، ويستدرك قياساً، فقد قال الشافعي ـ رحمه الله ـ: هذه درجة من العلم ليس يبلغها، وإذا قام بها من خاصتهم من فيه الكفاية لم يجرح غيره ممن تركها ـ إن شاء الله تعالى ـ واحتج في ذلك بقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة: ١٢٢]، وجعل مثال ذلك الجهاد في سبيل الله والصلاة على الجنائز

---

(١) ضعيف؛ أخرجه: البخاري في «خلق الأفعال» (١٧٠)، وأبو داود (١٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨)، وابن ماجه (٤٠١٤)، وابن جرير في «تفسيره» (١٠/١٤٥ ـ ١٤٦)، والطحاوي في «المشكل» (٢/٦٤ ـ ٦٥)، وابن حبان (١٨٥٠)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢/٧/١٨) ـ من طرق: عن عتبة بن أبي حكيم قال: حدثني عمرو بن جارية اللخمي قال: حدثني أبو أمية الشعباني قال؛ فذكره.

ـ قال الترمذي: حديث حسن غريب.

ـ قال شيخنا في «الضعيفة» (١٠٢٥): «كذا قال، وفيه عندي نظر؛ فإن عمرو بن جارية وأبا أمية لم يوثقهما أحد من الأئمة المتقدمين، غير ابن حبان، وهو متساهل في التوثيق... ثم إن عتبة بن أبي حكيم فيه خلاف من قبل حفظه، وقال الحافظ فيه: صدوق يخطىء كثيراً.

فلا تطمئن النفس لتحسين إسناد هذا الحديث، لا سيما والمعروف في تفسير الآية يخالفه في الظاهر؛ وهو: ما أخرجه أصحاب السنن وأحمد، وابن حبان في صحيحه(١٨٣٧)، وغيرهم ـ بسند صحيح: عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: أنه قام فحمد الله، ثم قال: يا أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه، يوشك أن يعمهم الله بعقابه.

وقد خرجته في «الصحيحة» (١٥٦٤)، لكن لجملة «أيام الصبر» شواهد خرجتها في الصحيحة أيضاً، فانظر تحت الحديثين (٤٩٤ و٩٥٧)».

ودفنها ورد السلام، وغير ذلك من فرائض الكفايات.

قال الشيخ: وإذا عرف العبد ما تعبد به، فحق عليه أن يطلب موافقة الأمر في ما تعبد به ويخلص له النية فيما يعمله من العبادات ويدعه من المنكرات حتى يكون مطيعاً للأمر ممتثلاً؛ قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

وقال النبي ﷺ: [ـ فيما رواه عنه عمر بن الخطاب ـ]: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله؛ ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها؛ فهجرته إلى ما هاجر إليه».



٢٩

٢٩ ـ باب:
القول في إثبات نبوة محمد المصطفى ﷺ



وهو: أبو القاسم محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب؛ سماه الله محمداً وأحمد ﷺ، وسماه أسماء أخر ذكرناها في كتاب «الدلائل».

ودلائل النبوة كثيرة والأخبار بظهور المعجزات ناطقة، وهي ـ وإن كانت في آحاد أعيانها غير متواترة ـ، ففي جنسها متواترة متظاهرة من طريق المعنى؛ لأن كل شيء منها مشاكل لصاحبه في أنه أمر مزعج للخواطر ناقض للعادات، وهذا أحد وجوه التواتر الذي يثبت بها الحجة، وينقطع بها العذر.

وقد جمعناها في كتاب مع بيان ما جرى عليه أحوال صاحب المعجزة أيام حياته ﷺ في خمسين جزء، ونحن نشيرها هنا ـ إن شاء الله ـ في معجزاته ودلائل نبوته إلى ما يليق بهذا الكتاب على طريق الاختصار.

فمن دلائل نبوته التي استدل بها أهل الكتاب على صحة نبوته: ما وجدوا في التوراة والإنجيل وسائر كتب الله المنزلة من ذكره ونعته وخروجه بأرض العرب، وإن كان كثير منهم قد حرَّفوها عن مواضعها.

عن عطاء بن يسار: عن ابن سلام أنه كان يقول: «إنا لنجد صفة رسول الله ﷺ: إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين أنت عبدي ورسولي سميته المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق ولا يجزي بالسيئة مثلها ولكن يعفو ويتجاوز ولن أقبضه حتى يُقيم الملة

المتعوجة بأن تشهد أن لا إله إلا الله يفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً».

وقال عطاء بن يسار: أخبرني الليثي أنه سمع كعب الأحبار يقول مثل ما قال عبدالله بن سلام.

فهذان عالمان من أهل الكتاب شهدا ببعض ما وجدا في كتبهم من صفة محمد ﷺ ولهذا شواهد عنهما وعن غيرهما ذكرناها في كتاب «الدلائل».

ورويناه: عن زيد بن عمرو بن نفيل: «أنه خرج يبتغي الدين حتى أتى على شيخ بالجزيرة فأخبره بالذي خرج له، فقال: ممن أنت؟، فقال: من أهل بيت الله، قال: فإنه قد خرج في بلدك نبي وهو خارج قد طلع نجمه، فارجع فصدقه وآمن به». وروينا معناه في حديث سلمان الفارسي وغيره.

ومن دلائله: ما حدث بين يدي أيام مولده ومبعثه ﷺ، من الأمور الغريبة والأكوان العجيبة القادحة في سلطان أمة الكفر، والموهنة لكلمتهم، المؤيدة لشأن العرب، المنوهة بذكره كأمر الفيل، وما أحل الله بحزبه من العقوبة والنكال، ومنها: خمود نار فارس، وسقوط شُرُفات إيوان كسرى، وغيض ماء بحيرة ساوة، ورؤيا الموبدان، وغير ذلك.

ومنها: ما سمعوه من الهواتف الصارخة لا من باب الكون والارتفاق لا ـ والذي بعثه بالحق، وسخر له هذه الأمور ـ ما يرتاب عاقل في شيء من ذلك، وإنما هو أمر إلهي وشيء غالب سماوي ناقض للعادات، يعجز عن بلوغه قوى البشر ولا يقدر عليه إلا من ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

قال: وقد انتظم جملة ما ذكرناه في هذا الفصل قوله سبحانه: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال: ٦٣].

قال: ومن دلائل نبوته ﷺ: أنه كان رجلاً أمياً لا يخط كتاباً بيده،

ولا يقرؤه؛ ولد في قوم أميين، ونشأ بين ظهرانيهم في بلد ليس بها عالم يعرف أخبار المتقدمين، وليس فيهم منجم يتعاطى علم الكوائن، ولا مهندس يعرف التقدير، ولا فيلسوف يبصر الطبائع، ولا متكلم يهتدي لرسوم الجدل ووجوه المحاجة والمناظرة والاستدلال بالحاضر على الغائب، ولم يخرج في سفر ضارباً إلى عالم، فيعكف عليه ويأخذ منه هذه العلوم، وكل هذا معلومٌ عند أهل بلده، مشهورٌ عند ذوي المعرفة والخبرة بشأنه؛ يعرفه العالم والجاهل والخاص والعام منهم.

فجاءهم بأخبار التوراة والإنجيل والأمم الماضية، وقد كان ذهب معالم تلك الكتب، ودرست، وحرفت عن مواضعها، ولم يبق من المتمسكين بها، وأهل المعرفة بصحيحها من سقيمها إلا القليل، ثم حاج كل فريق من أهل الملل المخالفة له بما لو احتشد له حذاق المتكلمين وجهابذة المحصلين لم يتهيأ لهم نقض شيء منه، فكان ذلك من أدل شيء على أنه أمر من عند الله ـ عز وجل ـ، وهذا هو معنى قوله ـ سبحانه ـ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: ٥١]؛ ففيه إشارة إلى ما اقتصصنا من حاله، ووصفنا من أمره في أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب، ولم يعرف بدرس الكتب وطلب الأخبار، وإنما هو شيء أنزله الله عليه، فهو يتلوه عليهم، وكفى به دلالة على صحة أمره وصدق دعواه.

ومن دلائل نبوته، وصدقه فيما جاء به من عند الله سبحانه من القرآن العظيم: أنه تحدى الخلق بما في القرآن من الإعجاز ودعاهم إلى معارضته والإتيان بسورة مثله، فنكلوا عنه وعجزوا عن الإتيان بشيء منه.

واختلف أهل العلم في إعجاز القرآن:

ـ منهم من قال: إعجازه من جهة البلاغة وحسن اللفظ دون النظم.

ـ ومنهم من قال: إعجازه في نظمه دون لفظه؛ فإن العرب قد تكلمت بألفاظه.

ـ ومنهم من قال: إعجازه في أخباره عن الحوادث وإنذاره بالكوائن

في مستقبل الزمان، ووقوعها على الصفة التي أنبأ عنها.

ـ ومنهم من قال: إعجازه في أن الله أعجز الناس عن الإتيان بمثله، وصرف الهمم عن معارضته مع وقوع التحدي، وتوفر الدواعي إليه، لتكون آية للنبوة، علامة لصدقه في دعواه.

ـ وقد ذهب بعض العلماء إلى إثبات الإعجاز للقرآن من جميع هذه الوجوه.

ولا معنى لقول من زعم أن الإعجاز في لفظه لأن الألفاظ مستعملة في كلام العرب ومتداولة في خطابها؛ لأن البلاغة ليست في أعيان الأسماء ومفرد الألفاظ حسبُ دون أن تكون هذه الأوضاع معتبرة بمحالها ومواضعها المصرفة إليها والمستعملة فيها.

قال الشيخ أبو سليمان ـ رحمه الله ـ: وبيان ذلك أن العرب قد تعرف لفظ الصدع في لغتها، وتتكلم بها في خطابها، ثم إنك لا تجده مستعملاً في مثل قوله: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحجر: ٩٤]، ويستعمل اسم الضرب، ثم لا تجد لهم مستعملاً في مثل قوله: ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا ﴿١١﴾﴾ [الكهف: ١١]، وكذلك لفظ النبذ، ثم لا تجد لهم في مثل قوله تعالى: ﴿فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾ [الأنفال: ٥٨]، إلى ما يجمع هذا الكلام من الوجازة والاختصار وحذف المقتضى وإعمال الضمير والاقتصار على الوحي المفهم، وكقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس: ٣٧]، فإن حقيقته: نخرج منه النهار، إلا أن موضع البلاغة هاهنا هو السلخ، إنه إخراج الشيء مما لابسه وعسر انتزاعه منه لالتحامه به؛ ذلك قياس الليل ومثاله؛ وكقوله ـ عز وجل ـ: ﴿عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٥]، أي: يوم لا يعقب للمعذبين غداً، ولا ينتج لهم خيراً؛ قال: وقد استحسن الناس في الإيجاز قولهم: القتل أنفى للقتل، وبينه وبين قوله سبحانه: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ [البقرة: ١٧٦] تفاوت في البلاغة والإيجاز، وذلك أن في هذا الكلام ما في قولهم القتل أنفى للقتل وزيادة معان ليست فيه، منها: الإبانة عن

الفداء لذكر القصاص، ومنها: الإبانة عن الغرض المرغوب فيه لذكر الحياة، ومنها: بعده عن التكلف، وسلامته من تكرار اللفظ الذي فيه على النفس مشقة وعلى السمع مؤنة.

قال الشيخ: وقوله في القصاص حياة أوجز في العبارة، فإنه عشرة أحرف، وقول من قال القتل أنفى للقتل أربعة عشر حرفاً.

قال: وإذا تأملت هذه المعاني من القرآن وتتبعتها منه، كثر وجودك لها وإنما ذكرنا هذا القدر ليكون مثالاً مرشداً إلى نظائره منه.

وأما إعجازه من جهة النظم؛ فالمعجز منه نظم جنس الكلام الذي باين به القرآن سائر أصناف الكلام التي تكلمت بها العرب، فإن أجناس كلام العرب التي تكلمت بها خمسة: المنثور الذي تستعمله العرب في محاورة بعضهم بعضاً، والشعر الموزون، والخطب، والرسائل، والسجع، وكل نوع منها نمطه غير نمط صاحبه؛ ونظم كلام القرآن مباين لهذه الوجوه الخمسة مباينة لا تخفى على من يسمعه من عربي فصيح أو ذي معرفة بلسان العرب من غيرهم، حتى إذا سمعه لم يلبث أن يشهد بمخالفته لسائر هذه الأنواع من الكلام، والحجة إنما قامت على قريش وسائر العرب بوقوفهم على ذلك من أمره وأن هذا الفرق بينه وبين سائر الكلام هو موضع الحجة، وبذلك صار معجزاً للخلق وقائماً مقام الحجج التي بعث الله بها رسله واحتج بها على الناس مثل فلق البحر وإحياء الموتى ومنع النار من الإحراق، ولذلك قال ـ سبحانه ـ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٣ ـ ٢٤] ـ الآية.

وقال بعض العلماء: عن الذي أورده المصطفى ﷺ على العرب من الكلام الذي أعجزهم عن الإتيان بمثله أعجب من الآية وأوضح من الدلالة من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص؛ لأنه أتى أهل البلاغة وأرباب الفصاحة ورؤساء البيان المتقدمين في اللسان بكلام مفهوم المعنى عندهم،

فكان عجزهم أعجب من عجز من شاهد من المسيح إحياء الموتى؛ لأنهم لم يكونوا يطمعون فيه ولا في إبراء الأكمه والأبرص ولا يتعاطون علمه، وقريش كانت تتعاطى الكلام الفصيح والبلاغة والخطابة، فدل على أن العجز عنه إنما كان لأنه يصير علماً على رسالته وصحة نبوته، وهذه حجة قاطعة وبرهان واضح.

فإن قيل: فإن وجه ما يظهر به بينونة القرآن من سائر أنواع الكلام هو ما يقع من السجع في مقاطع الكلام ومنتهى الآيات، نحو قوله: ﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ۝٢﴾ [الطور: ١ ـ ٢]، وقوله: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ۝٢﴾ [النجم: ١ ـ ٢] وقوله: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢﴾ [الشمس: ١ ـ ٢]، وما أشبه ذلك من سور القرآن، والسجع في كلام العرب كثير غير عديم ولا غريب، فكيف جعلتم ذلك علماً للإعجاز؟

قيل: ليس شيء من هذا سجعاً، وإنما هي فواصل تفصل بين الكلامين بحروف متشاكلة في المقاطع تعين على حسن إفهام المعاني والفواصل بلاغة، والسجع عيب، وذلك أن الفواصل تابعة للمعاني، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة له، والسجع تكلف وليس فيه أكثر من تأليف أواخر الكلام على نمط لا يختلف؛ فمن شبه الفواصل التابعة لمعاني الكلام، المفيدة حسن الإفهام بالسجع الخالي عن المعنى المتتبع له المتكلف على سبيل الاستكراه، فقد ذهب عن الصواب، وأخطأ مذهب القياس.

وأما من ذهب إلى أن إعجازه لما فيه من الأخبار الصادقة عن الأمور الكائنة، فوجهه بين، وشواهده كثيرة؛ كقوله سبحانه: ﴿الم ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣﴾ [الروم: ١ ـ ٣]، فكان الأمر كما نطق به القرآن، فظهرت فارس على الروم فاغتم به المسلمون، وسر به المشركون، فوعد الله المسلمين بظهور الروم على فارس في بضع سنين، فظهروا عليها لتسع سنين، وقيل لسبع، وفرح المؤمنون بنصر الله أهل الكتاب.

وقال ـ عز وجل ـ في قصة بدر: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾﴾ [الأنفال: ٧]، فكان الأمر كما وعد من الظفر بإحدى الطائفتين دون الأخرى، وهو أنه ظفر بالمشركين الذين خرجوا من مكة ببدر وانفلت أبو سفيان بن حرب بالعير.

عن ابن عباس قال: «لما فرغ رسول الله ﷺ من القتلى ـ يعني: يوم بدر ـ؛ قيل له: عليك بالعير، ليس دونها شيء، فناداه العباس ـ وهو في وثاقه ـ: أنه لا يصلح لك، قال: لم؟، قال: لأن الله وعدك إحدى الطائفتين، وقد أنجز لك ما وعدك»(١).

قال الشيخ: وحين التقى هو والمشركون ببدر، قال ـ وهو في قبته ـ: «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم؛ فأخذ أبو بكر بيده، فقال: حسبك، حسبك يا رسول الله، فقد ألححت على ربك وهو في الدرع، فخرج وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر: ٤٥ ـ ٤٦]»، فتلا ما كان قد نزل من إخبار الله ـ تعالى ـ إياه بهزيمة المشركين، فكان كما أخبر.

وقال ـ تعالى ـ: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح: ٢٧]، فدخلوا المسجد الحرام على الصفة التي نطقت بها الآية في عمرة القضية، وكان ما

---

(١) أخرجه: أحمد (٢٠٢٢، ٢٨٧٥)، والترمذي (٣٠٨٠)، والحاكم (٣٢٦١)، وأبو يعلى (٢٣٧٣)، والطبراني في «الكبير» (١١٧٣٣) ـ من طرق: عن إسرائل: عن سماك: عن عكرمة: عن ابن عباس، به.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وقال الحاكم: صحيح الإسناد. وقال ابن كثير: إسناد جيد. وقال الألباني: ضعيف الإسناد.
قلت: فهذه مقالات أربعة، أصوبها ـ في نقدي ـ قول شيخنا ـ رحمه الله ـ؛ إذ أن رواية سماك عن عكرمة مضطربة ـ كما قال ابن المديني والفسوي ـ، فالسند ـ على ذلك ـ ضعيفٌ.

وعده الله في هذه السورة من الفتح القريب هو فتح خيبر، وقيل: الصلح بالحديبية، وقال: ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ [الفتح: ١٨]، قيل: فتح خيبر. ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [الفتح: ٢١] هو ما أصابوا بعده، وقال تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]، وقد وقع الظهور والغلبة ـ بحمد الله ـ.

قال الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ: «قد أظهر الله دينه الذي بعث به رسوله ﷺ على الأديان بأن أبان لكل من سمعه أنه الحق وما خالفه من الأديان باطل، وأظهره بأن جماع الشرك دينان أهل الكتاب ودين الأميين، فقهر رسول الله الأميين حتى دانوا بالإسلام طوعاً وكرهاً، وقتل من أهل الكتاب وسبى حتى دان بعضهم بالإسلام، وأعطى بعض الجزية صاغرين وجرى عليهم حكمه ﷺ وهذا ظهور الدين كله[1].

وقال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى

---

(١) قلت: بل هذا بعض الظهور، فإن جزءاً كبيراً من المعمور لم يكن إذ ذاك معروفاً، وقد أخبر المصطفى ـ صلوات ربي وسلامه عليه ـ أنه لا يبقى بيت بادية ولا حاضرة إلا دخله هذا الدين، وأنه بالغٌ ما بلغ الليل والنهار ـ أي: أنه يصل إلى جميع بقاع الأرض ـ؛ حيث قال ﷺ: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مَدَر ولا وَبَر إلا أدخله الله هذا الدين ـ بعزّ عزيز، أو بذلّ ذليل ـ؛ عزًّا يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل به الكفر».

ـ يقول ناصر الحديث العلامة الألباني ـ رحمه الله ـ عند قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٣]:

«تبشرنا هذه الآية الكريمة بأن المستقبل للإسلام بسيطرته وظهوره وحكمه على الأديان كلها، وقد يظن بعض الناس أن ذلك قد تحقَّق في عهده ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين والملوك الصالحين، وليس كذلك؛ فالذي تحقَّق إنما هو جزء من هذا الوعد الصادق؛ كما أشار إلى ذلك النبي ﷺ بقوله: ....»؛ ثم ساق طائفة طيبة من الأحاديث النبوية الثابتة، منها ذاك الذي صدرنا به القول؛ ومن شاء الاستزادة فعليه بـ «الصحيحة» (٣١ ـ ٣٦).

ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥]، فوعدهم في حال الخوف والشدة وغلبة أهل الكفر ظهورهم واستخلافهم في الأرض وتمكينهم من القيام بأمور دينهم الذي ارتضى لهم، وتبديلهم من الخوف بالأمن، ففعل به وبأصحابه وأتباعه جميع ما وعدهم به، وفي ذلك دليلٌ على صحة نبوته وصدقه في دعوته ﷺ وعلى آله».

عن أبي بن كعب قال: «لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآواهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه؛ فقالوا: ترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله، فنزلت: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ قرأ إلى قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ - يعني: بالنعمة - ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]».

قال الشيخ: وفي مثل هذا المعنى قوله - عز وجل -: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةًۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [النحل: ٤١ - ٤٢]؛ زعم بعض أهل التفسير أنها نزلت في المعذبين بمكة حين هاجروا إلى المدينة بعدما ظلموا، فوعدهم الله في الدنيا حسنة - يعني بها: الرزق الواسع -، فأعطاهم ذلك؛ فروي أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كان إذا أعطى الرجل عطاءه من المهاجرين يقول: «خذ بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله في الدنيا، وما ادَّخر لك في الآخرة أفضل».

وحين امتنع أبو لهب من الإسلام، وقال لرسول الله ﷺ ما قال؛ أنزل - عز وجل - فيه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾﴾ [المسد: ١ - ٣]. فمات أبو لهب على شركه، وصُلِّي النار بكفره؛ وإنما أنزلت وأبو لهب حي، فلم يمكنه مع حرصه على تكذيب رسول الله ﷺ، ونقض كلمته أن يظهر الإسلام ليشكك الناس في النبي عليه السلام، وفيما أخبرهم من

شأنه. ولا يجوز أن يقع هذه الأمور على الاتفاق وتستمر على الصدق، فلا يختلف شيء منها، إلا أن يكون من قبل الله علام الغيوب.

وأما الصرفة والتعجيز ـ مع توهم القدرة منهم على الإتيان بمثله ـ، فإنما يعلم ذلك بعدم المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة إليه؛ وذلك ما لا يجوز أن يشك فيه عاقل من أنهم لو كانوا قادرين عليه لبادروا إليه ـ مع حرصهم على إبطال دعوته ونقض كلمته ـ، ولما خرجوا في أمره إلى نصب القتال والتغرير بالأنفس، وإتلاف الأموال، ومفارقة الأهل والأوطان، ولكان ذلك أيسر عليهم من مباشرة هذه الخطوب، ومقاساة هذه الشدائد والكروب؛ فلما لم يفعلوه دلّ على عجزهم عن ذلك وسبيل هذا سبيل رجل عاقل اشتد به العطش وبحضرته ماء، فجعل يتلوى من شدة الظمأ ولا يشرب الماء، فلا يشك شاك أنه عاجزٌ عن شربه أو ممنوع لسبب يعوقه عنه، وأنه لم يتركه اختياراً ـ مع توفر الدواعي له وشدة الحاجة منه إليه ـ؛ وهذا بيّنٌ، والحمد لله.

ومن دلائل صدقه: أنه كان من عقلاء الرجال عند أهل زمانه، وقد قطع القول فيما أخبر عن ربه ـ عز وجل ـ بأنهم لا يأتون بمثل ما تحداهم به فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ [البقرة: ٢٤]؛ فلولا علمه بأن ذلك من عند علاّم الغيوب، وأنه لا يقع فيما أخبر عنه خلافٌ، وإلا لم يأذن له عقله في أن يقطع القول في شيء بأنه لا يكون، وهو بعَرَض أن يكون.

وقد روينا في كتاب «الدلائل» من الأخبار التي وردت في قراءة النبي ﷺ بعض ما نزل عليه على المشركين الذين كانوا من أهل الفصاحة والبلاغة، وإقرارهم بإعجازه ما يكشف عْن جملة مما أشرنا إليه.

ونحن نقتصر هاهنا على ما [رواه] محمد بن كعب [حيث] قال: «حدثت أن عتبة بن ربيعة ـ وكان سيداً حليماً ـ قال ذات يوم وهو جالسٌ وحده في المسجد: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى هذا فأكلمه، فأعرض عليه أموراً لعلّه أن يقبل منها بعضها، ويكف عنا؟؛ قالوا: بلى، يا أبا الوليد؛ فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ في نادي قريش،

ورسول الله ﷺ جالسٌ ـ فذكر الحديث فيما قال له عتبة، وفيما عرض عليه من المال والملك وغير ذلك ـ؛ فلما فرغ عتبة قال رسول الله ﷺ: أفرغت يا أبا الوليد؟، قال: نعم؛ قال: فاسمع مني، قال: أفعل؛ فقال رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [فصلت: ١ ـ ٣]، فمضى رسول الله ﷺ يقرأها عليه، فلما سمعها عتبة أنصت لها، وألقى بيديه خلف ظهره معتمداً عليها يسمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة، فسجد فيها، ثم قال: سمْعت يا أبا الوليد؟، قال: سمعت؛ قال: فأنت وذاك.

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله، لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به؛ فلما جلس إليهم، قالوا: ما وراءك، يا أبا الوليد؟، قال: ورائي أني ـ والله ـ لقد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة؛ يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ».

وروينا هذا في حديث جابر؛ وفيه من الزيادة ـ فيما حكى عتبة لأصحابه ـ قال: «فأجابني بشيء والله ما هو سحر ولا شعر ولا كهانة؛ قرأ: بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾﴾ حتى بلغ ﴿فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةً مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١ ـ ٣]، فأمسكت بفيه وناشدته الرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخفت أن ينزل بكم العذاب».

وروينا عن عكرمة: عن ابن عباس (و) عن عكرمة مرسلاً في قصة الوليد بن المغيرة: «أنه قال لرسول الله ﷺ: اقرأ علي، فقرأ عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠]، قال: أعد، فأعاد النبي ﷺ؛ فقال: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر،

وإن أسفله لمغدق؛ وقال لقومه: والله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه، ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه هذا الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله؛ وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته».

وروينا في حديث أم سلمة ـ في قصة دخول جعفر بن أبي طالب على النجاشي، وقوله للنجاشي: «بعث الله إلينا رسولاً يعرف نسبه وصدقه وعفافه، وتلى عليه تنزيلاً لا يشبهه شيء غيره».

والأخبار الصحيحة المشهورة المروية من طرق شتى في معجزات رسول الله ﷺ كثيرةٌ، وهي في كتاب «دلائل النبوة» مكتوبةٌ، والمعرفة بها لمن وقف عليها وأمعن النظر فيها حاصلةٌ؛ وإنما يذكر في هذا الكتاب من الدلائل أطرافها، ومن الآيات والمعجزات ما يكون بُلغةً لمن لم يصل إلى معرفة جميعها.

فمنها: ما رواه أنس بن مالك: «أن أهل مكة سألوا نبي الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر مرتين». وعن عبدالله ـ يعني: ابنَ مسعود ـ قال: «انشق القمر بمكة حتى صار فرقتين؛ فقال كفار مكة: هذا سحرٌ سحركم به ابن أبي كبشة، انظروا السُّفَّار، فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق، وإن كانوا لم يروا ما رأيتم فهو سحرٌ سحركم به. فقال: فسئل السُّفَّار وقدموا من كل وجه، فقالوا: رأينا».

ومنها: عن ابن عمر: «أن رسول الله ﷺ كان يخطب إلى جذع، فلما اتخذ المنبر، حن الجذع فأتاه فالتزمه (وفي لفظ: فأتاه النبي ﷺ، فمسحه) [فسكن]». وعن جابر بن عبدالله قال: «كان المسجد في زمان رسول الله ﷺ مسقوفاً على جذوع من نخل، فكان رسول الله ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع، فلما صنع المنبر كان عليه، فسمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العِشار حتى جاءها ﷺ، فوضع يده عليها، فسكنت [وفي رواية: فنزل رسول الله ﷺ، فضمها إليه؛ كانت تئن أنين الصبي الذي يُسكَّت،

كانت تبكي على ما تسمع من الذكر عندها]».

وفي حديث سهل بن سعد الساعدي، فقال رسول الله ﷺ: «ألا تعجبون من حنين هذه الخشبة؛ فأقبل الناس عليها، فرقوا من حنينها حتى كثُر بكاؤهم». وفي حديث ابن عباس: عن النبي ﷺ قال: «لو لم أحتضنه، لحن إلى يوم القيامة». وفي حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ معنى قول ابن عباس، وفي حديثه هذا في هذه القصة: «فلما قعد رسول الله ﷺ على ذلك المنبر خار الجذع كخوار الثور، حتى ارتج المسجد بخواره».

وفي حديث أم سلمة: فلما فقدته ـ تعني: الخشبة ـ خارت كما يخور الثور حتى سمعها أهل المسجد».

وأمر الحنانة من الأمور الظاهرة والأعلام الباهرة التي أخذها الخلف عن السلف، ورواية الأحاديث فيه كالتكلف.

قال عمرو بن أبي سواد: «قال لي الشافعي ـ رحمه الله ـ: ما أعطى الله ـ عز وجل ـ نبياً ما أعطى محمداً ﷺ، فقلت: أعطى عيسى ـ عليه السلام ـ إحياء الموتى؛ فقال: أعطي محمد ﷺ الجذع الذي كان يخطب إلى جنبه حتى هيء له المنبر، فلما هيء له المنبر حن الجذع حتى سمع له صوتٌ؛ فهذا أكبر من ذاك».

عن عبدالله قال: «إنكم تعدون الآيات عذاباً، وكنا نعدها بركة على عهد رسول الله ﷺ، قد كنا نأكل مع النبي ﷺ الطعام، ونحن نسمع تسبيح الطعام؛ وأتى النبي ﷺ بإناء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه؛ فقال النبي ﷺ: «حي على الطهور المبارك، والبركة من السماء»، حتى توضأنا كلنا».

وروينا في حديث أبي ذر تسبيح الحصيات في كف رسول الله ﷺ، ثم في يد أبي بكر، ثم في يد عمر، ثم في يد عثمان(١).

---

(١) أخرجه: المصنف في «دلائل النبوة»، وخيثمة الأطرابُلسي في «فضائل الصحابة» (١٠٧/٣ ـ ١٠٨) ـ كما أفاده محقق «التاريخ» ـ من طريق: قريش بن أنس: ثنا =

منها:

- عن سالم بن أبي الجعد قال: «قلت لجابر: كم كنتم يوم الشجرة؟؛ قال: كنا ألفاً وخمس مائة - وذكر عطشاً أصابهم -؛ قال: فأتي رسول الله ﷺ بماء في قدر، فوضع يده فيه، فجعل الماء يخرج من بين أصابعه كأنه العيون؛ قال: فشربنا [وتوضأنا]، ووسعنا، وكفانا؛ وفي لفظ: فتوضأ الناس وشربوا، وفي رواية أنه قال: وجعلت لا آلو ما جعلت في

= صالح بن أبي الأخضر: عن الزهري: عن رجل - يقال له: سويد بن زيد السلمي - قال: سمعت أبا ذر يقول... [؛ فساق خبراً طويلاً، فيه ذكر تسبيح الحصيات].

- قال الذهبي في «تاريخ الإسلام» (٢/٣٥٢ - ٣٥٣): صالح لم يكن حافظاً، والمحفوظ رواية شعيب بن أبي حمزة: عن الزهري قال: ذكر الوليد بن الوليد بن سويد رجلاً من بني سُليم كبير السن كان ممّن أدرك أبا ذر بالرَّبذة ذكر له؛ فذكر هذا الحديث عن أبي ذر [وقد أسنده محمد بن يحيى الذهلي في «الزهريات»، كما نبّه على ذلك البيهقي].

قلت: وسبقه إلى التنبيه على شذوذ ابن أبي الأخضر، وترجيح رواية ابن أبي حمزة عليه البيهقي وابن عساكر؛ وأقرَّهما العماد ابن كثير في «تاريخه».

- قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/١٧٩): رواه الطبراني في «الأوسط»، وفيه محمد بن أبي حميد، وهو ضعيف؛ وله طريقٌ أحسن من هذا في «علامات النبوة»، وإسناده صحيحٌ.

- وقال في الموضع الذي أحال عليه (٨/٢٩٨ - ٢٩٩): رواه البزار بإسنادين، ورجال أحدهما ثقاتٌ، وفي بعضهم ضعفٌ.

- وقال ابن كثير في «التفسير» (٤/١٠٣) عن حديث أبي ذر هذا: وهو حديثٌ مشهورٌ في المسانيد.

- قال الذهبي: ويروى مثله: عن جبير بن نُفير (و) عن عاصم بن حُميد: عن أبي ذر، وجاء مثله: عن أنس من وجهين منكرين.

- قال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٦/١٣٢ - ١٣٣): وقال أبو نعيم في كتاب «دلائل النبوة»: وقد روى داود بن أبي هند: عن الوليد بن عبدالرحمٰن الجُرشي: عن جبير بن نفير: عن أبي ذر مثله؛ ورواه شهر بن حوشب (و) سعيد بن المسيب عن أبي سعيد. قال: وفيه عن أبي هريرة.

قلت: فهذه الطرق للخبر - عن: أنس، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وأبي ذر - لعلّها تحسّنه. والله أعلم..

بطني منه، وعلمت أنه بركة قال: قلت: كم كنتم؟، قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا ألفاً وخمسمائة». ورواه أيضاً عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ في بعض الروايات عنه: قول النبي ﷺ: «حي على الوضوء والبركة من الله، فأقبل الناس فتوضأوا وشربوا، وجعلت لا هم لي إلا ما أجعل في بطني من قول رسول الله ﷺ: والبركة من الله»».

وفي رواية ابن عباس قال: فرأيت العيون تنبع من بين أصابعه، قال: فأمر بلالاً ينادي في الناس: الوضوء المبارك».

وهذا يكون في وقت آخر، فإن ابن عباس لم يشهد الحديبية. ورواه أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه صنع ذلك، والأشبه أن ذلك كان بالمدينة.

عن أنس: «أن رسول الله ﷺ دعا بإناء من ماء، فأتي بقدح رحراح فيه شيء من ماء، فوضع أصابعه فيه؛ قال أنس: فجعلت أنظر إلى الماء ينبع من بين أصابعه؛ قال أنس: فحزرت من توضأ منه ما بين السبعين إلى الثمانين». وفي رواية: خرج النبي ﷺ إلى قباء؛ قال: حضرت الصلاة، فقام من كان قريب الدار إلى أهله يتوضأ، وبقي قوم؛ فذكر الحديث. وذكر عدد الثمانين وزيادة».

وفي كل ذلك دلالة على أنه كان في وقت آخر سوى ما رواه جابر ومن تابعه.

وروى قتادة: عن أنس: «أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا بالزوراء ـ والزوراء بالمدينة عند السوق والمسجد ـ، فدعا بقدح؛ فذكر الحديث غير أنه قال: قلت لأنس: يا أبا حمزة، كم كانوا؟؛ قال: زهاء ثلاثمائة».

فيشبه أن يكون هذا مرة أخرى.

وفي حديث زياد بن الحارث الصدائي: «أنه كان مع النبي ﷺ في بعض أسفاره، قال: فتبرز ثم انصرف إلي وقد تلاحق أصحابه، فقال: هل من ماء يا أخا صداء؟، فقلت: لا، إلا شيء قليل لا يكفيك؛ فقال ﷺ: اجعله في إناء، ثم ائتني به؛ ففعلت، فوضع كفه في الماء، فقال الصدائي:

فرأيت بين أصبعين من أصابعه عيناً تفور»[1].

---

(١) أخرجه: أبو داود (٥١٤، ١٦٣٠)، والترمذي (١٩٩)، وابن ماجه (٧٠٢)، وأحمد (١٧٠٨٣، ١٧٠٨٤)، والطبراني في «الكبير» (٥٢٨٦)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١٤٢/١)، والمصنف في «الكبرى» (١٧٣٥)، وابن سعد في «الطبقات» (٣٢٥/١)، والحارث في «مسنده» (٥٩٨ ـ زوائده)، والدارقطني (١٣٧/٢) والمزي في «تهذيب الكمال» (٢٠٣٢) ـ من طرق: عن عبدالرحمٰن بن زياد بن أنعم الأفريقي: عن زياد بن نعيم الحضرمي: عن زياد بن الحارث الصدائي قال:

«أتيت رسول الله ﷺ فبايعته على الإسلام، وأخبرت أنه بعث جيشاً إلى قومي؛ فقلت: يا رسول الله، أردد الجيش وأنا لك بإسلام قومي، فقال لي: «اذهب فردهم»؛ فقلت: يا رسول الله، إن راحلتي قد كلت، فبعث رسول الله ﷺ رجلاً فردهم.

قال الصدائي: وكتبت إليهم كتاباً، فقدم وفدهم بإسلامهم؛ فقال لي رسول الله ﷺ: «يا أخا صداء، إنك لمطاع في قومك»، فقلت: بل الله هو هداهم للإسلام؛ فقال لي رسول الله ﷺ: «أفلا أؤمرك عليهم»، فقلت: بلى، يا رسول الله؛ قال: «فكتب لي كتاباً»، فقلت: يا رسول الله، مر لي بشيء من صدقاتهم؛ قال: نعم، فكتب لي كتاباً آخر.

قال الصدائي: وكان ذلك في بعض أسفاره؛ فنزل رسول الله ﷺ منزلاً، فأتاه أهل ذلك المنزل يشكون عاملهم، ويقولون: أخذنا بشيء كان بيننا وبين قومه في الجاهلية؛ فقال نبي الله ﷺ: أوَ فعل؟، فقالوا: نعم؛ فالتفت النبي ﷺ إلى أصحابه ـ وأنا فيهم ـ، فقال: لا خير في الإمارة لرجل مؤمن؛ قال الصدائي: فدخل قوله في نفسي. ثم أتاه آخر؛ فقال: يا نبي الله، أعطني؛ فقال نبي الله ﷺ: «من سأل الناس عن ظهر غنى فصداع في الرأس وداء في البطن»، فقال السائل: فأعطني من الصدقة؛ فقال له رسول الله ﷺ: «إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها فجزأها ثمانية أجزاء، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك ـ أو: أعطيناك ـ حقك»؛ قال الصدائي: فدخل ذلك في نفسي، أني سألته من الصدقات وأنا غني.

ثم إن رسول الله ﷺ اعتشى من أول الليل فلزمته ـ وكنت قوياً، وكان أصحابه ينقطعون عنه، ويستأخرون حتى لم يبق معه أحد غيري ـ؛ فلما كان أوان أذان الصبح أمرني فأذنت، فجعلت أقول: أقيم، يا رسول الله؟، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ناحية المشرق إلى الفجر فيقول: لا!؛ حتى إذا طلع الفجر، نزل رسول الله ﷺ فتبرز، ثم انصرف إلي وقد تلاحق أصحابه؛ فقال: هل من ماء، يا أخا صداء؟ فقلت: لا، إلا شيء قليل لا يكفيك!؛ فقال النبي ﷺ: اجعله في إناء، ثم ائتني به، ففعلت. فوضع كفه في الماء ـ قال الصدائي: فرأيت بين كل أصبعين من أصابعه عيناً تفور ـ؛ فقال النبي ﷺ: لولا أني أستحيي من ربي لسقينا واستقينا، ناد في أصحابي من له حاجة في الماء؛ فناديت فيهم، فأخذ من أراد منهم. =

فهذا يكون خبراً عن قصة أخرى.

ومنها: عن البراء ـ رضي الله عنه ـ قال: «تعدون أنتم الفتح فتح مكة ـ وقد كان فتح مكة فتحاً ـ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان، نزلنا يوم الحديبية ـ وهي: بئر ـ، فوجدنا الناس قد نزحوها، فلم يدعوا فيها قطرة فذكر ذلك للنبي ﷺ، فجلس رسول الله ﷺ، فدعا بدلو، فنزع منها، ثم أخذ منه بفيه فمجه فيها، ودعا الله فكثر ماؤها حتى صدرنا وركائبنا، ونحن أربع عشرة مائة».

ورواه ـ أيضاً ـ سلمة بن الأكوع، والمسور بن مخرمة؛ وقد صنع مثل هذا رسول الله ﷺ بآبار، وقد ذكرنا صنعه بكل واحدة منها في كتاب «الدلائل».

وعن عمران بن حُصين قال: «سرى رسول الله ﷺ في سفر هو

= ثم قام رسول الله ﷺ، فأراد بلال أن يقيم فقال رسول الله ﷺ إن أخا صداء أذن ومن أذن فهو يقيم قال الصدائي فأقمت الصلاة فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة أتيته بالكتابين فقلت يا رسول الله أعفني من هذين فقال نبي الله ﷺ ما بدا لك فقلت سمعتك يا نبي الله تقول: لا خير في الإمارة لرجل مؤمن وأنا أؤمن بالله ورسوله، وسمعتك تقول للسائل: من سأل الناس عن ظهر غنى فهو صداع في الرأس، وداء في البطن، وسألتك وأنا غني، فقال رسول الله ﷺ هو ذاك فإن شئت فاقبل وإن شئت فدع فقلت أدع، فقال لي رسول الله ﷺ: «فدلني على رجل أؤمره عليكم فدللته على رجل من الوفد الذين قدموا عليه فأمره عليهم» ثم قلنا: يا نبي الله إن لنا بئراً إذا كان الشتاء وسعنا ماؤها واجتمعنا وإذا كان الصيف قل ماؤها تفرقنا على مياه حولنا وقد أسلمنا وكل من حولنا عدو لنا فادع الله في بئرنا أن يسعنا ماؤها فنجتمع عليها ولا نتفرق فدعا بسبع حصيات فعركهن في يده ودعا فيهن ثم قال: «اذهبوا بهذه الحصيات فإذا أتيتم البئر فألقوها واحدة واحدة واذكروا اسم الله» قال الصدائي ففعلنا ما قال لنا فما استطعنا بعد أن ننظر إلى قعرها ـ يعني: البئر ـ»؛ لفظ المزي، وساقه الحارث مطولاً كذلك، وهو مختصرٌ عند البقية.

قال الترمذي: وحديث زياد إنما نعرفه من حديث الإفريقي، والإفريقي هو ضعيف عند أهل الحديث.

قلت: فعلى ذلك يكون السند ضعيفاً؛ وإنما ذكرنا الخبر بطوله، لأنه قل أن يورد إلا مفرّقاً على الأبواب، فيظن أنه أحاديث متعددة، وليس كذلك. إضافة إلى ما حواه من معجزات تناسب الباب الذي نحن فيه.

وأصحابه؛ قال: فأصابهم عطش شديد؛ فأقبل رجلان من أصحابه قال: أحسبه علياً والزبير ـ أو غيرهما ـ، قال: إنكما ستجدان بمكان كذا وكذا امرأة معها بعير عليه مزادتان، فأتياني بها؛ قال: فأتيا المرأة؛ فوجداها ركبت بين مزادتين على البعير؛ فقالا لها: أجيبي رسول الله ﷺ، قالت: ومن رسول الله، أهذا الصابىء؟، قال: هو الذي تعنين، وهو رسول الله حقاً؛ فجاءا بها، فأمر النبي ﷺ فجعل في إناء من مزادتيها شيء، ثم قال فيه ما شاء الله أن يقول، ثم أعاد الماء في المزادتين، ثم أمر بغطاء المزادتين، ففتحت، ثم أمر الناس، فملؤها آنيتهم وأسقيتهم، فلم يدعوا يومئذ إناء ولا سقاء إلا ملؤوه.

قال عمران بن حصين: فكان يخيل إلي أنهما لم يزدادا إلا امتلاء؛ قال: فأمر النبي ﷺ بثوبها، فبُسط، ثم أمر أصحابه فجاؤوا من أزوادهم حتى ملأ لها ثوبها؛ ثم قال لها: اذهبي فإنا لم نأخذ من مائك شيئاً، ولكن الله سقانا..

قال: فجاءت أهلها، فأخبرتهم؛ فقالت: جئتكم من عند أسحر الناس، أو إنه لرسول الله حقاً؛ قال: فجاء أهل ذلك الحواء حتى أسلموا كلهم.

فكان المسلمون يُغيرون على من حولها من المشركين، ولا يصيبون الصرم الذي هي فيه، فقالت يوم لقومها: إن هؤلاء القوم عمداً يدعونكم، هل لكم في الإسلام؟، فأطاعوها، فجاؤوا جميعاً، فدخلوا في الإسلام».

قال الشيخ: وهذا لأنه ﷺ كان يرجو إسلامهم بما أرى المرأة منهم من معجزاته، فأخبرتهم بذلك، فعلموا تصديقه، فأسلموا.

وحديث الميضأة الذي رواه عمران، وأبو قتادة الأنصاري من هذا الباب؛ فإن النبي ﷺ قال لأبي قتادة: «أمعكم ماء؟»، قال: قلت: نعم، ميضأة فيها شيء من ماء؛ فتوضأ القوم وبقي في الميضأة جرعة فقال: ازدهر بها يا أبا قتادة فإنها سيكون لها شأن؛ فذكر الحديث في سيرهم.

فلما اشتدت بهم الظهيرة؛ قالوا: يا رسول الله، هلكنا عطشاً، قال:

«لا هُلك عليكم!»؛ ثم قال: «يا أبا قتادة، ائتني بالميضأة»، فأتيته بها؛ فقال: «حُل لي غمري» ـ يعني: قدحه ـ، فحللته فأتيته به، فجعل يصب فيه ويسقي الناس، [فلما رأى الناس ما في الميضأة تكالبوا عليها] فقال رسول الله ﷺ: «أحسنوا الملأ فكلكم سيصدر عن ري [كلكم سيروى]؛ فشرب القوم حتى لم يبق غيري وغيره، فصب لي فقال: «اشرب يا أبا قتادة»، قلت: اشرب أنت، يا رسول الله؛ فقال: «إن ساقي القوم آخرهم شرباً»!، فشربت ثم شرب بعدي، وبقي في الميضأة نحو ما كان فيها. وهم يومئذ ثلاث مائة [وفي رواية: تصديق عمران بن حصين عبدالله بن رباح في روايته]».

عن سلمة بن الأكوع قال: «غزونا مع رسول الله ﷺ، فأصابنا جهد شديد، حتى هممنا أن ننحر بعض ظهرنا، فقال رسول الله ﷺ: اجمعوا بعض مزاودكم، فأمر نبي الله ﷺ بنطع فمد، قال: فجاء القوم بشيء في أجربتهم فنبذوه؛ قال: فتطاولت أحزره حتى كم هو، فإذا هو كربضة الشاة ونحن أربع عشرة مائة!!؛ فأكلنا حتى شبعنا أجمعين قال: ثم تطاولت له بعدما شبع القوم أحزره كم هو، فإذا هو كربضة الشاة!!. قال: فحشونا جربنا منه؛ ثم أتي رسول الله ﷺ بنطفة في إداوة فصبها في قدح، فرفعنا منها حتى تطهرنا بأجمعنا [فتوضأنا كلنا ندغفقه دغفقة أربع عشرة مائة]، ثم جاء بعد ذلك ثمانية نفر، قالوا هل من وضوء؛ فقال رسول الله ﷺ: «فرغ الوضوء»». وروى أبو هريرة قصة الأزواد، وقال: «فدعا عليها حتى ملأ القوم أزودتهم».

وروي في مثل ذلك عن أبي عمرة الأنصاري، وعن أبي خنيس الغفاري، وعن ابن عباس؛ كلهم عن النبي ﷺ.

وعن جابر بن عبدالله: «أن أباه استشهد يوم أحد وترك ست بنات وترك عليه ديناً كثيراً؛ فلما حضر جداد النخل أتيت رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله، قل علمت أن والدي قد استشهد يوم أحد وترك عليه ديناً كثيراً فأنا أحب أن يراك الغرماء؛ قال: «اذهب فبيدِر كل تمر على حدة ففعلت ثم

دعوته، فلما نظروا إليه أغروا بي تلك الساعة فلما رأى ما يصنعون أطاف حول أعظمها بيدراً ثلاث مرات ثم جلس عليه، ثم قال: ادع أصحابك، فما زال يكيل لهم حتى أدى الله أمانة والدي وأنا والله راض أن يؤدي الله أمانة والدي ولا أرجع إلى إخواني بتمرة!، فسلم الله البيادر كلها حتى أني أنظر إلى البيدر الذي عليه رسول الله ﷺ كأنه لم ينقص منه تمرة واحدة».

وعن أنس بن مالك قال: «قال أبو طلحة لأم سليم: لقد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفاً أعرف فيه الجوع فهل عندك من شيء فقالت: نعم، فأخرجت أقراصاً من شعير، ثم أخذت خماراً لها فلفت الخبز ببعضه، ثم دسته تحت يدي ولاثتني ببعضه، ثم أرسلتني إلى رسول الله ﷺ؛ فذهبت به فوجدت رسول الله ﷺ جالساً في المسجد ومعه أناس فقمت عليهم، فقال رسول الله ﷺ: «أأرسلك أبو طلحة؟»، قال: فقلت: نعم؛ فقال: «طعام؟»، فقلت: نعم؛ فقال رسول الله ﷺ لمن معه: «قوموا ننطلق». قال: فانطلق وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة فأخبرته؛ قال أبو طلحة: يا أم سليم، قد جاء رسول الله ﷺ والناس وليس عندنا ما نطعمهم، فقالت: الله ورسوله أعلم!؛ قال: فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول الله ﷺ، فأقبل رسول الله ﷺ وأبو طلحة معه حتى دخلا؛ فقال رسول الله ﷺ: «هلمي ما عندك، يا أم سليم».

فجاءت بذلك الخبز فأمر به رسول الله ﷺ ففُت، وعصرت أم سليم عُكَّة لها فآدمته ثم قال فيه رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقول؛ ثم قال: «ائذن لعشرة»، فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا؛ ثم قال: «ائذن لعشرة» حتى أكل القوم كلهم وشبعوا ـ والقوم سبعون رجلاً أو ثمانون ـ [ثم هيأها، فإذا هي مثلها حين أكلوا منها؛ وأكل منها بضع وثمانون رجلاً، وفضل منها فضلٌ فدفعها إلى أم سليم، فقال: «كلي وأطعمي جيرانك»»].

وفي حديث جابر بن عبدالله: «أنه دعا رسول الله ﷺ على صاع من شعير وعناق، فدعا الله على القدر والتنور، فأكلوا وهم ثلاث مائة، قال: وأكلنا وأهدينا لجيراننا؛ فلما خرج رسول الله ﷺ ذهب ذلك».

قال الشيخ: وربو الطعام بتبريكه فيه حتى أكل منه عدد كثير وزيادة الماء بدعائه قد رويناهما من أوجه أخرى.

وفي حديث سمرة في القصعة التي كانت تمد من السماء، وفي حديث أبي أيوب فيما صنع من الطعام وفي الشاة التي اشتراها من الأعرابي، وفي اللبن الذي دعا عليه أهل الصفة وفي ما خلف على عائشة من الشعير، وفيما أعطى الرجل من الشعير، وفيما بقي عند المرأة من السمن في العُكّة.

وغير ذلك في سائر هذه الأحاديث وغيرها مما في معناها بأسانيدها مما يطول به الكتاب، وفيما أشرنا إليه كفايةٌ؛ وبالله التوفيق.

عن ابن مسعود قال: «كنت أرعى غنماً لعقبة بن أبي معيط، فمر بي رسول الله ﷺ وأبو بكر ـ رضي الله عنه ـ فقال: يا غلام، هل من لبن؟ قال: قلت: نعم، ولكني مؤتمن؛ فقال: هل [عندك] من شاة لم يتر عليها الفحل [بعدُ]، فأتيته بشاة [فأتيتهما بها، فاعتقلها أبو بكر، وأخذ رسول الله ﷺ الضرع، فدعا فحفل الضرع] فمسح ضرعها، فنزل لبن فحلبه في إناء، فشرب وسقى أبا بكر ثم قال: للضرع اقلص فقلص.

قال: ثم أتيته بعد هذا؛ فقلت: يا رسول الله، علمني من هذا القول فمسح رأسي وقال: يرحمك الله فإنك غُليّم معلم».

وقد صنع مثل هذا في غير موضع، وصنع ذلك بشاة أم معبد حين مر بها في الهجرة حتى قال فيه الهاتف الأبيات المذكورة في قصتها.

عن البراء بن عازب قال: «اشترى أبو بكر من عازب رحلاً بثلاثة عشر درهماً؛ فقال أبو بكر لعازب: مر البراء فليحمله إلى رحلي، فقال له عازب: لا، حتى تحدثني كيف صنعت أنت ورسول الله ﷺ حين خرجتما من مكة والمشركون يطلبونكما؛ قال: أدلجنا من مكة ليلاً فأحثثنا ليلتنا ويومنا حتى أظهرنا وقام قائم الظهيرة؛ فرميت ببصري هل أرى من ظل نأوي إليه، فإذا أنا بصخرة فأهويت إليها فإذا بقية ظلها فسويته لرسول الله ﷺ، ثم فرشت لرسول الله ﷺ فروة، ثم قلت: اضطجع يا

رسول الله، فاضطجع، ثم ذهبت أنظر ما حولي هل أرى من الطلب أحداً، فإذا براعي غنم يسوق غنمه إلى الصخرة يريد منها الذي أريد منها ـ يعني: الظل ـ، فسألته فقلت له: لمن أنت يا غلام؟، فقال: لرجل من قريش ـ فسماه، فعرفته ـ؛ فقلت: هل في غنمك من لبن؟، قال: نعم؛ قلت: هل أنت حالب لي؟، قال: نعم؛ فأمرته فاعتقل شاة من غنمه وأمرته أن ينفض ضرعها من التراب، ثم أمرته أن ينفض كفيه؛ فقال هكذا ـ فضرب إحدى كفيه على الأخرى ـ، فحلب لي كثبة من لبن وقد رويت معي لرسول الله ﷺ إداوة على فمها خرقة، فصببت على اللبن حتى برد أسفله؛ فأتيت رسول الله ﷺ، فوافيته وقد استيقظ فقلت: اشرب يا رسول الله ﷺ، فشرب حتى رضيت، ثم قلت: قد آن الرحيل يا رسول الله، قال: فارتحلنا والقوم يطلبوننا، فلم يدركنا أحد منهم غير سراقة بن مالك بن جعشم على فرس له؛ فقلت: هذا الطلب قد لحقنا، يا رسول الله؛ فقال: لا تحزن إن الله معنا، فلما أن دنا منا، وكان بيننا وبينه قيد رمحين أو ثلاثة قلت: هذا الطلب قد لحقنا، يا رسول الله؛ وبكيت، قال: لم تبكي؟ قال: فقلت: أما ـ والله ـ ما على نفسي أبكي ولكنني إنما أبكي عليك، قال: فدعا عليه رسول الله ﷺ؛ فقال: «اللهم اكفناه بما شئت»، فساخت به فرسه في أرض إلى بطنها [وفي رواية: أن أبا بكر قال:... واتبعنا سراقة بن مالك ونحن في جلد من الأرض فقلت: يا رسول الله، أتينا؛ فقال: «لا تحزن إن الله معنا»، فدعا عليه رسول الله ﷺ فارتطمت فرسه إلى بطنها]، فوثب عنها، ثم قال: يا محمد، قد علمت أن هذا عملك، فادع الله أن ينجيني مما أنا فيه، فوالله لأعمين على من ورائي من الطلب، وهذه كنانتي فخذ منها سهماً، فإنك ستمر بإبلي وغنمي بمكان كذا وكذا، فخذ منها حاجتك؛ فقال رسول الله ﷺ: «لا حاجة لنا في إبلكْ وغنمك»؛ ودعا له رسول الله ﷺ، فانطلق راجعاً إلى أصحابه، ومضى رسول الله ﷺ وأنا معه حتى قدمنا المدينة ليلاً».

وعن سراقة: «فذكر قصة خروجه خلف النبي ﷺ؛ حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ ـ وهو لا يلتفت ـ، وأبو بكر يكثر التلفت ساخت يداً

فرسي في الأرض حتى بلغت الركبتين، فخررت عنها ثم زجرتها، فنهضت، فلم تكد تخرج يداها؛ فلما استوت قائمة إذا غبار ساطع في السماء مثل الدخان؛ قال: فعرفت أنه منع مني وأنه ظاهر».

والأحاديث في دعائه على آحاد المشركين، ودعائه لآحاد المسلمين واستسقائه، ودعائه بالحبس، وإجابة الله تعالى إياه في مسائل كثيرة، وهي في كتاب الدلائل بأسانيدها مذكورة.

عن جابر قال: «خرجت مع رسول الله ﷺ في سفر، وكان رسول الله ﷺ إذا أراد البراز تباعد حتى لا يراه أحد؛ فنزلنا منزلاً بفلاة من أرض ليس فيها علم ولا شجر؛ فقال لي: يا جابر، خذ الإداوة وانطلق بنا، فملأت الإداوة ماء، وانطلقنا فمشينا حتى لا نكاد نرى، فإذا شجرتان بينهما أذرع، فقال رسول الله ﷺ: يا جابر، انطلق فقل لهذه الشجرة يقول لك رسول الله ﷺ: «الحقي بصاحبتك، حتى أجلس خلفكما»؛ ففعلت فزحفت حتى لحقت بصاحبتها، فجلس خلفهما حتى قضى حاجته، ثم رجعنا فركبنا رواحلنا، فسرنا فكأنما علينا الطير تظلنا، فإذا نحن بامرأة قد عرضت لرسول الله ﷺ معها صبي تحمله، فقالت: يا رسول الله، إن ابني هذا يأخذه الشيطان كل يوم ثلاث مرات لا يدعه، فوقف رسول الله ﷺ فتناوله فجعله بينه وبين مقدم الرحل، فقال رسول الله ﷺ: «اخسأ عدو الله، أنا رسول الله» فأعاد ذلك ثلاث مرات، ثم ناولها إيَّاه.

فلما رجعنا فكنا بذلك الماء، عرضت لنا المرأة معها كبشان تقودهما والصبي تحمله؛ فقالت: يا رسول الله، اقبل مني هديتي، فوالذي بعثك بالحق نبياً إن عاد إليه بعد؛ فقال رسول الله ﷺ: «خذوا أحدهما منها وردوا الآخر».

ثم سرنا ورسول الله ﷺ بيننا فجاء جمل ناد، فلما كان بين السماطين خر ساجداً؛ فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس، من صاحب هذا الجمل؟»، فقال فتية من الأنصار: هو لنا يا رسول الله، قال: «فما شأنه؟»؛ قال: سنونا عليه منذ عشرين سنة، فلما كبر سنه وكانت عليه شحيمة، فأردنا نحره

لنقسمه بين غلمتنا؛ فقال رسول الله ﷺ: «تبيعونيه»، قالوا: يا رسول الله، هو لك؛ قال: «فأحسنوا إليه حتى يأتيه أجله»؛ قالوا: يا رسول الله، نحن أحق أن نسجد لك من البهائم؛ قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لبشر أن يسجد لبشر ولو كان ذلك كان النساء لأزواجهن».

وقد روى عبادة بن الوليد عن جابر بن عبدالله قصة انقياد الشجرتين لنبينا ﷺ، واجتماعهما حتى استتر بها، ثم افتراقهما.

وروى يعلى بن مرة عن أبيه ـ وقيل: عنه، دون أبيه ـ: أنه شهد هذه المعجزات الثلاث من رسول الله ﷺ كما شهدهن جابر.

وروينا في حديث ابن عباس دعاء رسول الله ﷺ العذق ونزوله من النخلة، ومشيه إليه، ورجوعه إلى مكانه.

وفي حديث ابن عمر عن النبي ﷺ دعاؤه الشجرة وإقبالها إليه حتى قامت بين يديه، فاستشهدها ثلاثاً، فشهدت أنه كما قال، ثم رجعت إلى منبتها[1].

---

(١) أخرجه: ابن حبان (٦٥٠٥)، والدارمي (١٦)، وأبو يعلى (٥٦٦٢)، والطبراني في الكبير (١٣٥٨٢)، والحاكم ـ من طرق: عن محمد بن فضيل: ثنا أبو حيان التيمي: عن عطاء بن أبي رباح: عن ابن عمر قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فأقبل أعرابي فلما دنا منه قال له رسول الله ﷺ: أين تريد؟، قال: إلى أهلي، قال: هل لك في خير؟؛ قال: وما هو؟، قال: تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله؛ قال: ومن يشهد على ما تقول؟، قال: هذه السُلَمة؛ فدعاها رسول الله ﷺ وهي بشاطىء الوادي، فأقبلت تخد الأرض خداً حتى قامت بين يديه، فاستشهدها ثلاثاً، فشهدت ثلاثاً أنه كما قال؛ ثم رجعت إلى منبتها، ورجع الأعرابي إلى قومه، وقال إن اتبعوني أتيتك بهم، وإلا رجعت مكثت معك».

قال الهيثمي (٢٩٢/٨): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، ورواه أبو يعلى أيضاً والبزار.

ـ قال ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٢٥/٦): وهذا إسناد جيد، ولم يخرجوه، ولا رواه الإمام أحمد. والله أعلم.

قلت: وهو كما قال؛ لولا أنه منقطع بين أبي حيان التيمي وعطاء بن أبي رباح، وقد نفى أبو حاتم سماعه منه. لكن يشهد له حديث ابن عباس الذي تقدَّم. والله أعلم.

وانقياد الشجر متواتر؛ رواه: عمر، وأنس، وجابر، وابن عباس، وابن عمر، والحسن =

وفي حديث سلمان الفارسي حين كاتب قومه على كذا وكذا نخلة يغرسها لهم، ويقوم عليها حتى تطعم فجاء النبي ﷺ، فغرس النخل كلها إلا نخلة واحدة غرسها غيره، فأطعم نخله من سنته إلا تلك النخلة. وفي حديث جابر وغيره في قصة خيبر: إخبار الذراع إياه بأنها مسمومةٌ، وفي حديث أبي سعيد الخدري: شهادة الذئب لنبينا ﷺ بالرسالة، وفي حديث النعمان بن بشير وسعيد بن المسيب: شهادة زيد بن الحارثة الأنصاري بعدما مات لنبينا ﷺ بالرسالة، وفي حديث روي عن عمر وغيره: شهادة الضب لنبينا ﷺ(١).

= البصري؛ في مواقع متعدِّدة ومناسبات مختلفة. فيالله العجب نبيٌّ ينقاد له الشجر، يُعرض عن دينه جملة البشر؛ تالله إنها لإحدى الكبر!!.

(١) أخرجه: أبو بكر الإسماعيلي في «معجمه»، والطبراني في «الصغير» (٩٤٨)، و«الأوسط»، وعنه أبو نعيم في «دلائل النبوة»: حدثنا محمد بن علي بن الوليد البصري (ح) ورواه البيهقي في «دلائل النبوة»، والحاكم في «المعجزات» ـ من طرق: أبي أحمد ابن عدي: عن محمد بن الوليد السلمي: حدثنا محمد بن عبدالأعلى الصنعاني: حدثنا معتمر بن سليمان: حدثنا كهمس بن الحسن: حدثنا داود بن أبي هند: عن الشعبي: عن عبدالله بن عمر: عن أبيه عمر بن الخطاب بحديث الضب: «أن رسول الله ﷺ كان في محفل من أصحابه إذ جاء أعرابي من بني سليم قد صاد ضباً وجعله في كمه يذهب به إلى رحله، فرأى جماعة، فقال: على من هذه الجماعة؟، فقالوا: على هذا الذي يزعم أنه نبي؛ فشق الناس، ثم أقبل على رسول الله ﷺ؛ فقال: يا محمد، ما اشتملت النساء على ذي لهجة أكذب منك وأبغض إلي منك، ولولا أن تسميني قومي عجولاً لعجلت عليك فقتلتك، فسررت بقتلك الناس أجمعين!!؛ فقال عمر: يا رسول الله، دعني أقتله؛ فقال رسول الله ﷺ: «أما علمت أن الحليم كاد أن يكون نبياً؟!» ثم أقبل على رسول الله ﷺ: فقال: واللات والعزى لا آمنت بك؛ وقد قال له رسول الله ﷺ: «يا أعرابي ما حملك على أن قلت ما قلت وقلت غير الحق ولم تكرم مجلسي؟»، قال: وتكلمني؟ ـ استخفافاً برسول الله ﷺ ـ، واللات والعزى لا آمنت بك أو يؤمن بك هذا الضب!؛ فأخرج الضب من كمه وطرحه بين يدي رسول الله ﷺ وقال إن آمن بك هذا الضب آمنت بك؛ فقال رسول الله ﷺ: يا ضب!، فتكلم الضب بلسان عربي مبين يفهمه القوم جميعاً: لبيك وسعديك يا رسول رب العالمين، فقال له رسول الله ﷺ: «من تعبد؟»، قال: الذي في السماء عرشه وفي الأرض سلطانه وفي البحر سبيله وفي الجنة رحمته وفي النار عذابه؛ قال: فمن أنا، يا ضب؟؛ قال: أنت رسول رب العالمين وخاتم =

وفي حديث الأعمش عن شِمر بن عطية: عن أشياخه: شهادة الصبي الذي شب ولم يتكلم لنبينا ﷺ بالرسالة، وفي حديث معيقيب: شهادة الرضيع لنبينا ﷺ بالرسالة[1]. وفي قصة أحد: «أن نبينا ﷺ أعطى

= النبيين، قد أفلح من صدَّقك وقد خاب من كذبك. فقال الأعرابي: أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله حقاً والله لقد أتيتك وما على وجه الأرض أحد هو أبغض إلي منك، ـ ووالله ـ لأنت الساعة أحب إلي من نفسي ومن ولدي؛ فقد آمن بك شعري وبشري وداخلي وسري وعلانيتي...».

ـ قال الطبراني: لم يروه عن داود بن أبي هند بهذا التمام إلا كهمس، ولا عن كهمس إلا معتمر؛ تفرد به محمد بن عبدالأعلى.

قلت: بل شيخك ـ يا إمام ـ محمد بن علي بن الوليد السلمي البصري هو المتفرد به، وهو آفته؛ وإن كان الطبراني لم يتفطَّن لعلَّة الخبر فقد وقف عليها عصريُّه، وأحد الذين أخذوا عن هذا الشيخ، حيث قال فيه الإسماعيلي: بصري منكر الحديث. وعلامات الوضع على الخبر واضحة، وأمارات الصنعة عليه لائحة.

ـ قال البيهقي بعدما ساق الخبر في «دلائل النبوة»: وروي في ذلك عن عائشة وأبي هريرة، وما ذكرناه هو أمثل الأسانيد فيه، وهو أيضاً ضعيفٌ؛ والحمل فيه على هذا السلمي. والله أعلم.

ـ قال الذهبي ـ كما في «اللسان» (رقم ٩٩٢/ترجمة محمد بن علي السلمي) ـ: روى أبو بكر البيهقي حديث الضب من طريقه بإسناد نظيف، ثم قال البيهقي: الحمل فيه على السلمي هذا؛ قلت: صدق ـ والله ـ البيهقي، فإنه خبر باطل.

ـ قال الهيثمي (٢٩٢/٨ ـ ٢٩٤): رواه الطبراني في «الأوسط» و«الصغير» عن شيخه محمد بن الوليد البصري، قال البيهقي: والحمل في هذا الحديث عليه. قلت: وبقيَّة رجاله رجال الصحيح.

ـ وبوَّب له ابن كثير في «البداية» (١٤٩/٦): حديث الضب على ما فيه من النكارة والغرابة.

(١) قال الحافظ ابن كثير في «البداية» (١٥٨/٦ ـ ١٥٩): «حديث غريب جداً ـ قال البيهقي: أنا علي بن أحمد بن عبدان: ثنا أحمد بن عبيد الصفار: ثنا محمد بن يونس الكُدَيمي: ثنا شاصونة بن عبيد أبو محمد اليماني ـ وانصرفنا من عَدَن بقرية يقال لها: الحردة ـ حدثني معرض بن عبدالله بن معرض بن معيقيب اليماني: عن أبيه: عن جده قال: «حججت حجة الوداع، فدخلت داراً بمكة، فرأيت فيها رسول الله ﷺ ووجهه مثل دارة القمر، وسمعت منه عجباً؛ جاءه رجلٌ بغلام يوم ولد، فقال له رسول الله ﷺ: «من أنا؟»، قال: أنت رسول الله، قال: صدقت ـ بارك الله فيك ـ، ثم قال: إن الغلام لم يتكلَّم بعد ذلك حتى شبَّ؛ قال أبي: فكنا نسميه مبارك =

عبدالله بن جحش عسيباً من نخل، وكان قد ذهب سيفه، فرجع في يد عبدالله سيفاً»(١).

وفي مغازي محمد بن إسحاق بن يسار، ثم الواقدي في قصة بدر: «أن عكاشة بن محصن انقطع سيفه، فأعطاه رسول الله ﷺ عوداً، فإذا هو سيف أبيض طويل القامة، فلم يزل عنده حتى هلك»(٢).

= اليمامة». قل شاصونة: وقد كنت أمرُّ على معمر، فلا أسمع منه.

هذا الحديث مما تكلَّم الناس في محمد بن يونس الكُديمي بسببه، وأنكروه عليه، واستغربوا شيخه هذا...

على أنه قد روي هذا الحديث من غير طريق الكُديمي، إلا أنه بإسناد غريب أيضاً؛ قال البيهقي: أنا أبو سعد عبدالملك بن أبي عثمان الزاهد: أنا أبو الحسين محمد بن أحمد بن جميع الغَسَّاني بثغر صيدا: ثنا العباس بن محبوب بن عثمان بن عبيد أبو الفضل: ثنا أبي: ثنا جدي شاصونة بن عبيد: حدثني معرض بن عبدالله بن معيقيب: عن أبيه: عن جده؛ بنحوه

- قال البيهقي: وقد ذكره شيخنا أبو عبدالله الحافظ: عن أبي الحسن علي بن العبَّاس الورَّاق: عن أبي الفضل أحمد بن خلف بن محمد المقرىء القزويني: عن أبي الفضل العباس بن محمد بن شاصونة - به.

قال الحاكم: وقد أخبرني الثقة من أصحابنا: عن أبي عمر الزاهد قال: لما دخلت اليمن، دخلت حردة؛ فسألت عن هذا الحديث، فوجدت فيها لشاصونة عقباً، وحملت إلى قبره فزرته

قال البيهقي: ولهذا الحديث أصلٌ من حديث الكوفيين بإسناد مرسل، يخالفه في وقت الكلام؛ ثم أورد من حديث وكيع: عن الأعمش: عن شمر بن عطية: عن بعض أشياخه: «أن النبي ﷺ أتي بصبي قد شبَّ لم يتكلَّم قط، قال: من أنا؟، قال: أنت رسول الله»؛ ثم روى عن الحاكم: عن الأصم: عن أحمد بن عبدالجبار: عن يونس بن بكير: عن الأعمش: عن شِمْر بن عطية: عن بعض أشياخه قال: «جاءت امرأة بابن لها قد تحرَّك، فقالت: يا رسول الله، إن ابني هذا لم يتكلم منذ ولد؛ فقال رسول الله ﷺ: أدنيه مني، فأدنته منه، فقال: من أنا؟، فقال: أنت رسول الله»

قلت: وظاهر صنيع الحفاظ تضعيف الحديث؛ وأمثل وجوهه الوجه المرسل، ثم هو مخالفٌ للموصول. والله أعلم.

(١) لم أقف عليه الآن.

(٢) روى ابن هشام في «السيرة» (٢٧٨/٢): عن محمد بن إسحاق قال: «وقاتل عكَّاشة بن محصن بن حرثان الأسدي - حليف بني عبد شمس - بن عبد مناف، يوم بدر بسيفه =

وفي كتاب الواقدي: «أنه انكسر سيف سلمة بن أسلم، فأعطاه رسول الله ﷺ قضيباً كان في يده، فقال: اضرب به، فإذا هو سيف جيد، فلم يزل عنده حتى قتل يوم جسر أبي عبيد»(١).

وفي قصة يوم بدر ـ وقيل: أحد ـ: عن قتادة بن النعمان: «أنه أصيبت عينه، فسالت حدقته على وجنته، فدعا رسول الله ﷺ، فغمز حدقته براحته فكان لا يدري أي عينيه أصيبت.

وعن رفاعة بن رافع: «أنه رمي يوم بدر بسهم، ففقئت عينه، فبصق فيها رسول الله ﷺ ودعا له، فما آذته وبصق في عين علي ـ رضي الله عنه ـ يوم خيبر من رمد كان بها ودعا له، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، ثم لم يشك عينيه بعد.

وله من دعواته واستسقائه واستشفائه وإجابة الله تعالى إياه في جميع ذلك آيات كثيرة ودلالات واضحة، ومعجزاته أكثر من أن تحصى، وأشهر

= حتى انقطع في يده، فأتى رسول الله ﷺ فأعطاه جِذلاً من حطب، فقال: «قاتل بهذا، يا عكاشة»، فلما أخذه من رسول الله ﷺ هزَّه، فعاد سيفاً في يده طويل القامة، شديد المتن، أبيض الحديدة، فقاتل به حتى فتح الله تعالى على المسلمين، وكان ذلك السيف يسمى: «العون»؛ ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد مع رسول الله ﷺ حتى قُتل في الرِّدَّة ـ وهو عنده ـ، قتله طُليحة بن خويلد الأسدي».
قلت: هكذا ذكره ابن إسحاق بغير إسناد؛ ورواه: ابن سعد في «الطبقات» (٤٧/٣): علي بن محمد: عن أبي معشر: عن زيد بن أسلم (و) يزيد بن رومان (و) إسحاق بن عبدالله بن أبي فروة (و) غيرهم ـ به.
وروى المصنف في «دلائل النبوة» ـ من طريق: محمد بن عمر الواقدي: حدثني عمر بن عثمان الخشني: عن أبيه: عن عمَّته: قال عكاشة: «انقطع سيفي يوم بدر، فأعطاني رسول الله ﷺ...»
قلت: والظاهر أن هذه القصَّة كانت مشهورة في الزمن الأوَّل، وقد ساقها الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٣٠٨/١)، وابن كثير في «البداية والنهاية» (٣٣٨/٦ ـ ٣٣٩) مساق المسلَّمات. والله أعلم.

(١) قلت: تفرُّد الواقدي به يُلقي في النَّفس الريبة، فهو متهم. والله أعلم.

من أن تخفى، وإنما نشير هاهنا من كل جنس إلى مقدار ما يتضح به ما قصدناه في هذا الكتاب.

وقد روينا أن جماعة من أصحاب النبي ﷺ رأوا جبريل - عليه السلام - في صورة دحية الكلبي - ودحية غائب -، ورأى جماعة من المشركين جماعة من الملائكة الذين أمد رسول الله ﷺ بهم يوم بدر، ورأى سعد بن أبي وقاص يوم أحد رجلين أحدهما عن يمين النبي ﷺ والآخر عن يساره عليهما ثياب بياض يقاتلان عنه أشد القتال ما رآهما قبل ذلك ولا بعده وإذا هما ملكان.

وأما إخبار النبي ﷺ عن الكوائن أيام حياته وبعد وفاته وظهور صدقه في جميع ذلك، فهي كثيرة؛ وهي في كتاب الدلائل منقولة، فإنه ﷺ أخبر حين كان بمكة بما أفسدت الأرضة من صحيفة قريش، فأتي بها، فوجدت كما قال.

وحين أخبر عن مسراه إلى بيت المقدس ثم إلى السموات السبع، وكذب فيه أخبرهم عن العير التي رآها في طريقه - عن قدومها، وعن نبإ بيت المقدس -، فكان كما قال.

وأخبر أصحابه بما وقع لزيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبدالله بن رواحة بموتهم ونعاهم قبل أن يجيء خبرهم، ونعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه، وأخبر عن كتاب حاطب بن أبي بلتعة، وأخبر عن أشياء وجد تصديقه في جميعها، ورواية جميع ذلك هاهنا مما يطول به الكتاب.

ووعد أمته الفتوح التي وجدت بعده وحذرهم الفتن التي بدت في آخر خلافة عثمان، وظهرت عند قتله وبعده، وأخبرهم بمدة بقاء الخلفاء بعده، وأشار إلى الملوك الذين يكونون بعدهم من بني أمية، ثم من بني العباس، فكانوا كما قال.

وسمى جماعة من أصحابه شهداء، فأدركوا الشهادة بعده، وأخبر بأن عبدالله بن سلام لا يدرك الشهادة غير أنه يموت على الإسلام، فكان كما

أخبر؛ وأخبر عن البلاء الذي أصاب عثمان بن عفان، وعن قتل عمار بن ياسر، وقتل ابن ابنته الحسين بن علي، وإصلاح الحسن بن علي ـ ابن ابنته ـ بين فئتين عظيمتين من المسلمين، فوجد تصديقه في جميع ذلك، ونعى نفسه إلى ابنته فاطمة، وأخبر بأنها أول أهله لحوقاً به، فكان كما قال، وبشر أمته بكفاية الله شر الأسود العنسي ومسيلمة الكذابين، فكان كما أخبر، وذكر أويس القرني ووصفه بما وجد تصديقه بعده، وارتد رجل من الأنصار ولحق بالكفار، وكان قد قرأ البقرة وآل عمران، ثم مات؛ فقال النبي ﷺ: لا تقبله الأرض، فدفن مراراً، فلم تقبله الأرض، ولكل جنس من أجناس دلائل صدقه أشياء ذكرناها في كتاب «دلائل النبوة»، ومن أراد معرفتها بأسانيدها رجع إليها ـ إن شاء الله تعالى ـ.

ولنبينا ﷺ مرتبة عظيمة ومنزلة شريفة بما كان له من خاتم النبوة، وكانت له علامة ظاهرة في كتفه عرفه بها أهل الكتاب، وبسائر صفاته التي وجدوها مكتوبة في كتبهم، ثم بما كان من شق قلبه، واستخراج حظ الشيطان منه وغسله، وكان أمراً ظاهراً شاهده جماعة كانوا معه، وكان أنس بن مالك يقول: «كنت أرى أثر المخيط في صدره».

ثم بما كان له من المعراج ليلة أُسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به إلى سدرة المنتهى، وكان ذلك في اليقظة، وكلما أخبر عنه من رؤية من رآه تلك الليلة من الملائكة والنبيين والجنة والنار، وغير ذلك من آيات ربه كأن رؤية عين.

عن ابن عباس: «في قوله ـ عز وجل ـ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]؛ قال: هي رؤيا عين رآها النبي ﷺ ليلة أسري به».

وقد ذكرنا قصة المعراج، وشق الصدر، وصفة خاتم النبوة في كتاب «دلائل النبوة».

وأما قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ [التكوير: ٢٣]، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [النجم: ١٣]، فقد قالت عائشة: «أنا أول هذه الأمة سأل عن هذا رسول الله ﷺ، فقال جبريل: لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطاً من السماء

ساد عِظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض».

وفي حديث عبدالله بن مسعود في هذه الآية: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ [النجم: ٩]، قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل ـ عليه السلام ـ له ستمائة جناح»؛ وعن عبدالله بن مسعود في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣﴾ [النجم: ١٣]، قال: «رأى جبريل له ستمائة جناح»، وعن أبي هريرة مثل ذلك، وذهب ابن عباس إلى أنه رأى ربه مرتين، وحمل الآيتين على رؤيته ـ عز وجل ـ. والله أعلم.

وقد مضى ذكر أقاويلهم وأقاويل غيرهم في ذلك بأسانيدها في كتاب «الأسماء والصفات»، وكتاب «الرؤية».

فصل

والأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، بعدما قبضوا ردت إليهم أرواحهم، فهم أحياء عند ربهم كالشهداء، وقد رأى نبينا ﷺ جماعة منهم ليلة المعراج، وأمر بالصلاة عليه (السلام عليه). وأخبر ـ وخبره صدقٌ ـ أن صلاتنا معروضة عليه، وأن سلامنا يبلغه، وأن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، وقد أفردنا لإثبات حياتهم كتاباً[1].

فنبينا ﷺ كان مكتوباً عند الله ـ عز وجل ـ قبل أن يخلق نبياً ورسولاً، وهو بعدما قبضه نبي الله ورسوله وصفيه وخيرته من خلقه، والذين يبلغون عنه أوامره ونواهيه خلفاؤه، فرسالته باقية، وشريعته ظاهرةٌ، حتى يأتي أمر الله ـ عز وجل ـ صلى الله عليه وعلى آله، وسلم تسليماً ـ.



(١) وهو: كتاب «ما ورد في حياة الأنبياء بعد وفاتهم»؛ فيه ألف مسألة جمعها المؤلف ـ رحمه الله ـ؛ كما ذكر ذلك صاحب «كشف الظنون» (١٤٥٥/٢).

٣٠

٣٠ ـ باب:
القول في كرامات الأولياء



قال الله ـ عز وجل ـ في قصة مريم عليها السلام ـ ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]، وفي قصة سليمان ـ عليه السلام ـ: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠]، وآصف لم يكن نبياً، وإنما لا يجوز ظهور الكرامات على الكاذبين، فأما على الصادقين، فإنه يجوز ويكون ذلك دليلاً على صدق من صدقه من أنبياء الله ـ عز وجل ـ.

وقد حكى نبينا ﷺ من الكرامات التي ظهرت على جريج الراهب، والصبي الذي ترك السحر وتبع الراهب، والنفر الذين أووا إلى غار من بني إسرائيل، فانحطت عليهم الصخرة وغيرهم ما يدل على جواز ذلك.

وقد ظهر على أصحابه في زمانه وبعد وفاته، ثم على الصالحين من أمته ما يوجب اعتقاد جوازه، وبالله التوفيق.

فعن عمر بن أسيد بن حارثة ـ حليف بني زهرة، وكان من أصحاب أبي هريرة ـ قال: «بعث رسول الله ﷺ عشرة رهط عيناً، وأمَّر عليهم عاصم بن عاصم بن ثابت ـ وهو: جد عاصم بن عمر ـ؛ فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهدأة بين عُسفان ومكة ذكروا لحي من هذيل يقال لهم بنو لحيان، فنفروا لهم بمائة رجل رام، فاتبعوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم التمر؛

فقالوا: هذه تمر يثرب، فلما أحس بهم عاصم وأصحابه لجأوا إلى فدفد؛ فقالوا لهم: انزلوا، ولكم العهد والميثاق أن لا نقتل منكم أحدا؛ فقال عاصم: أما أنا فوالله لا أنزل في ذمة كافر اليوم، اللهم بلغ عنا نبيك السلام، فقاتلوهم فقتل منهم سبعة، ونزل ثلاثة على العهد والميثاق، فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قسيهم، وكتفوهم، فلما رأى ذلك منهم أحد الثلاثة قال: هذا ـ والله ـ أول الغدر، فعالجوه فقتلوه، وانطلقوا بخبيب بن عدي، وزيد بن الدثنة إلى مكة فباعوهما ـ وذلك بعد وقعة بدر ـ، فاشترى بنو الحارث خبيباً ـ وقد كان قتل الحارث يوم بدر ـ، قالت ابنة الحارث: فكان خبيب أسيراً عندنا، فوالله ما رأيت أسيراً قط كان خيراً من خبيب، والله لقد وجدته يأكل قطفاً من عنب [وإنه لموثق بالحديد] وما بمكة يومئذ من ثمرة ـ وإن هو إلا رزق رزقه الله خبيباً ـ.

قالت: واستعار مني موسى يستحد بها للقتل، قالت: فأعرته إياه، ودرج ابن لي وأنا غافلة، فرأيته يجلسه على صدره، قالت: ففزعت فزعة عرفها خبيب، قالت: ففطن لي، فقال: أتحسبين أني قاتله، ما كنت لأفعله.

قالت: فلما أجمعوا على قتله؛ قال لهم: دعوني أصلي ركعتين فصلى ركعتين، وقال: لولا أن تحسبوا أن بي جزعاً لزدت ـ قالت: وكان خبيب أول من سن الصلاة لمن قتل صبراً ـ، ثم قال: اللهم احصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تبق منهم أحداً.

فلست أبالي حين أقتل مسلما على أي جنب كان لله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزَّع

قال: وبعث المشركون إلى عاصم بن ثابت ليؤتوا من لحمه بشيء، وكان قتل رجلاً من عظمائهم؛ فبعث الله مثل الظلة من الدبر، فحمته من رسلهم، فلم يستطيعوا أن يأخذوا من لحمه شيئاً [فلما حالت بينهم وبينه قالوا: دعوه حتى يمسي، فتذهب عنه، فنأخذه؛ فبعث الله الوادي، فاحتمل عاصماً فذهب به؛ قال: قد كان عاصمٌ أعطى الله عهداً لا يمس مشركاً،

ولا يمسه مشرك أبداً في حياته؛ قال ابن إسحاق: فكان عمر بن الخطاب يقول: يحفظ الله المؤمن فمنعه الله بعد وفاته، كما امتنع منهم في حياته] [استجاب الله لعاصم يوم أصيب، فأخبر رسول الله ﷺ أصحابه يوم أصيبوا خبرهم]».

وروينا عن بريدة بن سفيان استجابة الله دعاء خبيب على الذين قتلوه، فلم يحل الحول، ومنهم أحد غير رجل لبد بالأرض حين رآه يدعو.

وفي هذا الحديث الصحيح كراماتٌ ظهرت على من سمي فيه.

عن أنس بن مالك: «أن أسيد بن حضير الأنصاري ورجلاً آخر من الأنصار تحدثا عند رسول الله ﷺ في حاجة لهما حتى ذهب من الليل ساعة في ليلة شديدة الظلمة، ثم خرجا من عند رسول الله ﷺ يتقلبان ـ وبيد كل واحد منهما عصية ـ، فأضاءت عصا أحدهما لهما حتى مشى في ضوئها؛ حتى إذا افترقت بهم الطريق، أضاءت للآخر عصاه، فمشى كل واحد منهما في ضوء عصاه حتى بلغ أهله» رواه حماد بن سلمة: عن ثابت بن أنس: «كان عباد بن بشر، وأسيد بن حضير» ورواه قتادة: عن أنس فلم يسمِّ الرّجلين، قال: «ومعهما مثل المصباحين يضيئان بين أيديهما».

وقد روينا عن حمزة بن عمر الأسلمي، وأبي عيسى بن جبر أنهما أكرما بقريبٍ من ذلك، فأضاءت أصابع حمزة، ونور في عصى أبي عيسى.

عن قتادة قال: «كان مطرف بن عبدالله بن الشخير وصاحب له سريا في ليلة مظلمة، فإذا طرف سوط أحدهما عنده ضوء، فقال لصاحبه: أما إنا لو حدثنا الناس بهذا كذبونا؛ قال مطرف: المكذب أكذب ـ يقول: المكذب بنعمة الله أكذب ـ».

ومطرف بن عبدالله كان من كبار التابعين، وإنما أوردته عقيب حديث الصحابة لكونه شبيهاً بما أكرموا به.

وقد ورينا نزول الملائكة للقرآن عند قراءة أسيد بن حضير، وذلك أنه رأى مثل الظلة فيها أمثال المصابيح، فقال النبي ﷺ: «تلك الملائكة أتت لصوتك».

وروينا تسليم الملائكة على عمران بن حصين، وروينا عن جماعة من الصحابة أن كل واحد رأى جبريل ـ عليه السلام ـ في صورة دِحية الكلبي.

عن عبدالرحمٰن بن أبي بكر: «أن أصحاب الصفة كانوا ناساً فقراء، وأن رسول الله ﷺ قال مرة: من كان عنده طعام اثنين، فليذهب بثالث؛ ومن كان عنده طعام أربعة، فليذهب بخامس وسادس ـ أو: كما قال ـ؛ وأن أبا بكر جاء بثلاثة، وانطلق رسول الله ﷺ بعشرة.

فهو أنا وأبي وأمي ـ ولا أدري، قال وامرأتي ـ وخادم بينا وبين بيت أبي، وإن أبا بكر تعشى عند رسول الله ﷺ، ثم لبث حيث صليت العشاء، ثم رجع حتى تعشى رسول الله ﷺ؛ فجاء بعد ما مضى من الليل ما شاء الله، فقالت له امرأته: ما حبسك عن أضيافك ـ أو قالت: عن ضيفك ـ قال: أو ما عشيتيهم؟، قالت: أبوا حتى تجيء، وقد عرضوا عليهم، فغلبوهم.

قال: فذهبت أنا واختبأت، فقال: يا غنثر ـ وسب ـ وقال: كلوا ـ وذكر كلمة ـ، وقال: والله لا طعمته أبداً، قال: فأيم الله ما كنا نأخذ لقمة إلا وربا من أسفلها أكثر منها قال: وشبعوا، وصارت أكثر مما كانت قبل ذلك قال: فنظر إليها أبو بكر، فإذا هي كما هي أو أكثر منها.

فقال لامرأته: يا أخت بني فراس، ما هذا؟؛ قالت: لا ـ وقرة عيني ـ لهي الآن أكثر منها قبل ذلك بثلاث مرات، فأكل منها أبو بكر، وقال أبو بكر: إنما كان ذلك من الشيطان ـ يعني: يمينه ـ، ثم حملها إلى رسول الله ﷺ؛ قال: وكان بيننا وبين قوم عهد، فمضى الأجل؛ ففرقنا اثنا عشر رجلاً من كل رجل منهم أناس الله أعلم كم مع كل رجل، فأكلوا منها أجمعون».

قال الشيخ ـ رضي الله عنه ـ: وقد روينا كرامات ظهرت على عدة من الأولياء في حياة نبينا ﷺ؛ وله شواهد كثيرةٌ ذكرناها في كتاب «دلائل النبوة» وغيره.

وقد روينا في «فضائل الصحابة» كرامات ظهرت على بعضهم بعد وفاة

النبي ﷺ، وإعادتها في هذا الكتاب مما يطول شرحه، فاقتصرنا منها على بعضها ـ وفيه كفاية ـ.

فعن ابن عمر: «أن عمر بن الخطاب بعث جيشاً وأمَّر عليهم رجلاً يدعى سارية، قال: فبينا عمر يخطب قال: فجعل يصيح ـ وهو على المنبر ـ: يا سارية الجبل، يا سارية الجبل. قال: فقدم رسول الجيش، فسأله فقال: يا أمير المؤمنين، لقينا عدونا فهزمونا، وإن الصائح ليصيح: يا سارية الجبل، يا سارية الجبل؛ فشددنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله؛ فقيل لعمر: إنك كنت تصيح بذلك».

وقد روينا من أوجه: عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «ما كنا ننكر ونحن متوافرون أن السكينة تنطق على لسان عمر». وعن عبدالله بن مسعود: «ما رأيت عمر قط إلا وكأن بين عينيه ملَكاً يسدده». وعن عبدالله بن عمر قال: «كان عمر يقول القول، فننتظر متى يقع».

قال الشيخ: وكيف لا تكون وقد قال رسول الله ﷺ: «إنه كان في الأمم قبلكم محدثون؛ فإن يكن في هذه الأمة فهو عمر بن الخطاب». وهذا الحديث أصلٌ في جواز كرامات الأولياء، وفي قراءة أبي بن كعب ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ **ولا محدث**﴾ [الحج: ٥٢]، وقرأها ابن عباس كذلك.

ثم في بعض الروايات: عن النبي ﷺ: أنه قيل: «كيف يحدث؟، قال: يتكلم الملائكة على لسانه»[(١)].

وذلك يوافق ما روينا عن علي، وعبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ.

---

(١) قال الحافظ في «الفتح» (٧/٥١): «وقيل: مكلم أي تكلمه الملائكة بغير نبوة؛ وهذا ورد من حديث أبي سعيد الخدري ـ مرفوعاً؛ ولفظه: قيل يا رسول الله وكيف يحدث قال تتكلم الملائكة على لسانه رويناه في فوائد الجوهري»
قلت: ولم يتكلم على سنده بشيء، وهو على شرطه في المقدمة حسنٌ؛ فالله أعلم.

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «كم من أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك؛ وإن البراء لقي زحفاً من المشركين، فقالوا له: يا براء، إن النبي ﷺ قال: لو أقسمت على الله لأبرك، فأقسم على ربك؛ قال: أقسم عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم، فمنحوا أكتافهم؛ ثم التقوا على قنطرة السويس، فأوجعوا في المسلمين، فقالوا: أقسم يا براء على ربك، قال: أقسم عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم، ورزقتني الشهادة؛ فمنحوا أكتافهم، وقتل البراء شهيداً».

عن سفينة ـ مولى النبي ﷺ قال: «ركبت سفينة في البحر، فانكسرت بي؛ فركبت لوحاً منها فأخرجني إلى أجمة فيها أسد، إذ أقبل الأسد، فلما رأيته قلت: يا أبا الحارث، أنا سفينة مولى رسول الله ﷺ، فأقبل نحوي حتى ضربني بمنكبه، ثم مشى معي حتى أقامني على الطريق، قال: ثم همهم ساعة وضربني بذنبه، فرأيت أنه يودعني».



٣١

٣١ ـ باب: القول في أصحاب رسول اللّه ﷺ وعلى آله، ورضي عنهم

قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾، فأثنى عليهم ربهم وأحسن الثناء عليهم ورفع ذكرهم في التوراة والإنجيل والقرآن الكريم، ثم وعدهم المغفرة والأجر العظيم، فقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩]، وأخبر في آية أخرى برضاه عنهم ورضاهم عنه، فقال: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾، ثم بشرهم بما أعد لهم فقال: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وأمر رسول الله ﷺ بالعفو عنهم والاستغفار لهم، فقال: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، وأمره بمشاورتهم تطييباً لقلوبهم وتنبيهاً لمن بعده من الحكام على المشاورة في الأحكام، فقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وندب من جاء بعدهم إلى الاستغفار لهم وأن لا يجعلوا في قلوبهم غِلاً للذين آمنوا، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠].

وأثنى رسول الله ﷺ وعلى آله عليهم، وشبههم بالنجوم؛ ونبه بذلك

أمته على الاقتداء بهم في أمور دينهم، كما يهتدون بالنجوم في ظلمات البر والبحر في مصالحهم، فقال: ـ كما في حديث أبي موسى ـ قال: «صلينا مع النبي ﷺ المغرب، فقلنا: لو انتظرنا حتى نصلي معه العشاء، قال: ففعلنا، فخرج إلينا؛ فقال: ما زلتم هاهنا، فقلنا: نعم، يا رسول الله؛ قلنا نجلس حتى نصلي معك العشاء، قال: أصبتم أو أحسنتم، ثم رفع رأسه إلى السماء؛ فقال: النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى أهل السماء ما يوعدون؛ وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أنا أتى أصحابي ما يوعدون؛ وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون».

وروي عنه في حديث موصول بإسناد آخر غير قوي، وفي حديث منقطع أنه قال: «إن مثل أصحابي كمثل النجوم في السماء، من أخذ بنجم منها اهتدى»[(١)].

والذي رويناه هاهنا من الحديث الصحيح يؤدي بعض معناه.

وقد أشار النبي ﷺ إلى الحواريين والأصحاب الذين ينصرون دينه ويأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، فقال ـ في رواية عبد الله بن مسعود عنه ـ: «ما من نبي بعثه الله ـ عز وجل ـ في أمة إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره».

ثم أنه ﷺ شهد بكونهم خير أمته، فقال ـ في رواية عبدا لله بن مسعود عنه، وفي رواية عائشة (و) عمران بن الحصين (و) أبي هريرة ـ: «خير الناس قرني، وفي بعضها: خير أمتي القرن الذي بعثت فيهم»، وقال

---

(١) موضوع؛ أخرجه: القضاعي (٢/١٠٩): عن جعفر بن عبدالواحد قال: قال لنا وهيب بن جرير بن حازم: عن أبيه: عن الأعمش: عن أبي صالح: عن أبي هريرة ـ مرفوعاً: «مثل أصحابي مثل النجوم، من اقتدى بشيء منها اهتدى».

وهذا سند ساقط؛ آفته جعفر هذا. رماه الدارقطني بالوضع، وقال فيه أبو زرعة: روى أحاديث لا أصل لها؛ وذكر الذهبي هذا الحديث من بلاياه.

وفي الباب عن: عمر، وجابر، وابن عباس، وابن عمر؛ وكلها موضوعة، وقد استوفى الكلام عليها الألباني في الضعيفة (٥٨ ـ ٦٢، ٤٣٨)؛ فانظرها فيها.

في رواية عمر بن الخطاب: «أكرموا أصحابي، فإنهم خياركم»؛ وفي رواية أخرى: «احفظوني في أصحابي»، وأمر ـ فيما روي عنه بمحبتهم ونهى عن سبهم ـ، وأخبر أمته بأن أحداً منهم لا يدرك محلهم، ولا يبلغ درجتهم، وأن الله تعالى غفر لهم.

عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً؛ ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه، ولا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر». وعن عبدالله بن مغفل قال: قال رسول الله ﷺ: «الله الله في أصحابي، الله الله في أصحابي؛ لا تتخذوهم غرضاً بعدي. فمن أحبهم، فبحبي أحبهم؛ ومن أبغضهم، فببغضي أبغضهم. ومن آذاهم، فقد آذاني؛ ومن آذاني، فقد آذى الله؛ ومن آذى الله يوشك أن يأخذه»(1).

عن علي بن أبي طالب، قال: «أن رسول الله ﷺ قال لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: «وما يدريك، لعل الله اطلع إلى أهل بدر؛ فقال: اعملوا ما شئتم، فقد وجبت لكم الجنة»؛ فاغرورقت عينا عمر».

عن جابر قال: «أخبرتني أم مبشر: أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة: «لا يدخل النار ـ إن شاء الله تعالى ـ من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها»؛ قالت: بلى، يا رسول الله؛ فانتهرها، فقالت حفصة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]؛ فقال النبي ﷺ قد قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم: ٧٢]».

---

(١) أخرجه: الترمذي (٣٨٦٢)، وأحمد (٢٠٠٢٦، ٢٠٠٥٥)، وابن أبي عاصم (٩٩٢) ـ من طرق: عن عَبيدة بن أبي رائطة الحذاء التميمي: عن عبدالرحمٰن بن زياد ـ أو: عبدالرحمٰن بن عبدالله ـ وقع بالشك عند أحمد؛ وعند ابن أبي عاصم: عبدالله بن عبدالرحمٰن ـ عن عبدالله بن مغفل ـ به.
ـ قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب؛ لا نعرفه إلا من هذا الوجه.
قلت: وشيخ ابن أبي رائطة؛ لم يعرفه ابن معين ولا الذهبي، وبه أعلّه الألباني في «ظلال الجنة» ـ وأحال على «الضعيفة» (٢٩٠١) ـ.

عن ابن مسعود قال: «إن الله ـ تبارك وتعالى ـ نظر في قلوب العباد؛ فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب الناس، فاختار محمداً ﷺ، فبعثه برسالته وانتخبه بعلمه؛ ثم نظر في قلوب الناس بعده، فاختار له أصحابه، فجعلهم أنصار دينه، ووزراء نبيه؛ فما رآه المؤمنون حسناً، فهو عند الله حسن؛ وما رأوه قبيحاً، فهو عند الله قبيح».

وعن عمرو بن ميمون قال: «كنا عند ابن عباس، فقال: أخبرنا الله في القرآن أنه قد رضي عن أصحاب الشجرة، فعلم ما في قلوبهم، فهل حدثنا أنه سخط عليهم بعدُ؟». وقال الضحاك بن مزاحم: «أمر الله ـ عز وجل ـ بالاستغفار لهم ـ يعني: لأصحاب محمد ﷺ ـ، وهو يعلم أنهم سيحدثون ما أحدثوا».

عن ابن عمر قال: «لا تسبوا أصحاب محمد ﷺ، فإن مقام أحدهم ساعة أفضل من عمل أحدكم عمره».



٣٢

٣٢ ـ باب:
القول في آل بيت رسول الله ﷺ وآله وأزواجه

قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وابتداء الآية في نساء النبي ﷺ وتخييرهن، فلما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة كان لهن ما أعد الله لهن من الأجر العظيم، ثم ميزهن عن نساء العالمين في العذاب والأجر، ثم أبانهن منهن، فقال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، فساق الكلام إلى قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، وإنما ورد بلفظ الذكور لإدخال غيرهن معهن في ذلك، ثم أضاف البيوت إليهن بقوله: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤].

وجعلهن أمهات المؤمنين، فقال: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، وحرم نكاحهن بعد وفاة نبيه ﷺ فقال: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وأنزل في براءة عائشة بنت الصديق مما رميت به في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ﴾ [النور: ١١] إلى آخر الآيات، فهي تتلى في مساجد المسلمين، وفي صلواتهم في محاريبهم، وتكتب في مصاحفهم وألواحهم إلى يوم الدين، وفيها بيان عفتها وحصانتها وطهارتها، وكبير إثم من رماها، وعظيم عذابه، ولعنه في الدنيا والآخرة،

وكفى بذلك شرفاً، ولمن وقع فيها عذاباً معداً ولعناً متتابعاً عاجلاً وآجلاً.

عن زيد بن أرقم أنه قال: «قام فينا ذات يوم رسول الله ﷺ خطيباً؛ فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد: أيها الناس، إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيبه، وإني تارك فيكم الثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فاستمسكوا بكتاب الله، وخذوا به؛ فحث على كتاب الله، ورغب فيه. ثم قال: وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي - ثلاث مرات -.

فقال له حصين: يا زيد، من أهل بيته؟، أليس نساؤه من أهل بيته؟؛ قال: بلى، إن نساءه من أهل بيته. ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده؛ قال: ومن هم؟، قال: آل علي، وآل جعفر، وآل العباس، وآل عقيل؛ فقال: كل هؤلاء يحرم الصدقة؟، قال: نعم».

قال الأستاذ الإمام - رضي الله عنه -: قد بين زيد بن أرقم أن نساءه من أهل بيته، واسم أهل البيت لكل من النساء تحقيق - وهو متناولٌ للآل، واسم الآل لكل من يحرم الصدقة من أولاد هاشم، وأولاد المطلب لقول النبي ﷺ: «إن الصدقة لا تحل لمحمد، ولا لآل محمد»؛ وإعطائه الخمس الذي عوضهم من الصدقة بني هاشم وبني المطلب قال: إنما بنوُ هاشم، وبنو المطلب شيء واحد، وقد يسمى أزواجه آلاً بمعنى التشبيه بالنسب، فأراد زيد تخصيص الآل من أهل البيت بالذكر، ولفظ النبي ﷺ في الوصية بهم عام يتناول الآل والأزواج، وقد أمرنا بالصلاة على جميعهم.

فعن أبي هريرة: عن النبي ﷺ قال: «من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلى علينا أهل البيت؛ فليقل: «اللهم صل على النبي، وأزواجه أمهات المؤمنين، وذريته، وأهل بيته كما صليت على إبراهيم، إنك حميد مجيد»».

قال الشيخ: وأمر في حديث أبي حميد الساعدي بالصلاة عليه، وعلى أزواجه وذريته، ويحتمل أنه أفردهن بالذكر من جملة أهل البيت - على وجه التأكيد - كما أفرد الذرية على وجه التأكيد، ثم رجع إلى التعميم في حديث

أبي هريرة ليدخل فيها غير الأزواج والذرية من آله الذين يقع عليهم اسم أهل البيت. والله أعلم.

عن أم سلمة قالت: «في بيتي أنزلت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] قالت: فأرسل رسول الله ﷺ إلى فاطمة وعلي والحسن والحسين؛ فقال: «هؤلاء أهلي» قالت: فقلت: يا رسول الله، أما أنا من أهل البيت؟، قال: «بلى - إن شاء الله -».

قال أبو عبدالله: هذا حديث صحيح سنده، ثقات رواته.

قال الشيخ: وهذا يؤكد ما ذكرنا من دخول آله وأزواجه في أهل بيته، وعلينا محبة جميعهم وموالاتهم في الدين. فعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني بحب الله، وأحبوا أهل بيتي بحبي»[1]. وعن أبي سعيد الخدري قال: سمعت النبي ﷺ

(١) حديث ضعيف الإسناد؛ أخرجه: البخاري في «التاريخ الكبير» (١/١٨٣)، والترمذي (٥/٦٦٤)، وأحمد في «فضائل الصحابة» (٢/٩٨٦)، والحاكم (٣/١٦٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/٢١١)، والخطيب في «تاريخه» (٤/١٥٩)، وابن عدي في «الكامل» (٧/١١١)، والمزي في «تهذيب الكمال» (١٥/٦٣) - من طريقين: عن هشام بن يوسف: عن عبدالله بن سليمان النوفلي: عن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس: عن أبيه: عن ابن عباس - مرفوعاً؛ به، وهو عند بعضهم مختصراً.
- قال الترمذي: حديث حسن غريب، إنما نعرفه من هذا الوجه.
- وقال الحاكم: صحيح الإسناد؛ ووافقه الذهبي
قال الألباني - فيما علّقه على «فقه السيرة» (ص٢٠) -: «وهذا من تساهلهم جميعاً، لا سيما الذهبي، فقد أورد النوفلي هذا في «ميزان الاعتدال في نقد الرجال»، وقال فيه: فيه جهالة، ما حدث عنه سوى هشام بن يوسف؛ ثم ساق له هذا الحديث، فأنى له الصحة؟؛ وقد تفرد به هذا المجهول [قال ابن عدي: وهذا لا أعلم يرويه غير هشام بن يوسف بهذا الإسناد]، ولم يوثقه أحد، ولذا قال فيه الحافظ ابن حجر في «التقريب» إنه: مقبول - يعني: عند المتابعة، فأنى المتابع له؟، ولذلك فقد أصاب ابن الجوزي حين قال: هو غير صحيح - كما نقله المناوي في فيض القدير، وتعقبه بما لا طائل تحته».

يقول على هذا المنبر: «ما بال رجال يقولون: إن رحم رسول الله ﷺ لا ينفع قومه يوم القيامة؟، بلى والله إن رحمي موصولة في الدنيا والآخرة، وإني أيها الناس فرط لكم على الحوض».

قال الشيخ: وقد روينا في فضائل أهل البيت والصحابة - رضي الله عنهم - في كتاب «الفضائل» ما ورد فيهما.

وفيما روينا: عن عائشة: عن فاطمة - رضي الله عنها -: أن النبي ﷺ قال لها: «ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة - أو: نساء المؤمنين -».

وفيما روي عن حذيفة (و) أبي سعيد (و) غيرهما: عن النبي ﷺ: «فاطمة سيدة نساء أهل الجنة؛ زاد أحدهما في روايته: إلا ما كان من مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم»؛ وفي رواية ابن عباس: «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم».

وفي حديث أبي موسى (و) أنس بن مالك: عن النبي ﷺ: «فضل عائشة على سائر النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»؛ وقال لابنته فاطمة: «ألست تحبين ما أحب، قالت: بلى، قال: فأحبي هذه - يعني: عائشة -».

وقال عمار بن ياسر بمشهد علي - رضي الله عنهما -: «أسكت مقبوحاً منبوحاً، تؤذي حبيبة رسول الله ﷺ»، وقال عمار: «إنها زوجة رسول الله ﷺ في الدنيا والآخرة». وفي حديث أبي سعيد وغيره: عن النبي ﷺ: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة».

وجميع ذلك، مع غيره من فضائلهم مذكور في كتاب «الفضائل» بأسانيدها؛ من أراد الوقوف عليها رجع إليه - إن شاء الله تعالى -.



٣٣

٣٣ ـ باب: تسمية العشرة الذين شهد لهم رسول اللَّه ﷺ فيما روي عنه بالجنة

عن رياح بن الحارث: «أن المغيرة بن شعبة كان في المسجد الأكبر وعنده أهل الكوفة فقال سعيد بن زيد: أشهد على رسول الله ﷺ بما سمعته أذناي ووعاه قلبي من رسول الله ﷺ، فإني لم أكن أروي عنه كذباً يسألني عنه إذا لقيته، أنه قال: أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبدالرحمٰن بن عوف في الجنة، وسعد بن مالك في الجنة، وتاسع المسلمين في الجنة، لو شئت أن أسميه لسميته؛ قال: فرجع أهل المسجد يناشدونه: يا صاحب رسول الله، من التاسع؟؛ قال: ناشدتموني بالله ـ والله عظيم ـ أنا تاسع المسلمين، ورسول الله ﷺ العاشر. ثم أتبع ذلك يميناً قال: والله لمشهد شهده رجل مع رسول الله ﷺ أفضل من عمل أحدكم ولو عمِّر عمُر نوح».

عن عبدالرحمٰن بن حميد: عن أبيه: عن سعيد بن زيد حدثه في نفر: أن رسول الله ﷺ قال: «عشرة في الجنة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبدالرحمٰن بن عوف، وأبو عبيدة، وسعد بن أبي وقاص؛ قال: فعد هؤلاء التسعة، وسكت عن العاشر. فقال القوم: ننشدك الله، يا أبا الأعور أنت العاشر؟، قال: نشدتموني بالله، تالله أبو الأعور في الجنة».

وقد روي عن النبي ﷺ أنه شهد لجماعة سواهم بالجنة، وروينا في الباب قبله قول فيمن شهد بدراً، وفيمن بايع تحت الشجرة.



٣٤

٣٤ ـ باب: تسمية الخلفاء الذين نبه رسول اللّه ﷺ على خلافتهم بعده وعلى مدة بقائهم

عن سعيد بن جمهان: عن سفينة ـ مولى رسول الله ﷺ ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «خلافة النبوة (وفي لفظ: الخلافة في أمتي) ثلاثون سنة [ثم ملك بعد ذلك. قال لي سفينة: أمسك خلافة أبي بكر، وخلافة عمر، وخلافة عثمان، وخلافة علي؛ فنظرنا فوجدنا ثلاثين سنة]». وروي عن عبدالرحمٰن بن أبي بكر: عن أبيه: عن النبي ﷺ.

وعن أبي معشر أنه قال: «استخلف أبو بكر في شهر ربيع الأول حين توفي رسول الله ﷺ ومات لثمان بقين من جمادى الآخرة يوم الاثنين في سنة ثلاث عشرة، فكانت خلافته سنتين وأربعة أشهر إلا عشر ليال، وقتل عمر يوم الأربعاء لأربع ليال بقين من ذي الحجة تمام سنة ثلاث وعشرين، فكانت خلافته عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام، وقتل عثمان بن عفان يوم الجمعة لثمان عشرة مضت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين، فكانت خلافته اثنتي عشرة سنة إلا اثني عشر يوماً، وقتل علي بن أبي طالب في رمضان يوم الجمعة لسبع عشرة من رمضان سنة أربعين، فكانت خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر وقيل: إلا شهرين».

وعن سمرة بن جندب: «أن رجلاً قال: يا رسول الله، إني رأيت كأن دلواً دلي من السماء فجاء أبو بكر فأخذ بعراقيها فشرب شرباً ضعيفاً ثم جاء عمر فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضلع ثم جاء عثمان فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضلع ثم جاء علي فأخذ بعراقيها فانتشطت وانتضح عليها منها شيء».

قال الأستاذ الإمام ـ رضي الله عنه ـ: ضعف شرب أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ قصر مدته، والانتضاح منه على علي ـ رضي الله عنه ـ ما أصابه من المنازعة في ولايته، والله أعلم. وشواهد هذا الباب قد ذكرناها في كتاب «الفضائل»، وفي كتاب «دلائل النبوة».

وكان الشافعي يقول في الخلافة والتفضيل: «نبدأ بأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي ـ رضي الله عنهم ـ». وعن الميموني قال: «سمعت أحمد بن حنبل ـ وقيل: إلى ما تذهب في الخلافة؟ ـ، قال أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، فقيل له: كأنك تذهب إلى حديث سفينة. قال: أذهب إلى حديث سفينة وإلى شيء آخر: رأيت علياً في زمن أبي بكر، وعمر، وعثمان لم يتسم بأمير المؤمنين، ولم يقم الجمع والحدود، ثم رأيته بعد قتل عثمان قد فعل ذلك، فعلمت أنه قد وجب له في ذلك الوقت ما لم يكن له قبل ذلك.



٣٥

٣٥ ـ باب: تنبيه رسول اللّه ﷺ على خلافة أبي بكر الصديق بعده وبيان ما في الكتاب من الدلالة على صحة إمامته وإمامة من بعده من الخلفاء الراشدين

عن أبي موسى قال: «مرض رسول الله ﷺ، فقال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس»، فقالت عائشة: يا رسول الله، إن أبا بكر رجل رقيق متى يقوم مقامك لا يستطيع يصلي بالناس فقال: «مروا أبا بكر يصلي بالناس فإنكن صواحبات يوسف»، قال: فصلى أبو بكر في حياة رسول الله ﷺ».

وعن عائشة قالت: «لما دخل رسول الله ﷺ بيتي قال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس»، قالت: قلت: يا رسول الله، إن أبا بكر رجل رقيق إذا قرأ القرآن لا يملك دمعه، فلو أمرت غير أبي بكر ـ قالت: والله ما بي إلا كراهية أن يتشاءهم الناس بأول من يقوم في مقام رسول الله ﷺ ـ، قالت فراجعته مرتين أو ثلاثاً، فقال: «ليصل بالناس أبو بكر فإنكن صواحب يوسف»».

وعن أنس بن مالك الأنصاري ـ وكان تبع النبي ﷺ عشر سنين وخدمه وصحبه ـ: «أن أبا بكر الصديق كان يصلي لهم في وجع النبي ﷺ الذي توفي فيه حتى إذا كان يوم الاثنين ـ وهم صفوف في الصلاة ـ، كشف النبي ﷺ ستر الحجرة ينظر إلينا وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف، ثم تبسم يضحك قال: فهممنا أن نفتتن ونحن في الصلاة من فرح برؤية رسول الله ﷺ، ونكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف وظن أن النبي ﷺ

خارج إلى الصلاة؛ قال: فأشار إلينا رسول الله ﷺ بيده أن أتموا صلاتكم، ثم دخل النبي ﷺ، وأرخى الستر فتوفي من يومه ذلك».

قال الشيخ: وهذا الذي رواه أنس بن مالك من إرخاء الستر بعدما نظر إليهم وأظهروا الفرح بمكانهم صفوفاً خلف أبي بكر كان في الركعة الأولى من صلاة الصبح، ثم إنه وجد في نفسه خفَّةً، فخرج فأدرك الركعة الثانية، فصلاها خلف أبي بكر، فلما سلم أبو بكر أتم رسول الله ﷺ الركعة الأخرى وتوفي من يومه ذلك ـ هكذا ذكره موسى بن عقبة في مغازيه، وكذلك رواه عروة بن الزبير، وبمعناه ذكره عبدالله بن أبي مليكة.

ويشهد له ما [رويناه]: عن أنس بن مالك أنه قال: «آخر صلاة صلاها رسول الله ﷺ مع القوم، صلى في ثوب واحد موشحاً به خلف أبي بكر الصديق».

وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بينا أنا نائم رأيتني على قليب عليها دلو فنزعت منها ما شاء الله ثم أخذها ابن أبي قحافة فنزع منها ذنوباً ـ أو ذنوبين ـ وفي نزعه ضعف والله يغفر له، ثم استحالت غرباً فأخذها ابن الخطاب فلم أر عبقرياً من الناس ينزع نزع عمر بن الخطاب حتى ضرب الناس بعطن». وكذلك رواه ابن عمر عن النبي ﷺ.

قال الشافعي: «رؤيا الأنبياء وحيٌ؛ وقوله وفي نزعه ضعف قصر مدته وعجلة موته، وشغله بالحرب بأهل الردة عن الافتتاح والتزيد الذي بلغه عمر في طول مدته».

عن جبير بن مطعم: «أتت النبي ﷺ امرأة، فكلمته في شيء، فأمرها أن ترجع إليه؛ قالت: يا رسول الله، أرأيت إن رجعت فلم أجدك ـ كأنها تعني: الموت ـ، قال: فإن لم تجديني، فأتي أبا بكر».

وقد روينا عن النبي ﷺ في حديث أبي قتادة ـ في قصة الميضأة ـ عموم قول النبي ﷺ: «وإن يطيعوا أبا بكر وعمر يرشدوا».

عن حذيفة (و) عن ابن مسعود: عن النبي ﷺ قال: «اقتدوا باللذين

من بعدي: أبي بكر وعمر، واهتدوا بهدي عمار، وتمسكوا بعهد ابن مسعود». وعن عائشة قالت: «دخل علي رسول الله ﷺ في اليوم الذي بُدىء به فقلت: «وا رأساه»، قال: لوددت أن ذلك كان وأنا حي فأصلي عليك وأدفنك؛ قالت: فقلت غيرة: كأني بك في ذلك اليوم معرساً ببعض نسائك، قال: «وأنا وا رأساه»، ادعي إلي أباك وأخاك حتى أكتب لأبي بكر كتاباً، فإني أخاف أن يتمنى متمن ويقول قائل، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر».

قال ـ رحمه الله ـ: وقد روينا في حديث أبي سعيد الخدري، وفي حديث ابن عباس جلوس النبي ﷺ على المنبر في ابتداء مرضه، وقوله: «يا أيها الناس، إن أمنّ الناس علي بنفسه وماله أبو بكر»؛ وفي حديث أبي المعلى: «ما من أحد من الناس أمن علينا في صحبته، وذات يده من ابن أبي قحافة»؛ وفي حديث أبي الدرداء وغيره: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله بعثني إليكم فقلتم كذب، وقال أبو بكر: صدق؛ وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي؟».

فهذه الأخبار ـ وما في معناها ـ تدلُّ على أن النبي ﷺ رأى أن يكون الخليفة من بعده أبو بكر الصديق، فنبه أمته بما ذكر من فضيلته وسابقته وحسن أثره، ثم بما أمرهم به من الصلاة خلفه، ثم بالاقتداء به وبعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ على ذلك، وإنما لم ينص عليه نصاً لا يحتمل غيره، والله أعلم.

لأنه علم بإعلام الله إياه أن المسلمين يجتمعون عليه، وأن خلافته تنعقد بإجماعهم على بيعته، وقد دل كتاب الله ـ عز وجل ـ على وجوب إمامة أبي بكر، ومن بعده من الخلفاء قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ﴾ [النور: ٥٥]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾، فلما وجدت هذه الصفة من الاستخلاف والتمكين في أمر أبي

بكر، وعمر، وعثمان، وعلي دل على أن خلافتهم حق، ودلّ أيضاً على إمامة الصديق قول الله ـ عز وجل ـ في سورة براءة للقاعدين عن نصرة نبيه ﷺ والمتخلفين عن الخروج معه في غزوة الحديبية: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ [التوبة: ٨٣]، وقال في سورة أخرى: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥] ـ يعني: قوله: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ ـ، ثم قال: ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الفتح: ١٥].

وقال: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا﴾ يعني: تطيعوا الداعي لكم إلى قتالهم ﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ يعني: تعرضوا عن إجابة الداعي لكم إلى قتالهم ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٦]، والداعي لهم إلى ذلك النبي ﷺ الذي قال الله له: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾، وقال في سورة الفتح ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾، فمنعهم الخروج مع نبيه ﷺ، وجعل خروجهم معه تبديلاً لكلامه، فوجب بذلك أن الداعي الذي يدعوهم إلى القتال داع يدعوهم بعد نبيه ﷺ.

وقد قال مجاهد «في قوله ﴿أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾: هم فارس والروم»، وقال عطاء: «هم فارس»، وفي رواية عن ابن عباس: «فارس»، وفي أخرى: «هم بنو حنيفة يوم اليمامة»؛ فقد قوتلوا في أيام أبي بكر الصديق ـ وهو الداعي إلى قتال مسيلمة وبني حنيفة من أهل اليمامة ـ، وإن كانوا أهل فارس، فقد قوتلوا في أيام عمر ـ وهو الداعي إلى قتال كسرى، وأهل فارس ـ؛ وإن كانوا أهل فارس والروم، فإنه أراد تنحية أهل الروم عن أرض الشام، وقد قوتلوا في أيام أبي بكر، ثم تم قتالهم وتنحيتهم عن الشام في أيام عمر مع قتال فارس؛ فوجب بذلك إمامة أبي بكر، وعمر، وفي وجوب إمامة أحدهما وجب إمامة الآخر.

وقد احتج بما ذكرنا من الآيات علي بن إسماعيل ـ رحمه الله ـ،

وغيره من علمائنا في إثبات إمامة الصديق - رضي الله عنه -، ودل أيضاً على إمامة الصديق قول الله - عز وجل -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، فكان في علم الله سبحانه وتعالى ما يكون بعد وفاة رسول الله ﷺ من ارتداد قوم، فوعد رسوله ﷺ، ووعده صدقٌ أنه ﴿يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]، فلما وجد ما كان في علمه في ارتداد من ارتد بعد وفاة رسول الله ﷺ وجد تصديق وعده بقيام أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - بقتالهم، فجاهد بمن أطاعه من الصحابة من عصاه من الأعراب، ولم يخف في الله لومة لائم حتى ظهر الحق وزهق الباطل، وصار تصديق وعده بعد وفاة رسوله ﷺ آية للعالمين، ودلالة على صحة خلافة الصديق رضي الله عنه.

عن الحسن: «في قوله: ﴿مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، قال: هم الذين قاتلوا مع أبي بكر أهل الردة من العرب حتى رجعوا إلى الإسلام بعد رسول الله ﷺ»؛ وكذلك قاله عكرمة وقتادة والضحاك.

وروينا عن عبدالله بن الأهتم: أنه قال لعمر بن عبدالعزيز: «إن أبا بكر الصديق قام بعد رسول الله ﷺ، فدعا إلى سنته، ومضى على سبيله؛ فارتدت العرب - أو من ارتد منهم -، فعرضوا أن يقيموا الصلاة ولا يؤتوا الزكاة، فأبى أن يقبل منهم إلا ما كان رسول الله ﷺ قابلاً في حياته، فانتزع السيوف من أغمادها، وأوقد النيران في شعلها، وركب بأهل حق الله أكتاف أهل الباطل حتى قررهم بالذي نفروا منه، وأدخلهم من الباب الذي خرجوا منه حتى قبضه الله إليه».

وعن أبي هريرة قال: «والذي لا إله إلا هو لولا أن أبا بكر استخلف ما عبد الله، ثم قال الثانية، ثم الثالثة، ثم قيل له: مه يا أبا هريرة، فقال: إن رسول الله ﷺ وجه أسامة بن زيد في سبع مائة إلى الشام، فلما نزل بذي خشب قبض النبي ﷺ، وارتدت العرب حول المدينة، واجتمع إليه

أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: يا أبا بكر، رد هؤلاء توجه هؤلاء إلى الشام، وقد ارتدت العرب حول المدينة؟؛ فقال: والذي لا إله إلا هو لو جرت الكلاب بأرجل أزواج رسول الله ﷺ ما رددت جيشاً وجهه رسول الله ﷺ، ولا حللت لواءً عقده رسول الله ﷺ؛ فوجه أسامة، فجعل لا يمر بقبيل يريدون الارتداد إلا قالوا: لولا أن لهؤلاء قوة، ما خرج مثل هؤلاء من عندهم، ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم، فلقوا الروم فهزموهم وقتلوهم ورجعوا سالمين، فثبتوا على الإسلام».



٣٦



٣٦ ـ باب: اجتماع المسلمين على بيعة أبي بكر الصديق وإنفاذهم لإمامته

وهو أبو بكر عبدالله بن عثمان بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة القرشي التيمي.

عن عائشة رضي الله عنها ـ زوج النبي ﷺ ـ: «أن النبي ﷺ مات وأبو بكر بالسنح؛ فقام عمر، فقال: والله ما مات رسول الله ﷺ؛ قال عمر: والله ما كان يقع في نفسي إلا ذاك وليبعثنه الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم، فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله ﷺ فقبله وقال: بأبي أنت وأمي، طبت حياً وميتاً؛ ـ والذي نفسي بيده ـ لا يذيقك الله ـ عز وجل ـ الموتتين أبداً.

ثم خرج فقال: أيها الحالف على رسلك؛ فلما تكلم أبو بكر جلس عمر فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه، ثم قال: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت وقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر: ٣٠] وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ ـ الآية كلها [آل عمران: ١٤٤].

فنشج الناس يبكون، واجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة؛ فقالوا: منا أمير ومنكم أمير، فذهب إليهم أبو بكر، وعمر، وأبو عبيدة بن الجراح، فذهب عمر يتكلم فأسكته أبو بكر، وكان عمر

يقول: «والله ما أردتُ بذلك إلا أني قد هيأت كلاماً قد أعجبني خشيت أن لا يبلغه أبو بكر.

فتكلم وأبلغ، وقال في كلامه: نحن الأمراء وأنتم الوزراء، قال الحباب بن المنذر: لا والله لا نفعل أبداً منا أمير ومنكم أمير؛ فقال أبو بكر: لا ولكنا الأمراء وأنتم الوزراء ـ يعني: المهاجرون ـ أوسط العرب داراً وأعزهم أحساباً؛ فبايعوا عمر بن الخطاب، أو أبا عبيدة بن الجراح؛ فقال عمر: بل نبايعك أنت، خيرنا وسيدنا وأحب إلى رسول الله ﷺ، وأخذ عمر بيده فبايعه وبايعه الناس، فقال قائل: قتلتم سعد بن عبادة، فقال عمر: قتله الله».

ورواه عبدالله بن عباس عن عمر بن الخطاب في قصة السقيفة بمعنى ما روته عائشة وفيه من الزيادة: عن عمر قال: «فلم أكره مما قال غيرها كان والله أن أقدم فتضرب عنقي لا يقربني ذلك إلى إثم أحب إلي من أؤمر على قوم فيهم أبو بكر»؛ وزاد أيضاً: قال عمر: «فكثر اللغط وارتفعت الأصوات حتى أشفقت الاختلاف؛ فقلت: ابسط يدك يا أبا بكر، فبسط أبو بكر يده فبايعته، وبايعه المهاجرون والأنصار». وقد ذكرنا في كتاب «الفضائل» بالتمام.

عن أنس بن مالك: «أنه سمع خطبة عمر الآخرة حين جلس أبو بكر على منبر رسول الله ﷺ، وذلك الغد من يوم توفي رسول الله ﷺ».

قال أنس بن مالك: فتشهد عمر وأبو بكر صامت، ثم قال: أما بعد؛ فإني قد قلت لكم أمس مقالة، وإنها لم تكن كما قلت، وإني ـ والله ـ ما وجدت المقالة التي قلت لكم في كتاب أنزله الله ـ عز وجل ـ، ولا عهد عهده إليَّ رسول الله ﷺ، ولكني كنت رجوت أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يدبرنا ـ يريد بذلك: أن يكون آخرهم ـ، وإن يك محمد ﷺ قد مات، فإن الله تعالى قد جعل بين أظهركم نوراً تهتدون به هدى الله محمداً ﷺ، فاعتصموا به تهتدوا لما هدى الله له محمداً ﷺ، قال: ثم ذكر عمر أبا بكر، فقال: إن أبا بكر صاحب رسول الله ﷺ وثاني اثنين وإنه

أحق المسلمين بأمرهم، فقوموا فبايعوه، وقد كانت طائفة منهم بايعوه قبل ذلك في سقيفة بني ساعدة، وكانت بيعته على المنبر بيعة العامة».

وعن عبدالله قال: «لما قبض رسول الله ﷺ قالت الأنصار: منا أمير ومنكم أمير، قال: فأتاهم عمر فقال: يا معشر الأنصار، ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ أمر أبا بكر أن يصلي بالناس؟، قالوا: بلى، قال: فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر؟، قالوا: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر».

وعن سالم بن عبيد قال: «مرض النبي ﷺ فذكر الحديث في أمره أبا بكر أن يصلي بالناس، ثم في وفاته، ثم في رجوع الناس إلى أمر أبي بكر في وفاة النبي ﷺ، ثم في الصلاة عليه، ثم دفنه، ثم في موضع دفنه، ثم في أمره بني عمه بغسله، ثم في خروج المهاجرين إلى الأنصار، فقال قائل من الأنصار: منا أمير ومنكم أمير، فقال عمر ـ وأخذ بيد أبي بكر ـ: من له هذه الثلاثة التي لأبي بكر، قال الله: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾ ـ من هما؟ ـ ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ ـ من صاحبه؟ ـ ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ ـ من كان الله معهما؟ ـ؛ ثم بسط يد أبي بكر وبايعه وبايعه الناس بيعة حسنة جميلة».

وعن أبي سعيد الخدري قال: «لما توفي رسول الله ﷺ قام خطباء الأنصار، فجعل الرجل منهم يقول: يا معشر المهاجرين، إن رسول الله ﷺ كان إذا استعمل رجلاً منكم قرن معه رجلاً منا، فنرى أن يلي هذا الأمر رجلان أحدهما منكم والآخر منا، قال: فتتابعت خطباء الأنصار على ذلك، فقام زيد بن ثابت، فقال: إن رسول الله ﷺ كان من المهاجرين، وإن الإمام يكون من المهاجرين ونحن أنصاره كما كنا أنصار رسول الله ﷺ، فقام أبو بكر فقال: جزاكم الله خيراً يا معشر الأنصار، وثبت قائلكم، ثم قال: أما لو فعلتم غير ذلك لما صافحناكم، ثم أخذ زيد بن ثابت بيد أبي بكر، فقال: هذا صاحبكم فبايعوه، ثم انطلقوا، [وفي رواية: فقام عمر بن الخطاب، فقال: صدق قائلكم أما لو فعلتم غير هذا لم نتابعكم وأخذ بيد أبي بكر فقال: هذا صاحبكم فبايعوه، وبايعه عمر، وبايعه المهاجرون

والأنصار] فلما قعد أبو بكر على المنبر نظر في وجوه القوم، فلم ير علياً، فسأل عنه، فقام ناس من الأنصار فأتوا به؛ فقال أبو بكر: ابن عم رسول الله ﷺ وختنه أردت أن تشق عصا المسلمين، فقال: لا تثريب يا خليفة رسول الله ﷺ، فبايعه، ثم لم ير الزبير بن العوام فسأل عنه حتى جاءوا به، قال: ابن عمة رسول الله ﷺ وحواريه أردت أن تشق عصا المسلمين، فقال مثل قوله: لا تثريب يا خليفة رسول الله ﷺ، فبايعه.

وعن إبراهيم بن عبدالرحمٰن بن عوف ـ في هذه القصة ـ قال: «ثم قام أبو بكر، فخطب الناس واعتذر إليهم ـ يعني: إلى علي والزبير ومن تخلف، وقال: والله ما كنت حريصاً على الإمارة يوماً وليلةً قط، ولا كنت فيها راغباً ولا سألتها الله في سر ولا علانية، ولكني أشفقت من الفتنة، وما لي في الإمارة من راحة، ولكن قلدت أمراً عظيماً ما لي به طاقة ولا يدان إلا بتقوية الله، ولوددت أن أقوى الناس مكاني عليها اليوم، فقبل المهاجرون منه ما قال وما اعتذر به، وقال علي والزبير: ما غضبنا إلا أنا أخرنا في المشورة، وإنا نرى أن أبا بكر أحق بها بعد رسول الله ﷺ؛ إنه لصاحب الغار، وثاني اثنين، وإنا لنعرف شرفه وكبره، ولقد أمره رسول الله ﷺ بالصلاة بالناس وهو حي».

وعن محمد بن إسحاق في «المغازي» ـ في اعتذار أبي بكر إلى علي وغيره ممن تخلف عن بيعته ـ: «[بعد أن ذكر قصة السقيفة، ثم ذكر بيعة العامة من بعد يوم السقيفة] أما والله ما حملنا على إبرام ذلك دون من غاب عنه إلا مخافة الفتنة، وتفاقم الحدثان، وإن كنت لها لكارهاً، لولا ذلك ما شهدها أحد كان أحب إلي أن يشهدها منك إلا من هو بمثل منزلتك؛ ثم أشرف على الناس فقال: أيها الناس، هذا علي بن أبي طالب، فلا بيعة لي في عنقه، وهو بالخيار من أمره، ألا وأنتم بالخيار جميعاً في بيعتكم إيَّاي، فإن رأيتم لها غيري فأنا أول من يبايعه؛ فلما سمع ذلك علي من قوله تحلل عنه ما كان قد دخله، فقال: لا حل، لا نرى لها غيرك، فمد يده فبايعه هو والنفر الذين كانوا معه، وقال جميع الناس مثل ذلك، فردوا الأمر إلى أبي بكر، وهو خليفة رسول الله ﷺ، وذلك لأنه استقدمه على الصلاة بعده،

فكانوا يسمونه خليفة رسول الله ﷺ حتى هلك».

وأبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ فيما خيرهم فيه من مبايعته مذهب التواضع، وليستبرىء قلوبهم في استخلافه حتى إذا عرف منهم الصدق سكن إلى اجتماعهم على مبايعته مع علي بن أبي طالب، فلا يجوز لقائل أن يقول كان باطن علي أو غيره بخلاف ظاهره، فكان علي أكبر محلاً وأجل قدراً من أن يقدم على هذا الأمر العظيم بغير حق، أو يظهر للناس خلاف ما في ضميره ولو جاز هذا في اجتماعهم على خلافة أبي بكر، لم يصح إجماعٌ قط، والإجماع أحد حجج الشريعة، ولا يجوز تعطيله بالتوهم، والذي روى أن علياً لم يبايع أبا بكر ستة أشهر ليس من قول عائشة، إنما هو من قول الزهري، فأدرجه بعض الرواة في الحديث عن عائشة في قصة فاطمة رضي الله عنها، وحفظه معمر بن راشد، فرواه مفصَّلاً، وجعله من قول الزهري منقطعاً من الحديث، وقد روينا في الحديث الموصول عن أبي سعيد الخدري ومن تابعه من أهل المغازي أن علياً بايعه في بيعة العامة بعد البيعة التي جرت في السقيفة، ويحتمل أن علياً بايعه بيعة العامة كما روينا في حديث أبي سعيد الخدري وغيره ثم شجر بين فاطمة وأبي بكر كلامٌ بسبب الميراث إذ لم تسمع من رسول الله ﷺ في باب الميراث ما سمعه أبو بكر وغيره، فكانت معذورة فيما طلبته، وكان أبو بكر معذوراً فيما منعه، فتخلف علي عن حضور أبي بكر حتى توفيت، ثم كان منه تجديد البيعة، والقيام بواجباتها ـ كما قال الزهري ـ، ولا يجوز أن يكون قعود علي في بيته على وجه الكراهية لإمارته، ففي رواية الزهري أنه بايعه بعد، وعظم حقه، ولو كان الأمر على غير ما قلنا لكانت بيعته آخراً خطأ، ومن زعم أن علياً بايعه ظاهراً وخالفه باطناً، فقد أسْاء الثناء على علي وقال فيه أقبح القول، وقد قال علي في إمارته ـ وهو على المنبر ـ: ألا أخبركم بخير هذه الأمة بعد نبيها ﷺ؟، قالوا: بلى، قال: أبو بكر، ثم عمر، ونحن نزعم أن علياً كان لا يفعل إلا ما هو حق، ولا يقول إلا ما هو صدق، وقد فعل في مبايعة أبي بكر ومؤازرة عمر ما يليق بفضله وعلمه وسابقته، وحسن عقيدته، وجميل نيته في أداء النصح للراعي والرعية، وقال في فضلهما ما نقلناه في

كتاب الفضائل، فلا معنى لقول من قال بخلاف ما قال وفعل، وقد دخل أبو بكر الصديق على فاطمة في مرض موتها وترضاها حتى رضيت عنه، **فلا طائل لسخط غيرها، ممن يدعي موالاة أهل البيت، ثم يطعن على أصحاب رسول الله ﷺ ويهجن من يواليهم ويرميه بالعجز والضعف، واختلاف السر والعلانية في القول والفعل**، وبالله العصمة والتوفيق.

عن الشعبي قال: «لما مرضت فاطمة أتى أبو بكر الصديق، فاستأذن عليها، فقال علي: يا فاطمة، هذا أبو بكر يستأذن عليك، فقالت: أتحب أن آذن له؟، قال: نعم، فأذنت له، فدخل عليها يترضَّاها، وقال: والله ما تركت الدار والمال والأهل والعشيرة إلا ابتغاء مرضاة الله، ومرضاة رسوله، ومرضاة أهل البيت، ثم ترضاها حتى رضيت»(١).

قال زيد بن علي بن الحسين بن علي: «أما أنا فلو كنت مكان أبي بكر، لحكمت بمثل ما حكم به أبو بكر في فدك»(٢).

وأما حديث الموالاة؛ فليس فيه - إن صحَّ إسناده -(٣) نص على ولاية علي بعده، فقد ذكرنا من طرقه في كتاب الفضائل ما دل على مقصود النبي ﷺ من ذلك، وهو: «أنه لما بعثه إلى اليمن كثرت الشكاة عنه، وأظهروا بغضه، فأراد النبي ﷺ أن يذكر اختصاصه به ومحبته إياه، ويحثهم بذلك على محبته وموالاته وترك معاداته، فقال: من كنت وليه (وفي لفظ: مولاه)، فعلي وليه (وفي لفظ: مولاه) [اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه]».

---

(١) أخرجه: المصنف في «الكبرى» (١٢٥١٥) - بالسند ذاته؛ وقال: هذا مرسل حسن، بإسناد صحيح.

- قال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٥/٢٨٩): وهذا إسناد جيد قوي؛ والظاهر أن عامر الشعبي سمعه من علي، أو ممَّن سمعه من علي.

(٢) إسناده ضعيف؛ عبدالله بن داود الواسطي متكلَّمٌ فيه. والخبر سكت عليه الحافظ ابن كثير في البداية (٥/٢٨٩ - ٢٩٠)؛ فالله أعلم.

(٣) قلت: قد صحَّ - بلا شك - عن جمع من صحابة رسول الله ﷺ؛ وقد أفردته بجزء سميته «لفت الانتباه إلى طرق حديث من كنت مولاه فعلي مولاه»؛ يسر الله إتمامه.

والمراد به ولاء الإسلام ومودته، وعلى المسلمين أن يوالي بعضهم بعضاً؛ وهو في معنى ما ثبت عن علي ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، وإنه لعهد النبي الأمي ﷺ إليَّ: لا يحبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق».

وفي حديث بريدة حين شكا علياً، فقال النبي ﷺ: «أتبغض علياً؟، فقلت: نعم، فقال: لا تبغضه وأحببه، وازدد له حباً؛ قال بريدة: فما كان من الناس أحد أحب إلي من علي بعد قول رسول الله ﷺ».

قال الشافعي ـ في معنى قول النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب: «من كنت مولاه، فعلي مولاه ـ»: «يعني بذلك: ولاء الإسلام، وذلك قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾».

وأما قول عمر بن الخطاب لعلي: «أصبحت مولى كل مؤمن»؛ يقول: ولي كل مسلم.

وعن الحسن بن الحسن [ـ أخي عبدالله بن الحسن ـ] أنه قال: «[لرجل ممن يتولاهم، فذكر قصة؛ ثم قال: ولو كان الأمر كما يقولون أن الله ورسوله اختارا علياً، للقيام على الناس بعد رسول الله ﷺ، إن كان علي لأعظم الناس خطيئة وجرماً في ذلك إذ ترك أمر رسول الله ﷺ كما أمره ويعذر فيه إلى الناس، قال: فقال له الرافضي:] وسأله رجلٌ: ألم يقل رسول الله ﷺ [لعلي]: من كنت مولاه، فعلي مولاه؟، قال: بلى، والله لو يعني بذلك رسول الله ﷺ: (وفي لفظ: أما والله إن رسول الله ﷺ إن كان يعني بذلك) الإمارة والسلطان [والقيام على الناس بعده] لأفصح لهم بذلك [كما أفصح لهم بالصلاة والزكاة وصيام رمضان، وحج البيت، ولقال لهم: إن هذا ولي أمركم من بعدي، فاسمعوا له وأطيعوا، فما كان من وراء هذا شيء، فإن أنصح الناس كان للمسلمين رسول الله ﷺ]، فإن رسول الله ﷺ كان أنصح للمسلمين؛ فقال: أيها الناس، هذا ولي أمركم والقائم عليكم من بعدي، فاسمعوا له وأطيعوا، والله لئن كان الله ورسوله اختارا علياً لهذا الأمر، وجعله القائم به للمسلمين من بعده، ثم ترك علي أمر الله ورسوله،

لكان علي أول من ترك أمر الله ورسوله».

وأما حديث سعد بن أبي وقاص: «أن النبي ﷺ خلَّف عليًا في غزوة تبوك، فقال: يا رسول الله، أتخلفني في النساء والصبيان؟، فقال: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، غير أنه لا نبي بعدي (وفي لفظ: معي)».

فإنه لا يعني به استخلافه بعد وفاته، وإنما يعني به: استخلافه على المدينة عند خروجه إلى غزوة تبوك، كما استخلف موسى هارون عند خروجه إلى الطور؛ وكيف يكون المراد به الخلافة بعد موته وقد مات هارون قبل موسى؟.

ثم الجواب عن هذا وعن جميع ما روي في معناه: ما روينا عن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب من تنزيه علي - رضي الله عنه - عن كتمان ما أمره به رسول الله ﷺ، وكذلك قاله أخوه عبدالله بن الحسن؛ فإنا روينا عنه أنه قال: «من هذا الذي يزعم أن علياً كان مقهوراً، وأن رسول الله ﷺ أمره بأمور لم ينفذها، فكفى ازدراء على علي ومنقصة بأن يزعم قوم أن رسول الله ﷺ أمره بأمر فلم ينفذه».

وقد اعترف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - بأن رسول الله ﷺ لم يستخلف أحداً بعد وفاته في أحاديث قد ذكرناها في مرض النبي ﷺ في آخر كتاب «دلائل النبوة» وفي كتاب «الفضائل».

ونحن نذكر هاهنا منها: عن شقيق بن سلمة قال: «قيل لعلي: استخلف علينا؟، فقال: ما استخلف رسول الله ﷺ فأستخلف؛ إن يرد الله بالناس خيراً جمعهم على خيرهم، كما جمعهم بعد نبيهم ﷺ على خيرهم». وعن عمرو بن سفيان قال: «لما ظهر علي - رضي الله عنه - على الناس يوم الجمل، قال: أيها الناس، إن رسول الله ﷺ لم يعهد إلينا في هذه الإمارة شيئاً حتى رأينا من الرأي أن نستخلف أبا بكر، فأقام واستقام حتى مضى لسبيله، ثم إن أبا بكر رأى من الرأي أن يستخلف عمر، فأقام واستقام حتى ضرب الدين بجرانه، ثم إن أقوى ما طلبوا هذه الدنيا، فكانت

أمور يقضي الله فيها ما يشاء [وفي رواية: أن علياً خطب، فقال: إن رسول الله ﷺ لم يعهد إلينا عهداً في الإمارة نأخذ به، ولكنه رأي رأيناه استخلف أبو بكر، فأقام واستقام، ثم استخلف عمر، فأقام واستقام حتى ضرب الدين بجرانه]». وعن الحكم بن جحل قال: «خطبنا علي بالبصرة، فقال: ألا لا يفضلني أحدٌ على أبي بكر وعمر، ولا أوتى بأحد فضلني عليهما إلا جلدته حد المفتري».

وعن سالم بن أبي حفصة قال: «سألت أبا جعفر محمد بن علي (و) جعفر بن محمد عن أبي بكر وعمر فقالا لي: يا سالم، تولاهما وابرأ من عدوهما، فإنهما كان إمامي هدى.

قال سالم: وقال لي جعفر بن محمد: يا سالم، أيسب الرجل جده؟، أبو بكر جدي لا نالتني شفاعة محمد ﷺ يوم القيامة إن لم أكن أتولاهما وأبرأ من عدوهما».

وقال أبو عيسى: وكانت أم جعفر بن محمد أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، أخبرني بذلك بعض ولد أبي بكر الصديق.



٣٧

٣٧ ـ باب: استخلاف أبي بكر وعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ

وهو أبو حفص عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبدالعزى بن رياح بن عبدالله بن قُرط بن رزاح بن عدي بن كعب القرشي العدوي ـ رضي الله عنه ـ.

عن عبدالله بن مسعود قال: «أفرس الناس ثلاثة: الملك حين تفرَّس في يوسف، والقوم فيه زاهدون؛ وابنة شعيب في موسى، فقالت لأبيها: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾؛ وأبو بكر حين تفرَّس في عمر فاستخلفه».

عن سعيد بن المسيب قال: «لما ولي عمر خطب الناس على منبر رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه؛ ثم قال: يا أيها الناس، إني قد علمت أنكم كنتم تصفون مني شدة وغلظة، وذلك أني كنت مع رسول الله ﷺ، فكنت عبده وخادمه، وكان كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وكنت بين يديه كالسيف المسلول إلا أن يغمدني أو ينهني عن أمر، فأكف وإلا أقمت على الناس لمكان لينه، فلم أزل مع رسول الله ﷺ على ذلك حتى توفاه الله، وهو عني راض، فالحمد لله على ذلك كثيراً وأنا به أسعد، ثم قد قمت ذلك المقام مع أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ بعده، وقد علمتم في كرمه ودعته ولينه، فكنت خادمه كالسيف المسلول على الناس بين يديه، أخلط شدتي بلينه إلا أن يتقدم إلي فأكف وإلا خدمت، فلم أزل على ذلك حتى توفاه الله، وهو عني راض، فالحمد لله على ذلك كثيراً وأنا به أسعد، ثم صار أمركم إلي

اليوم، وأنا أعلم أن سيقول قائل: كان يشدد علينا والأمر إلى غيره، فكيف به إذا صار إليه؟، واعلموا أنكم قد عرفتموني وجربتموني، وقد عرفت ـ بحمد الله ـ من سنة نبيكم ما عرفت، وما أصبحت نادماً على شيء يكون كنت أحب أن يسأل رسول الله ﷺ إلا وقد سألته، واعلموا أن شدتي التي كنتم ترون مني قد زادت أضعافاً إذ كان الأمر إليَّ على الظالم والمعتدي والأخذ للمسلمين لضعيفهم من قويهم، وإني بعد شدتي تلك واضعٌ خدي بالأرض بأهل الكفاف والكف منكم والتسليم، وإني لا أبالي كان بيني وبين أحد في أحسابكم أن أمشي معه إلى من أحببتم منكم، فينظر فيما بيني وبينه، فاتقوا الله عباد الله وأعينوني على أنفسكم بكفها عني وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحضار النصيحة فيما ولاني الله، ثم نزل.

قال ابن المسيب: فوالله لقد وفا بما قال، وزاد في موضع الشدة على أهل الريبة والظلمة، والرفق بأهل الحق من كانوا».

عن قيس الحارثي (و) عن عبد خير قال: «سمعتُ علياً يقول على هذا المنبر: سبق رسول الله ﷺ، وثنى أبو بكر، وثلَّث عمر، ثم أصابتنا فتنة فهو ما شاء الله ـ عز وجل ـ (وفي لفظ: يعفو الله عمن يشاء)».

عن إبراهيم قال: «ضرب علقمة هذا المنبر، وقال: خطبنا علي على هذا المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر ما شاء الله أن يذكره؛ ثم قال: بلغني أن ناساً يفضلونني على أبي بكر، وعمر، ولو كنت تقدمت في ذلك لعاقبت فيه، ولكن أكره العقوبة قبل التقدم، ومن قال شيئاً من ذلك، فهو مفتر، عليه ما على المفتري.

إن خير الناس بعد رسول الله ﷺ: أبو بكر، وعمر، وحدثنا بعدهما أحداثاً يفعل الله فيها ـ أظنه قال: ما أحب ـ».

ولهذا شواهد عن علي ـ رضي الله عنه ـ ذكرناها في كتاب «الفضائل».

عن ابن عباس قال: «لما وضع عمر على سريره؛ فتكنفه الناس يدعون ويصلون، فلم يرعني إلا رجل أخذ بمنكبي، فالتفت فإذا علي بن

أبي طالب، فقال: والله ما خلفت أحداً أحب إلي أن ألقى الله بمثل عمله منك، وإن كنت لأرجو أن يجعلك الله مع صاحبيك، إذ كنت أسمع النبي ﷺ يقول: ذهبت أنا وأبو بكر، وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر، وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر، وعمر، فإن كنت لأرجو أن يجعلك الله معهما». وعن أبي حازم أنه قال: «ما رأيت هاشمياً أفقه من علي بن الحسين؛ سمعت علي بن الحسين - وهو يسأل كيف كانت منزلة أبي بكر، وعمر عند رسول الله ﷺ؟؛ فأشار بيدهٔ إلى القبر، ثم قال: [كـ] منزلتهما منه الساعة [هما ضجيعاه]». وعن أبي عباس قال: «دخلت على عمر حين طعن؛ فقلت: أبشر بالجنة يا أمير المؤمنين، أسلمت حين كفر الناس، وجاهدت مع رسول الله ﷺ حين خذله الناس، وقبض رسول الله ﷺ وهو عنك راض، ولم يختلف في خلافتك اثنان، [ووُلِّيت فعدلت]، وقتلت شهيداً [وفي رواية: أن ابن عباس قال له: أبشر يا أمير المؤمنين، فإن الله قد مصَّر بك الأمصار، ودفع بك النفاق، وأفشى بك الزرق؛ وفي أخرى: أنه قال: لقد صحبت رسول الله ﷺ فأحسنت صحبته، ثم فارقك وهو عنك راض، ثم صحبت أبا بكر فأحسنت صحبته، وفارقك وهو عنك راض؛ وصحبت المسلمين فأحسنت صحبتهم، ولئن فارقتهم لتفرقنهم وهم عنك راضون]؛ فقال: أعد عليَّ، فأعدت عليه؛ فقال: والله الذي لا إله إلا هو لو أن لي ما على الأرض من صفراء وبيضاء لافتديت به من هول المطلع».



٣٨

٣٨ ـ باب:
استخلاف عثمان بن عفان ـ رضي اللّه عنه ـ

وهو أبو عبدالله ـ وقيل: أبو عمرو ـ عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي.

عن أبي بكرة: أن النبي ﷺ قال: [ـ ذت يوم ـ]: «من رأى منكم (وفي لفظ: أيكم رأى) رؤيا فقال رجل: أنا رأيت كأن ميزاناً نزل من السماء فوزنت أنت وأبو بكر، فرجحت أنت بأبي بكر، ووزن عمر وأبو بكر فرجح أبو بكر، ووزن عمر وعثمان فرجح عمر، ثم رفع الميزان فرأينا الكراهية في وجه رسول الله ﷺ (وفي لفظ: قال: فاستاء لها رسول الله ﷺ ـ يعني: ساءه ذلك ـ) [فقال: خلافة نبوة، ثم يولي الله الملك من يشاء]».

عن جابر بن عبدالله: أن رسول الله ﷺ قال: «رأى الليلة رجل صالح أن أبا بكر نيط برسول الله ﷺ ونيط عمر بأبي بكر، ونيط عثمان بعمر. قال جابر: فلما قمنا من عند النبي ﷺ قلنا: الرجل الصالح النبي ﷺ؛ فأما ما ذكر من نوط بعضهم بعضاً فهم ولاة هٰذا الأمر الذي بعث الله به نبيه ﷺ».

عن عمرو بن ميمون قال: «رأيت عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فذكر الحديث في مقتله ـ؛ قال: فقالوا: أوص يا أمير المؤمنين، استخلف فقال: ما أحد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر أو الرهط الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض ـ فسمى علياً، وعثمان، والزبير، وطلحة، وسعداً، وعبدالرحمٰن بن عوف، وقال: يشهدكم عبدالله بن عمر ـ وليس له

من الأمر شيء ـ كالتعزية له فإن أصابت الإمرة سعداً فهو دال وإلا فيستعن به أيكم ما أمر فإني لم أعزله من عجز ولا خيانة، وقال: أوصي الخليفة من بعدي فذكر وصيته بالمهاجرين الأولين، ثم بالأنصار، ثم بأهل الأمصار، ثم بالأعراب، ثم بأهل الذمة، ثم ذكر دفنه.

ثم قال: فلما فرغ من دفنه ورجعوا اجتمع هؤلاء الرهط فقال عبدالرحمٰن: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم، قال الزبير: قد جعلت أمري إلى علي، وقال طلحة قد جعلت أمري إلى عثمان، وقال سعد قد جعلت أمري إلى عبدالرحمٰن؛ فقال عبدالرحمٰن: أيكم يبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه والله عليه والإسلام لينظرن أفضلهم في نفسه وليحرصن على صلاح الأمة، قال: فأسكت الشيخان، فقال عبدالرحمٰن: أفتجعلونه إلي والله علي أن لا آل عن أفضلكم فقالا: نعم، قال: فأخذ بيد أحدهما فقال: لك من قرابة رسول الله ﷺ والقدم في الإسلام ما قد علمت والله عليك لئن أمرتك لتعدلن ولئن أمرت عثمان لتسمعن ولتطيعن، ثم خلا بالآخر فقال له مثل ذلك فلما أخذ الميثاق قال: ارفع يدك يا عثمان، فبايعه وبايع له علي وولج أهل الدار فبايعوه».

ورواه المسور بن مخرمة، وقال: «فلما اجتمعوا تشهد عبدالرحمٰن ثم قال: أما بعد، يا علي إني قد نظرت في أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان، فلا تجعلن على نفسك سبيلاً، قال: وأخذ بيد عثمان وقال: أبايعك على سنة الله ورسوله والخليفتين من بعده، فبايعه عبدالرحمٰن وبايعه الناس ـ المهاجرون والأنصار ـ وأمراء الأجناد والمسلمون؛ وهذا بعد أن شاور عبدالرحمٰن الناس ثلاثة أيام، لا يخلو به رجل ذو رأي فيعدل بعثمان».

عن ابن عمر قال: «كنا في زمن النبي ﷺ لا نعدل بعد النبي ﷺ أحداً بأبي بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم نترك أصحاب النبي ﷺ لا نفاضل بينهم». وعن محمد بن الحنفية قال: «قلت لأبي ـ يعني: علياً ـ أي الناس خير بعد رسول الله ﷺ؟؛ قال: أبو بكر قلت ثم من؟؛ قال ثم عمر، قال:

ثم خشيت أن أقول ثم من، فيقول عثمان، فقلت ثم أنت يا أبي قال: ما أنا إلا رجل من المسلمين».

عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ: «أن رسول الله ﷺ دخل حائطاً وأمرني بحفظ باب الحائط بجاء رجل يستأذن، فقال: ائذن له وبشره بالجنة، فإذا أبو بكر، ثم جاء رجل آخر يستأذن، فقال: ائذن له وبشره بالجنة، فإذا عمر ثم استأذن رجل آخر فسكت هنيهة، ثم قال: ائذن له وبشره بالجنة بعد بلوى تصيبه فإذا عثمان. [وزاد عاصم الأحول في حديثه: أن رسول الله ﷺ كان في مكان فيه ماء قد كشف عن ركبتيه فلما أقبل عثمان غطاها]».

عن عائشة قالت: «أن رسول الله ﷺ قال: ادع لي ـ أو ليت عندي ـ رجل من أصحابي قالت: قلت: أبو بكر قال: لا قلت: عمر قال: لا قلت: ابن عمك علي قال: لا، قلت: فعثمان قال: نعم؛ قالت: فجاءه عثمان، فقال: قومي قال: فجعل النبي ﷺ يسر إلى عثمان ولون عثمان يتغير فلما كان يوم الدار قلنا: ألا تقاتل؟، قال: لا إن رسول الله ﷺ عهد إلي أمراً فأنا صابر نفسي عليه».

وروينا في حديث ابن عمر (و) أبي هريرة (و) عبدالله بن حوالة (و) مرة بن كعب: عن النبي ﷺ: «ـ في فتنة ذكرها وأشار إلى عثمان بأنه يكون فيها على الحق ـ أو قال: على الهدى ـ»، وفي رواية بعضهم: «عليكم بالأمير وأصحابه ـ وأشار إلى عثمان بن عفان ـ».

وفي كل ذلك مع ما ذكرناه في «الفضائل» دلالة على صحة خلافته.

وقال الشافعي ـ وهو يحتج في تثبيت خبر الواحد ـ: «وما أجمع المسلمون عليه من أن يكون الخليفة واحداً، فاستخلفوا أبا بكر، ثم استخلف أبو بكر عمر، ثم عمر أهل الشورى ليختاروا واحداً؛ فاختار عبدالرحمٰن عثمان بن عفان».

وروينا عن الشافعي أنه كان يقول: «أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي». وقال أيضاً: «ما اختلف أحد من

الصحابة والتابعين في تفضيل أبي بكر وعمر وتقديمهما على جميع الصحابة، وإنما اختلف منهم في علي وعثمان، ونحن لا نخطىء واحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فيما فعلوا».

وقد ذكرنا أسانيدها في كتاب «الفضائل»، وروينا عن جماعة من التابعين واتباعهم نحو هذا وبالله التوفيق.



٣٩

٣٩ ـ باب: استخلاف أبي الحسن علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم ـ رضي الله عنه ـ



عن سعيد بن جمهان: عن سفينة قال: قال رسول الله ﷺ: «خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم يؤتي الله الملك من يشاء. ثم ذكر سفينة خلافة أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي؛ وقال سعيد: قلت لسفينة: إن هؤلاء يزعمون أن علياً لم يكن خليفة، فقال: كذبت استاه بني الزرقاء».

عن الزهري قال: «لما قتل عثمان برز علي بن أبي طالب للناس ودعاهم إلى البيعة، فبايعه الناس ولم يعدلوا به طلحة ولا غيره».

وهذا لأن سائر من بقي من أصحاب الشورى كانوا قد تركوا حقوقهم عند بيعة عثمان ـ كما مضى ذكره ـ، فلم يبق أحد منهم لم يترك حقه إلا علي، وكان قد وفى بعهد عثمان حتى قتل، وكان أفضل من بقي من الصحابة، فلم يكن أحد أحق بالخلافة منه، ثم لم يستبد بها ـ مع كونه أحق الناس بها حتى جرت له بيعة وبايعه مع سائر الناس من بقي من أصحاب الشورى.

عن الحسن قال: «لما قدم علي البصرة في إثر طلحة وأصحابه، قام عبد الله بن الكواء وابن عباد، فقال له: يا أمير المؤمنين، أخبرنا عن مسيرك هذا، أوصية أوصاك بها رسول الله ﷺ، أم عهد عهده إليك، أم رأيٌ رأيته حين تفرقت الأمة واختلفت كلمتها؟، فقال: ما أكون أول كاذب عليه، والله ما مات رسول الله ﷺ موت فجأة، ولا قتل قتلاً، ولقد مكث في مرضه

كل ذلك يأتيه المؤذن، فيؤذن بالصلاة، فيقول: مروا أبا بكر ليصلي بالناس، ولقد تركني وهو يرى مكاني، ولو عهد إليَّ شيئاً لقمت به، حتى عرضت في ذلك امرأة من نسائه، فقالت: إن أبا بكر رجل رقيق إذا قام مقامك لا يسمع الناس، فلو أمرت عمر أن يصلي بالناس قال لها: إنكن صواحب يوسف، فلما قبض رسول الله ﷺ نظر المسلمون في أمرهم فإذا رسول الله ﷺ قد ولى أبا بكر أمر دينهم، فولوه أمر دنياهم، فبايعه المسلمون، وبايعته معهم؛ فكنت أغزو إذا أغزاني، وآخذ إذا أعطاني، وكنت سوطاً بين يديه في إقامة الحدود، فلو كانت محاباة عند حضور موته، لجعلها لولده، فأشار بعمر، ولم يال، فبايعه المسلمون، وبايعته معهم فكنت أغزو إذا أغزاني، وآخذ إذا أعطاني، وكنت سوطاً بين يديه في إقامة الحدود، فلو كانت محاباة عند حضور موته، لجعلها لولده، وكره أن ينتخب منا معشر قريش فيوليه أمر الأمة، فلا يكون فيه إساءة لمن بعده إلا لحقت عمر في قبره، فاختار منا ستة أنا فيهم لنختار للأمة رجلاً منا، فلما اجتمعنا، وثب عبدالرحمٰن فوهب لنا نصيبه منها على أن نعطيه مواثيقنا على أن يختار من الخمسة رجلاً فيوليه أمر الأمة، فأعطيناه مواثيقنا، فأخذ بيد عثمان فبايعه، ولقد عرض في نفسي عند ذلك، فلما نظرت في أمري، فإذا عهدي قد سبق بيعتي، فبايعت وسلمت، فكنت أغزو إذا أغزاني، وآخذ إذا أعطاني، فلما قتل عثمان نظر في أمري، فإذا الربقة التي كانت لأبي بكر وعمر في عنقي قد انحلت، وإذا العهد لعثمان قد وفيت به، وإذا أنا برجل من المسلمين ليس لأحد عندي دعوى ولا طلب، فوثب فيها من ليس مثلي ـ يعني: معاوية ـ، لا قرابته كقرابتي، ولا علمه كعلمي، ولا سابقته كسابقتي، وكنت أحق بها منه؛ قالا: صدقت؛ فأخبرنا عن قتالك هذين الرجلين ـ يعنيان: طلحة والزبير ـ، صاحباك في الهجرة، وصاحباك في بيعة الرضوان، وصاحباك في المشورة؛ قال: بايعاني بالمدينة وخالفاني بالبصرة، ولو أن رجلاً ممن بايع أبا بكر خلعه لقاتلناه، ولو أن رجلاً ممن بايع عمر خلعه لقاتلناه».

سمعت الشيخ الإمام أبا الطيب سهل بن محمد الصعلوكي ـ وهو يذكر

ما يجمع هذا الحديث من فضائل علي ـ رضي الله عنه ـ، ومناقبه، ومزاياه، ومحاسنه، ودلالات صدقه، وقوة دينه، وصحة بيعته ـ قال: ومن كبارها أنه لم يدع ذكر ما عرض له فيما أجرى إليه عبدالرحمٰن ـ وإن كان يسيراً ـ، حتى قال: ولو عرض في نفسي عند ذلك، وفي ذلك ما يوضح أنه لو عرض له في أمر أبي بكر وعمر شيء، واختلف له فيه سر وعلن، لبينه بصريح، أو نبه عليه بتعريض، كما فعل فيما عرض له عند فعل عبدالرحمٰن ما فعل.

قال الشيخ: وكان السبب في قتال طلحة والزبير علياً أن بعض الناس صور لهما أن علياً كان راضياً بقتل عثمان، فذهبا إلى عائشة أم المؤمنين وحملاها على الخروج في طلب دم عثمان والإصلاح بين الناس بتخلية علي بينهم وبين من قدم المدينة في مقتل عثمان، فجرى الشيطان بين الفريقين حتى اقتتلوا، ثم ندموا على ما فعلوا، وتاب أكثرهم، فكانت عائشة تقول: «وددت أني كنت ثكلت عشرة مثل ولد الحارث بن هشام، وأني لم أسر مسيري الذي سرت»؛ وروي: «أنها ما ذكر مسيرها قط إلا بكت حتى تبل خمارها، وتقول: يا ليتني كنت نسياً منسياً».

وروي: «أن علياً بعث إلى طلحة يوم الجمل، فأتاه فقال: نشدتك الله، هل سمعت رسول الله ﷺ يقول: من كنت مولاه، فعلي مولاه؛ اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه؛ قال: نعم؛ قال: فلم تقاتلني؟، قال: لم أذكر. قال: فانصرف طلحة»؛ ثم روي: «أنه حين رمي بايع رجلاً من أصحاب علي، ثم قضى نحبه، فأخبر علي بذلك، فقال: الله أكبر، صدق الله ورسوله؛ أبى الله أن يدخل الجنة إلا وبيعتي في عنقه»[1]. وروي أن علياً بلغه رجوع الزبير بن العوام، فقال: «أما والله، ما رجع جبناً، ولكنه رجع تائباً»[2]؛ وحين جاء ابن جرموز ـ قاتل الزبير ـ قال: «ليدخل قاتل ابن صفية النار، سمعت رسول الله ﷺ يقول: لكل نبي حواري، وحواري الزبير».

---

(١) لم أقف عليه الآن.

(٢) لم أقف عليه الآن.

وكان علي يقول: «إني لأرجو أن أكون وطلحة والزبير من الذين قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر: ٤٧]».

وكان أمير المؤمنين ـ رضي الله عنه ـ بريئاً من قتل عثمان[١]، وكان يقول: «والله ما قتلت، ولا أمرت، ولا شاركت في قتل عثمان؛ ولكن غلبت»، وكان يقول: «إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان من الذين قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر: ٤٧]».

قال الشعبي: «أدركت خمسمائة من أصحاب النبي ﷺ أو أكثر كلهم يقول: عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير في الجنة».

وأما خروج من خرج على أمير المؤمنين ـ رضي الله عنه ـ من أهل الشام في طلب دم عثمان، ثم منازعته إياه في الإمارة لأنه غير مصيب فيما فعل، واستدللنا ببراءة علي من قتل عثمان بما جرى له من البيعة لما كانت له من السابقة في الإسلام والهجرة والجهاد في سبيل الله، والفضائل الكثيرة، والمناقب الجمة التي هي معلومة عند أهل المعرفة.

إن الذي خرج عليه ونازعه كان باغياً عليه، وكان رسول الله ﷺ قد أخبر عمار بن ياسر بأن الفئة الباغية تقتله، فقتله هؤلاء الذين خرجوا على أمير المؤمنين ـ رضي الله عنه ـ في حرب صِفِّين. عن أم سلمة: «أن رسول الله ﷺ قال لعمار: تقتلك الفئة الباغية»[٢].

---

(١) قال العلامة ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٩٣/٧): «وقد اعتنى الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر بجمع الطرق الواردة عن علي أنه تبرأ من دم عثمان، وكان يقسم عى ذلك في خطبه وغيرها أنه لم يقتله ولا أمر بقتله ولا مالىء ولا رضي به، ولقد نهى عنه فلم يسمعوا منه؛ ثبت ذلك عنه من طريق تفيد القطع عند كثير من أئمة الحديث، ولله الحمد والمنة» اهـ.

(٢) قال الحافظ في «الإصابة» (٥٦٤/٤) ـ ملخصاً أمر الفتنة أحسن تلخيص ـ: «فلما قتل عثمان بايعه الناس ثم كان من قيام جماعة من الصحابة منهم طلحة، والزبير، وعائشة في =

عن أبي بكر محمد بن إسحاق قال، وهو: ابن خزيمة ـ رحمه الله ـ:

«خير الناس بعد رسول الله ﷺ وأولاهم بالخلافة أبو بكر الصديق، ثم عمر الفاروق، ثم عثمان ذو النورين، ثم علي بن أبي طالب ـ رحمة الله ورضوانه عليهم أجمعين ـ؛ قال: وكل من نازع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في إمارته فهو باغ على هذا عهدت مشايخنا، وبه قال ابن إدريس ـ يعني: الشافعي ـ رحمه الله ـ».

قال الشيخ: ثم لم يخرج من خرج عليه ببغيه عن الإسلام، فقد كان رسول الله ﷺ قال [ـ فيما رواه عنه: أبو هريرة ـ]: «لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة، ودعواهما واحدة».

قال الشيخ: ويعني بقيام الساعة انقراض ذلك العصر ـ والله أعلم ـ.

وصح عن علي ـ رضي الله عنه ـ أنه قاتلهم قتال أهل العدل مع أهل البغي، فكان أصحابه لا يجهزون على جريح، ولا يقتلون مواليا، ولا يسلبون قتيلاً. فعن أبي أمامة أنه قال: «شهدت صفين، فكانوا لا يجهزون على جريح، ولا يقتلون مواليا، ولا يسلبون قتيلاً».

وكان رسول الله ﷺ أخبر بفرقة تكون بين طائفتين من أمته، فيخرج من بينهما مارقة يقتلها أولى الطائفتين بالحق، فكانت هذه الفرقة بين علي ومن نازعه، وقد جعلهما من أمته، ثم خرجت هذه المارقة ـ وهي أهل النهروان ـ قتلهم علي وأصحابه وهم أولى الطائفتين بالحق، وكان النبي ﷺ وصف المارقة الخارجة، وأخبر بالمخدَّج الذي يكون فيهم، فوجدوا بالصفة

= طلب دم عثمان فكان من وقعة الجمل ما اشتهر، ثم قام معاوية في أهل الشام وكان أميرها لعثمان ولعمر من قبل، فدعا إلى الطلب بدم عثمان فكان من وقعة صفين ما كان، وكان رأى علي أنهم يدخلون في الطاعة، ثم يقوم ولي دم عثمان فيدعى به عنده، ثم يعمل معه ما يوجبه حكم الشريعة المطهرة، وكان من خالفه يقول له: تتبعهم واقتلهم فيرى أن القصاص بغير دعوى ولا إقامة بينة لا يتجه. وكل من الفريقين مجتهد، وكان من الصحابة فريق لم يدخلوا في شيء من القتال وظهر بقتل عمار أن الصواب كان مع علي واتفق على ذلك أهل السنة بعد اختلاف كان في القديم، ولله الحمد».

التي وصف، ووجد المخدَّج بالنعت الذي نعت، وذلك بيِّنٌ في حديث أبي سعيد الخدري وغيره.

وكان إخبار النبي ﷺ بذلك ووجود تصديقه بعد وفاته من «دلائل النبوة»، ومما يؤثر في فضائل أمير المؤمنين علي ـ رضي الله عنه ـ في كونه محقاً في قتالهم مصيباً في قتل من قتل منهم.

وحين وجد المخدَّج سجد علي ـ رضي الله عنه ـ شكراً لله ـ تعالى ـ على ما وفق له من قتالهم، وقد ذكرنا هذه الأحاديث في «الفضائل»، وهذا الكتاب لا يحتمل أكثر من هذا.

عن أبي بكرة قال: «رأيت رسول الله ﷺ على المنبر والحسن بن علي معه إلى جنبه وهو يلتفت إلى الناس مرة وإليه مرة؛ ويقول: إن ابني هذا سيد، ولعل الله يصلح به بين فئتين من المسلمين».

ـ قال سفيان: قوله: «فئتين من المسلمين»، يعجبنا جدًّا.

قال الشيخ: وإنما أعجبهم؛ لأن النبي ﷺ سماهما جميعاً مسلمين، وهذا خبر من رسول الله ﷺ بما كان من الحسن بن علي بعد وفاة علي في تسليمه الأمر إلى معاوية بن أبي سفيان؛ وقال ـ في خطبته ـ: «أيها الناس، إن الله هداكم بأولنا، وحقن دماءكم بآخرنا، وإن هذا الأمر الذي اختلفت فيه أنا ومعاوية ما هو حق لامرىء كان أحق به مني، بل حق لي تركته لمعاوية إرادة إصلاح المسلمين وحقن دمائهم بل ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾﴾ [الأنبياء: ١١١].





الخاتمة

قال الشيخ الإمام ـ رضي الله عنه ـ:

هذا الذي أودعناه هذا الكتاب اعتقاد أهل السنة والجماعة وأقوالهم، وقد أفردنا كل باب منها بكتاب يشتمل على شرحه منوراً بدلائله وحججه.

واقتصرنا في هذا الكتاب على ذكر أصوله، والإشارة إلى أطراف أدلته إرادة انتفاع من نظر فيه به، والله يوفقنا لمتابعة السنة واجتناب البدعة، ويجعل عاقبة أمرنا إلى رشد وسعادة بفضله وسعة رحمته، إنه الحنان المنان الواسع الغفران؛ انتهى(١).

ـ تم الكتاب ـ



(١) وقد انتهى السَّواد إلى البياض واستراح اليراع المُرتاض عن كتابة هذه المقالة سَلْخ جمادى الآخرة سنة تسع عشرة بعد الأربع مائة والألف من هجرة من كان يرى أمامه والخلف ـ صلى الله عليه وعلى آله، وأصحابه، وتابعيهم، وتابعي تابعيهم، وأهل الحديث، الناسجين على منواله ـ ما تلعلع قمرٌ وازدهى، وإلى غاية كماله انتهى.

الفهـرس



الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
ـ بيان ضعف حديث: «من شغله قراءة القرآن عن مسألتي...»	٨٢، ٨٣
ـ الكلام على ضعف إسنادي أثرين، أحدهما عن عثمان والآخر عن ابن عباس	٨٣
ـ قاعدة ذهبية في باب الكلام الإلهي	٨٤
١١ ـ باب: **القول في الاستواء**	٨٧
ـ ذكر الآيات والأخبار الواردة في الباب	٨٧، ٨٨
ـ ذكر وجه الدلالة منها	٨٨
ـ مذهب السلف في الغيبيّات الوقوف على ما جاءت به النصوص	٨٨
ـ تقسيم المصنف أهل الحديث إلى طائفتين ـ مؤوّلة، وموكِّلة ـ، وبيان خطئه في ذلك	٨٩، ٩٠
ـ التنبيه على أن الاستواء من معانيه الاستقرار، والرد على نفي المصنف إيَّاه ...	٩٠
ـ مشروعية السؤال بـ «أين»، والرد على نفي المصنف إيَّاه؛ وبيان الباعث لبعضهم على تضعيف حديث الجارية	٩٠
١٢ ـ باب: **القول في إثبات رؤية الله ـ عز وجل ـ في الآخرة بالأبصار** ...	٩٢
ـ ذكر الآيات والأخبار الواردة في الباب	٩٢، ٩٣
ـ ذكر وجه الدلالة منها	٩٣ ـ ٩٨
١٣ ـ باب: **القول في الإيمان بالقدر**	٩٩
ـ ذكر الآيات والأخبار الواردة في الباب	٩٩
ـ ذكر وجه الدلالة منها	١٠١ ـ ١٠٣
١٤ ـ باب: **القول في خلق الأفعال**	١٠٤
ـ ذكر الآيات والأخبار الواردة في الباب	١٠٤
ـ ذكر وجه الدلالة منها	١٠٤ ـ ١٠٥
ـ تقرير المصنف مسألة القدر وفق نظرية الكسب، وبيان خطئه في ذلك، ونقل كلام ابن القيِّم في المسألة والجواب على الآيتين الَّتين استدلَّ بهما المصنف على مذهبه	١٠٥ ـ ١٠٧
ـ التنبيه على ضعف حديث أبي موسى الأشعري في تخليق الخير والشر يوم القيامة	١٠٧

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة



فتح القوي المتين

في شرح الأربعين وتتمة الخمسين

للنووي وابن رجب رحمهما الله

تأليف

عبد المحسن بن حمد العباد البدر

دار ابن القيم	دار ابن عفان

قطف الجنى الداني

شرح مقدمة

رسالة ابن أبي زيد القيرواني

إعداد

عبد المحسن بن حمد العباد البدر

دار ابن عفان

دار ابن القيم

الجَامِعُ المُيسَّر

في

صَفْوَةِ عُلومِ الدِّين

تأليف

فائق عمر سرسك

دار ابن عفان

المنة الإلهية

بشرح

العقيدة السفارينية

للإمام محمد بن أحمد السفاريني

رحمه الله

شرح فضيلة الشيخ

أبي عبد الرحمن يحيى بن علي الحجوري

حفظه الله تعالى